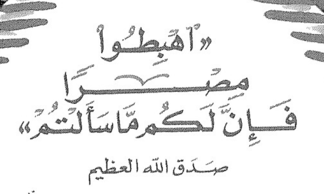


مصر في القرآن والسنة

تأليف الدكتور
أحمد عبد الحميد يوسف

دار الشروق

إهـــــــداء2004

دار الشروق

القاهرة

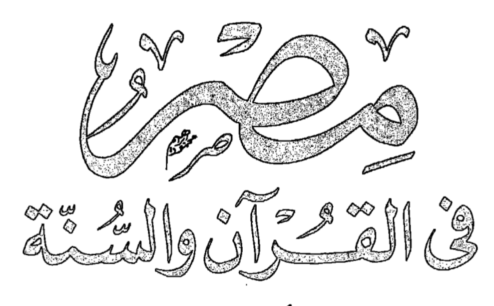

مصر
فى القرآن والسنة

مصر في القرآن والسنة

الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

دار الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
- رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤
هاتف : ٣١٥٨٥٩-٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)



تأليف الدكتور
أحمد عبد الحميد يوسف

دار الشروق

إلى العقـــــاد

رَحِمَـــــه اللّه

هول كين مصر رواية لا تنتهى   منها يد الكتاب والشراح
فيها من البردى والمزمور والتوراة والفرقان والإصحاح
ومنا وقمبيز إلى اسكندر   فالقيصرين فذى الجلال صلاح

شوقى

ـ ١ ـ

مقصد الأنبياء

قد تبدو للمؤمن بالغيب من التقاة الورعين من أحداث التاريخ أسرار يردها إلى حكمة الله عز وجل، وأمر منه كتب منذ الأزل في اللوح المحفوظ .

لأمر ما قدر الله للمصطفين من أنبيائه ورسله مقادير يجتمعون عليها ويشتركون فيها، وموارد إليها يردون ومنها يأخذون، ولأمر ما شاء رب العرش لأنبيائه ورسله أن يخرجوا من تلك البقعة الوسطى من شرق الأرض فيبشروا فيها بما نزل عليهم من كتب الدين ورسالات السماء، ولأمر ما شاء رب العرش أن يُقبل أنبياؤه على مصر ويردوها فيقيموا فيها ما شاء لهم أن يقيموا أو يكون لهم بها سبب يعظم أو يهون .

فإذا سلكنا سبيل المؤمنين المستسلمين ، ونظرنا في هذا نظر التقاة المتثلين قلنا «إن لله حكمة هو بالغها فيما قدر لأنبيائه ومرسليه، وبمثل هذا تحدث إنجيل متى عن رحلة المسيح :

«إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلا : «قم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر . . . لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل من

مصر دعوت ابنى» (٢ : ١٣ ـ ١٥)، فهو قضاء سابق أن يدعى يسوع من مصر، فليكن إذن رحيله إليها قضاء لأمر من الله سابق سوف يكون.

ولئن بدت الأمور كذلك للمتقين المستمسكين بالإيمان دون غيره فقد يجد المؤرخون أنفسهم ـ مع إيمانهم ـ من وقائع التاريخ حيال أحداث متشابهات، وظواهر متكررات تفرض على عقولهم ومناهجهم التساؤل والاستقصاء، وتخرج بهم من معلول يستظهرونه إلى علة يطمئنون إليها، وإليها يركنون.

على أن سنة القرآن فيما روى من قصص، واستعرض من أحداث أنه إنما ينتقى منها من الشواهد ما يدعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، مخلدا إلى الإيجاز، معبراً فى القصص عما يريد من اللباب الذى يتعمق إلى الأغوار، محققًا بذلك العظة التى أراغها وقصد إليها من السيرة وروايتها.

فلم يكن كتاب الله إذن سجلاً للأحداث ولا كتابًا للتاريخ بمعناه المفهوم، ولا صحيفة من صحائف الأمم، ولا شعب من الشعوب، ولذلك فلسنا نأنس فيه الأسماء الكثيرة ولا تفرع الأنساب والسلالات، ولا نجد فيه استقصاءً لأحداث معدودات مفصلات، وهو مع ذلك ـ على إيجازه وبيانه ـ خليق أن يحفز على البحث والاستقصاء، خليق بالنظر فيما أورد من أخبار الأيام، والتحقق من أحداث التاريخ.

أخرج جلال الدين السيوطى فى كتابه «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة» عن ابن زولاق أن مصر ذكرت فى القرآن فى ثمانية وعشرين موضعًا، وقال بل أكثر من ثلاثين، وقع فيها ذكر مصر من القرآن صريحًا أو كناية، ونضيف أنها ذكرت فى الكتاب المقدس فى

ستمائة وثمانين موضعًا، وكذلك نقل السيوطى عن الكندى تعليقه على طائفة من آيات القرآن فيها قوله: «لا يعلم بلد فى أقطار الأرض أثنى الله عليه فى القرآن بمثل هذا الثناء، ولا وصفه بمثل هذا الوصف، ولا شهد له بالكرم غير مصر».

أجل. فلقد كانت مصر فصلاً جليلاً من تاريخ كل دين. على أرضها كلم الله موسى وبعثه هداية للعالمين. وأقبل عليها يسوع فى المهد وكانت به أسبق المؤمنين، ثم صارت من بعد، حصن الإسلام ومعقله الحصين.



ومن قبل ذلك أقبل عليها أبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم فأقام بين أهلها يقول لهم ويسمع منهم، ثم يخرج بجارية - مصرية تكون أمًّا لبكر بنيه، فلقد كانت هاجر مصرية، تحمل اسمًا مصريًا ورد فى الآثار المصرية بما لا يلحظ فيه غير تصحيف يسير، إذ نقرؤه فى المصرية، هاقر، وهاقرة[١].

وتلد هاجر المصرية إسماعيل الذى باركه ربه، فكان صديقًا نبيًّا، ومن إسماعيل تخرج أمة عظيمة، هى أمة العرب المستعربين ومنها كانت قريش زعيمة العاربين والمستعربين أجمعين.

---

(١) H. Ranke, Die Ägyptishen Personennamen (Glückstadt 1932 & 1952) Band I.S. 231.

وكان ثانى ملوك الأسرة التاسعة والعشرين المصرية يسمى هاجر وهاكر على اختلاف فى اللهجة والهجاء وعرف فى تصحيف الإغريق باسم أخوريس. انظر Gauthier, Livre des Rois III p. 164

وقد شاء الله أن يشرف الأصل بالفرع، فتشرف هاجر بمولد إسماعيل، بل يشاء تخليدا لتلك الفتاة المصرية فيفرض على عباده السعي - كما سعت - بين الصفا والمروة حاجين أو معتمرين، إذ تأذن ربك للآلاف من خلقه أن يطوفوا بين الجبلين إذ يتدافعون ما دارت الشمس كل عام مسبحين مهللين، وملبِّين مكبرين، وأن يظلوا على تدافعهم حتى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون، وأن يكون فرضه هذا من أركان دينه الذى أنزله وارتضاه كافة للعالمين.

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة: ١٥٨]

وكأنما كان خليل الرحمن يدعو لذريته فى أرض الحجاز بمثل الذى رأى من الخير فى مصر، حين هبط إليها زائراً، ثم متخذاً من بناتها زوجة، تكون أمًّا لولده إسماعيل، وأمًّا للعرب ونبعة لسيد الأنبياء والمرسلين؛ وكأنما تمثل له حين دعا فى الحجاز لهاجر ما كانت قد اعتادت فى بلادها التى هجرتها وأقبلت منها:

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧]

بمثل الذى رأى فى مصر تفكر، حين دعا إبراهيم. واد كان ومازال ذا زرع وخير عميم. تهوى إليه مع ذلك أفئدة من الناس بالتجارة والسياحة غادين رائحين، ورزقهم من الثمرات فكانوا - بأسلوبهم وملتهم - شاكرين.

ومن بعد إبراهيم جاء يوسف إذ حمل إليها صبيا فعاش فيها حياته حتى توفاه الله فى أرضها حيث حنط ودفن إلى حين[1].

وقد كان هبوط يوسف مصر مكانة ونعمة من الله يمن بهما عليه، ولو جاء إليها فى مهانة العبودية وذل الإسار، لأن الله إنما حمله إليها «مبعوثا» يتعلم العلم فى أرضه التى أقام فيها العلم منذ غابر الأحقاب والدهور. قال عز من قائل:

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [**يوسف**: ٢١]

ونشأ فيها موسى حيث ربى وليدا، ولبث فيها من عمره سنين:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ... ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[**القصص**: ١٤ - ٣٠]

وأما يسوع فقد أتت به مريم تحمله حيث أقامت كما حدث الرواة بين عين شمس وبابليون. وقال تعالى:

---

(١) سفر التكوين ٥٠ : ٢٦ وسفر الخروج ١٣ : ١٩.

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾
[المؤمنون : ٥٠]

وكان لرسول الله محمد بن عبدالله ﷺ ـ كما كان لأبيه إبراهيم ـ زوجة مصرية، أو قبطية، هى مارية، التى أنجبت له ولده إبراهيم، كما كان له ﷺ فيها من أحاديثه الشريفة ما وصى بها الناس بأهلها وذكر أنهم يكونون على الأعداء نعم الأعوان.

صدق رسول الرحمن

كذلك كانت مصر التى كان لها نصيب من الذكر الحكيم جليل، وحسبها من شرف أنها أثنى عليها رب العرش فى الذكر المبين، وأنها كانت قبلة الأنبياء والمرسلين، ومن قبل الأنبياء، ومن بعدهم كانت قبلة لمن جاورها من أمم الأرض وشعوبها. ومن وفد عليها من التجار، وطلاب المعرفة والحكماء، أولئك يطلبون الرزق بالبيع والشراء، وهؤلاء يقصدون الحكمة ويتلمسون السناء.

فكان لها دائما فضل المتفضل على الطالبين والقاصدين، فلا جرم تكون مدرسة تلقى فيها المعلمون من فلاسفة الإنسانية وأنبياء الرحمن المرسلين، إذ بعثوا إليها متعلمين قبل أن يبعثوا معلمين، ولا جرم يكون لها النصيب الأوفى من عناية الكتاب والمؤرخين.

وسبحان ربك الأكرم الذى أنبت فى مصر القرطاس والقلم، وجعلها المدرسة التى فيها علم الإنسان بهما ما لم يعلم. إذ تأذن لأهلها فجعلهم أول من يكتبون، وعنهم أخذ الناس القلم وما يسطرون.

ـ ٢ ـ

إبراهيم

وقد كان إبراهيم عليه السلام أقبل من حيث يقيم فى فلسطين على مصر، يطلب فيها الشبع والرى من بلاد ضربها القحط والجفاف. وقد تحدثت التوراة فى ذلك قالت: «وحدث جوع فى الأرض فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرب هناك، لأن الجوع فى الأرض كان شديداً».

[تكوين ١٢ : ١٠]

وكان مجيئه إليها على الأرجح والمشهور أيام الأسرة الثانية عشرة من ملوك الدولة الوسطى فى القرن العشرين من قبل مولد المسيح، حيث أقبل على طريق ممهد من علائق قديمة بآسيا منذ أقدم العصور، إذ كانت قوافل التجارة ترد على مصر، وتصدر عنها، بما تحمل من عروض تحتاج إليها مصر، أو تطلبها سوريا وفلسطين، ولقد كانت حاجة مصر إلى الجيد من الأخشاب خاصة، دافعًا لأهلها على تلمسه من مظانه فى فينيقيا (لبنان)، منذ طلائع تاريخهم، حتى لقد تسمت بعض أنواع سفنهم بحكم انتظام الرحلات إلى فينيقيا باسم ميناء جبيل هناك، وكان يكتب (كبن فى المصرية) فسميت كبنية ـ أى الجبيلية ـ، ومن أنباء سنفرو رأس الأسرة الرابعة أنه أرسل قافلة بحرية من أربعين سفينة، لجلب خشب

الأرز منها[1]، وكذلك كان العثور منذ فجر التاريخ على الحلى من اللازورد الكريم، حيث لا يتوفر فى تربتها، دليلاً على اتصالها بغيرها من الأقطار منذ ذلك الزمد البعيد[2].

ولذلك فقد حرص المصريون على تأمين مصادر ما يطلبون من المواد والطرق إليها، وسلكوا لذلك طريق الحرب وسبيل السلام على سواء.

وقد كان من وراء تخوم مصر مفاوز مرهقة، وأقاليم مملقة، قد علموا من أمر سكانها ما صوروه فى آثارهم أحسن تصوير، فعلى الطريق بين هرم أونيس عاهل الأسرة الخامسة وبين معبده فى سقارة، صورة لطائفة من هؤلاء البدو نزلت بهم مجاعة، أذابت الشحم، وأكلت اللحم، ودقت العظم (شكل ١)، وقد كانوا بحكم ما تنزل بهم من نوازل القحط، يندفعون ما سنحت فرصة إلى الروابى الخضر، فيما وراء الآفاق من بواديهم، يتلمسون فى مصر الرزق محاسنين أو مخاشنين، فمنهم من كان يتسلل، فيدخل فى طاعة المصريين طاعمًا فى خدمتهم من عمل يده، ومنهم من إذا اشتدت به الفاقة لم يبال إذا انقض فى قومه على التخوم، أن تأخذه نصال النابلة من حرس الحدود فى صياصيهم، وقد كان تجاور الأضداد على التخوم من الجفاف والرى، ومن الفقر المدقع واليسر الممتع، خطراً مقيمًا على حدود مصر فرض على ملوكها التحفز الدائم لحمايتها من غارات المغيرين وعدوان المعتدين، وكانت طوائف منهم تتعرض لما ترسل مصر إلى طور سيناءمن بعثات التعدين، بل لقد

(١) Sethe, K; Urkunden des Alten Reiches 236' (=Urk 1); Breasred, J.H., Ancient Records of Egypt (Chicago 1962) Vol.I§ 146. (=BAR).

(٢) Kees, H., Ancient Egypt, A Cultural Topography (1961) p. 126.

(شكل ١) المجاعة

أوشكت غارات البدو وحملات تأديبهم، أن تكون من الأعمال الدورية على مر العصور، منذ مطلع التاريخ المصرى.

وقد تختلف الحملات من السرايا الصغيرة التى تخرج لإقرار الأمن والردع والإرهاب إلى الكتائب الكبيرة، التى تشتبك فى المعارك وتقاتل فى الحروب، حيث توغل فى تقدمها إلى ما يلى سيناءمن غربى آسيا. ثم لم تلبث السياسة المصرية كما قدمنا، أن حرصت على بسط نفوذها على تلك البقاع، وضمها تحت سلطان مصر.

ومن أنباء تلك الحروب ما تواتر عن عاهل الأسرة السادسة ببيى الأول من أنه أنفذ حملات خمسا بقيادة وزيره أونى، لتأديب الآسيويين، فتعقبهم حتى فلسطين، فدمر حصونهم، ودك قلاعهم وحرق دورهم، واقتلع ما لهم من زروع وكروم، ثم عاد بالألوف منهم أسارى، وكانت خامس هذه الحملات بحرية خرج فيها أونى بالأسطول المصرى فى البحر المتوسط، فنزل بفلسطين حيث قضى على الخوارج فى موقعة «شرت تپ جحس» بمعنى أنف رأس الغزال، ومن أبناءالأسرة الثانية عشرة، أن «سنوسرت» الثالث شخص إلى فلسطين فى جيشه فقاتل العصاة حيث أخضعهم فى منطقة ذكرتها المصادر باسم «سكمم» ورجحها المؤرخون بأنها شكيم الفلسطينية، التى ذكرت فى التوراة، ثم عاد إلى مصر بعد أن أعاد النفوذ المصرى إلى هناك.

على أن القبضة ما إن تتراخى فى عصور التفرق، والضعف السياسى، حتى تنشط القبائل من حولهم، إلى الضغط والغارة، ثم إلى الزحف على الدلتا فى سبيل عيش لين، ومقام كريم، وذلك حين يستنيم ولى الأمر، وتتحطم مواقع الحراسة، وتنهار المقاومة. وقع ذلك على مدى عصور التاريخ مرات ومرات، فكان أواخر الأسرة السادسة حين

طفقت عناصر من الآسيويين، تتسرب إلى الدلتا حتى غمروها، وتغلغلوا فيها، ثم عاد فوقع فى أعقاب الدولة الوسطى فى صورة غارة هائلة، حملت اسم «الهكسوس»، الذين دخلوا مصر بالحرب والقتل والتدمير، ثم شهدته مصر بعد ذلك من قبل الليبيين فى الغرب، والنوبيين فى الجنوب، وشعوب البحر المتوسط فى الشمال، لذلك كله فلقد حرص ملوك مصر على التدبير لأمن تخومها وسلامة حدودها.

وكان ملوك الأسرة الثانية عشرة - التى عاصرها إبراهيم عليه السلام - من أحرص الفراعين وأنشطهم فى حماية الحدود وحراسة التخوم، فكان لهم فى الجنوب ما بين سمنة عند الشلال الثانى، وبين الفنتين عند أسوان ثلاث عشرة قلعة، يبدو من أسمائها ما أريد لها من وظيفة الأمن والدفاع، مثل «رادة القبائل». و«مخضعة الصحارى»، وكان «سنوسرت» الثالث من أنشط هؤلاء الفراعين، فيما أرسى لتلك الحماية، وما بذل لها من جهود الحرب والإنشاء؛ إذ ينطق عن سياسته فى ذلك، ما أقام عند سمنة من قلعة وشاهد يبين حدود مصر الجنوبية، وما وصى به أخلافه من بنيه بالحفاظ عليها وحمايتها حيث يقول:

«إنما ولد لى يرعى تلك الحدود، التى أقامها جلالتى، فإنه (بحق) ولدى الذى ولد لجلالتى. . أما من سوف يتخلى عنها، ويتقاعس عن القتال فى سبيلها فليس لى ولداً ولا هو ولد لى»(١).

ومع ذلك فما كان لتلك الحدود أن تكون مانعًا، ولا حائلاً فى سبيل التجارة وسفارات السلام، إذ كان الملك مع حرصه على تأكيد سيادة

---

(١) Breasted, op. cit. § 659

مصر على أراضيها، وضمان سلامتها، حريصًا على رفاهية شعبه، وتنشيط تجارته وتوفير احتياجاته، فأصدر مرسومًا أعلنه على بعض شواهد الحدود تلك يبين فيه مع الحدود نظام المرور، ويعين أسواق التجارة جاء فيه:

«الحد الجنوبى الذى أقيم عام ثمانية فى عهد جلالة ملك الجنوب والشمال خع كاورع (سنوسرت الثالث) الموهوب الحياة أبدًا وأزلاً، لمنع أى زنجى أن يعبره بحرًا أو برًا بسفينة أو فى جماعات من الزنوج، وذلك فيما عدا زنجيا يأتى للتجارة فى «يقن» أو سفارةو فيؤدى له كل شىء طيب، وذلك بدون السماح لسفينة للزنوج بتجاوز «حح» هابطة التيار، إلى الأبد»[1].

وكذلك حظيت مصر على جبهتها الشرقية بما عرف منذ الدولة الوسطى بحائط الحاكم، حيث قامت القلاع والحصون، ومواقع الحراسة التى يقوم عليها الجنود المنوبون الذين لا يمكنون لدخيل من تجاوزها أو عبورها إلا أن يؤذن له، ويمنح جوازًا بذلك، وذلك فى أقدم ما عرف من جوازات السفر فى التاريخ، وفى قصة «سنوهة» التى انحدرت إلينا من ذلك العصر أنه خرج من مصر هاربًا من فتنة ظن أنها واقعة بها لا محالة، وأنه إن أقام غير ناج منها، فولى وجهه ـ فى طريقه إلى سوريا ـ شطر الشرق عند البحيرات المرة، فلما انتهى عندها هناك إلى «حائط الحاكم» الذى شيد لرد البدو، كان عليه أن ينحنى بين الشجيرات من حول القلاع أن تناله عيون الرقباء من صياصيهم. كذلك روى أنه لما عفا الملك عنه وآن له أن يرجع إلى الوطن، أقبل على مصر شيخًا طاعنًا فى السن،

---

(١) Breasted, op. cit. § 653

حيث أقام عند تخومها الشرقية على طريق حور، منتظراً ـ ولم يدخل ـ حتى أرسل قائد الحدود إلى الملك بمقدمه، وعاد الرسول بالإذن للأمير العائد بالدخول.

ومهما يكن من شيء، فلقد كشفت الأحافير على كل حال فى مصر والشام، وتحدثت الأخبار يومئذ كذلك، بما يشهد لمصر بما كان لها فى تلك الربوع من النفوذ السياسى والمنزل التجارى جميعًا، فقد عثر من عهد الأسرة الثانية عشرة، تحت معبد لها فى الطود، بصعيد مصر ـ فضلاً عن تمائم من لا زورد، وأختام اسطوانية بابلية ـ على ودائع من حلى الذهب والفضة، وسبائك منهما فى أربعة من صناديق البرونز، عليها اسم (امنمحات الثانى)، وكلها بحكم طرزها الإيجية والبابلية إنما تنطق عما كان لمصر من علائق، قد تكون امتدادًا لنفوذها على تلك البقاع[1]. كذلك عثر على طائفة من آثار، تحمل أسماءملوك الدولة الوسطى وأفراد أسرهم فى جبيل، وبيروت، وأوجاريت، (رأس شمرا لآن) على الساحل الفينيقى، وفى قطنة شمالى سوريا، كما عثر فى مجدو الفلسطينية على قاعدة لتمثال چحوتى حتب بن كاى، وسات خبركا، حاكم إقليم الأرنبة، والكاهن الأكبر لمعبودها جحوتى فى الأشمونين، ولا شك فى أن تمثالا لمثل ذلك الرجل فى سوريا وفلسطين ـ وهذه منزلته ـ إنما يدل على علائق متينة بين مصر وآسيا، وغير بعيد أن يكون وأقران له قائمين بأعمال دبلوماسية هناك، أو مندوبين فى مواقع لمصر فيها مصالح تجارية كبرى[2] ومع ذلك فلدينا من أخبار ذلك العصر ـ عصر الدولة

---

(١) ايتين دريوتون وچاك فانديه (تعريب عباس بيومى): مصر ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

(٢) Pritchard, Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament (3rd edition, Princeton 1969) p. 228

الوسطى - شواهد تحدث عن موظف مصرى كان مقيما فى مجدو، وكان يجلب العجول منها ويصدرها إلى مصر[1].

ولم تكن الوفود من مصر وإليها لتنقطع عنها طوال تاريخها القديم، حتى عمت أخبارها وتفشت لغتها فى أنحاء البلاد من غرب آسيا، وفى قصة سنوهة، وما كان من فراره من مصر أنه لجأ إلى بعض مدائن سوريا حيث كتب إليه أميرها يدعوه إلى الإقامة عنده، حيث الأمن والدعة، وحيث يسمع لسان مصر.

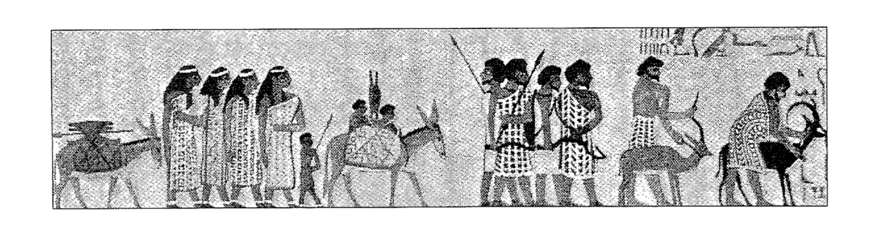
وكان صوت مصر وصيتها يومئذ - بحكم ما قدمنا - قويا فى الأسماع، مهيبا فى النفوس، حيث تولى الحكم فيها ملوك حرصوا على توفير الكفاية والعدل فى البلاد. وقد سبق عصر هؤلاء الملوك عصر نادى الناس فيه بالعدل والحق والمساواة وعبروا عما فى أعماقهم من مشاعر الشوق إلى العدل، فلما جاءوا إلى العرش، أخذوا أنفسهم بتحقيق الرفاهية وإرساء العدل للأرباب والناس.

ومن المحقق أن مصر كانت تصدر مع ماكانت تصدر من عروض التجارة إلى تلك الربوع، ما اهتدت إليه من العلم والفكر والأخلاق، وأنها مهدت هناك بتعاليمها لتعاليم من ظهر من الأنبياء والمرسلين، وأقامت أساسًا من الفكر والضمير الحى الذى أرهص لما بشروا به، وهيأ لاستقبال ما نزل عليهم من العقائد والرسالات.

وكانت الأسرة الثانية عشرة يومئذ قد بلغت من القوة واليقظة، ومن الثقة والنظام أن سمحت لمن شاء ممن جاورها من الشعوب أن يقبل عليها

---

(١) Montet, L'Egypte et la Bible. (Neuchatel 1959). p. 19



(شكل ٢) قافلة ابيشاى فى مصر

موغلاً إلى حيث يستطيع من أقاليم الصعيد، وكان منظر القوافل من البدو مما راق لشريف من بنى حسن، وراق لفنانه الذى أعد له قبره فصور قافلة منها فيه، إذ نشهد فى قبر «خنوم حتپ» منظرًا (فى شكل ٢)، لقافلة أو قبيلة من سبعة وثلاثين نفسًا، من رجل وامرأة وغلام، أقبلوا بقيادة زعيمهم، أو شيخهم إبشا، (أو أبشاى كذكره فى التوراة)، يبيعون الكحل ويحملون القسى والسهام، ويروجون لذلك بما يعزفون من نغم على الطنبور، وذلك بما عليهم من مآزر مبرقشة، ولحى كثيفة، تملأ العوارض وشعر على الرءوس طويل.

ولم يكن أبيشاى رأس تلك القبيلة السامية، أو حاكم البلد الأجنبى كما وصفته النصوص المصرية، ليدخل مصر فيجوس خلال الديار بغير إذن الملك، ولا إذن السلطات المصرية كما يقال، فلقد رصد الفراعنة على التخوم من شرقى مصر - كما قدمنا - قلاعًا عليها الرماة من العسكر، يرقبون السفر، داخلين خارجين. ولم يكن لغريب أن يدخل إلا أن يقف عند ثارو، حيث القنطرة الآن فلا يواصل المسير حتى تعرف هويته، وتتكشف نيته، ويتضح مبتغاه، وقد روينا عن سنوهة أنه فى فراره من مصر. قد حرص على التخفى بين الشجيرات، حتى لا يراه الرقباء، من فوق القلاع، وأنه فى أوبته إلى الوطن شيخا طاعنًا فى السن قد توقف عند ثارو وهو الأمير المصرى المعروف حتى جاءه إذن الملك بالدخول.

وفى هذه البرهة من حول القرن العشرين، من قبل مولد المسيح على عهد هذه الأسرة المالكة المصرية - على المشهور - أقبل إبراهيم أبو الأنبياء عليهم السلام. وأكبر الظن أن إبراهيم قد هبط مصر مع إحدى قوافل البدو، تلك التى كانت تقبل بائعة لها وبائعة منها كما رأينا فى قافلة

أبيشاى، وقد كان حلول إبراهيم بمصر كما روى الإصحاح الثانى عشر من سفر التكوين فراراً من قحط وجوع لم يكن إلى احتمالهما بفلسطين من سبيل: «وحدث جوع فى الأرض فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع فى الأرض كان شديداً»، ومن المحقق أنه إنما أقبل على مصر وقد تسامع الناس فى بلاده بما كان فى مصر يومئذ من الرخاء ورغد العيش ولين المقام، وما كان يسودها من الأمن والدعة والسلام، ومهما يكن من تقدير المؤرخين والكتاب فى تاريخ هبوطه واختلافهم فيه، فإن الأحوال المواتية التى كانت خليقة أن تجذبه إليها وتغريه بالإقبال عليها والإقامة فيها، إنما تهيأت واستقرت على عهد ملوك الأسرة الثانية عشرة، ولم تتهيأ قبلها ولا استمرت طويلاً بعدها، كما نوشك أن نفصل بعد قليل. وظاهر من رواية التوراة، والمشنا[1]، وما أيدهما من حديث رسول الله ﷺ عن أبى هريرة، أن إبراهيم إنما دخل مصر جهرة ولم يدخلها تسللاً، وأنه لم يدخل فى عهد من عهود الفوضى والاضطراب والحروب الداخلية التى سبقت الأسرة الثانية عشرة، أو لحقت بها أيام الهكسوس، بل أقبل - وهو يعلم - على دولة مستقرة منظمة، سوف يسأل عند الحدود فيها عن هويته وهوية من معه من رجال ونساء، فكان منه ما كان من حديثه إلى امرأته سارة فيما اتصلت روايته فى الإصحاح الثانى عشر من سفر التكوين. وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراى امرأته: إنى علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم

(١) المشنا القديمة أهم المراجع الإسرائيلية بعد التوراة، فالمقرا، هو ما يحفظ بالقراءة فى الكتب، وهو نصوص التوراة المعتمدة، والمشنا هو ما يحفظ بالذكر والاستظهار، ومنه التلمود على نشأته الأولى. انظر: عباس محمود العقاد: أبو الأنبياء.

يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك. قولى إنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك. [١٠ - ١٣]

ويستخلص كذلك من أحاديث المشنا فيما كان من دخول إبراهيم مصر مع سارة، أن التخوم المصرية قد كان عليها من عمال المكوس من يسأل ويستقصى السَّفْر فيما يحملون فى أمتعتهم من عروض، إذ روت أن إبراهيم خاف على فرعون وقومه الفتنة من جمال سارة فحملها فى تابوت وهم يعبرون تخوم الديار، وسأله عمال المكوس عما فى التابوت فأنباهم أنه شعير، قالوا بل نأخذ المكوس على قمح، قال خذوا ما تشاءون، فعادوا يطلبون الضريبة على بهار، فأجابهم إلى ما طلبوه، فارتابوا فيما يخفيه، وأمروه أن يؤدى الضريبة على وسق التابوت ذهبًا، فقبل، فأعطاهم سؤلهم، فحيرهم قبوله كل ما يسومونه أن يبذله وخامرهم شك عظيم، ففتحوا التابوت عنوة فإذا بالنور يفيض من وجه سارة حتى يعم الديار ويعشى عين فرعون.

على أن إبراهيم لم تكن به من حاجة إلى الخوف على حياته من أهل مصر ولا من ملكها على امرأته أن تغصب منه، ويقتل من أجلها، ولعل الذى راود صدره من خوف لم يجاوز الوهم كما ساور يعقوب الوهم من حسد بنيه الأحد عشر إن دخلوا من باب واحد ولم يدخلوا من أبواب متفرقة[1]، ولعل إبراهيم عليه السلام إنما صدر عن استشعار مما عهد من

---

(١) ﴿وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون. ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها. وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف ٦٧ - ٦٨]

غصب النساء والاحتيال على اقتناصهن من أزواجهن في بلاده التي أقبل منها، بل من بوائق أسوأ وأعظم نكرًا بلا بعضها في سدوم ابن أخيه لوط من قومه، فحقت عليهم كلمة العذاب، وأخبر الله بها إبراهيم.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾

[هود: ٦٩، ٧٠]

بوائق بلغ من شيوعها أن تواترت إلى كاتب التوراة لاحقة بالأنبياء والمرسلين، وهونت عليه نسبة الزنى والغصب إليهم، فذكر أن لوطًا سكر وزنى بابنتيه فحملتا منه (تكوين ١٩ : ٣٠-٣٨)، وأن داود رأى من سطح بيته امرأة أوريا تستحم «فأرسل داود رسلاً، وأخذها فدخلت إليه واضطجع معها، ثم كتب داود مكتوبًا إلى يوآب وأرسله بيد أورْيا وكتب في المكتوب يقول اجعلوا أوريا في الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت». [صموئيل الثاني ١١ : ٢-١٦]

على أن ملك مصر - على كل حال - ما إن عرف مكان سارة من إبراهيم حتى تذمم - بحكم ما كان يسود مجتمعه من مكارم الأخلاق - مما أوشك أن يقع فيه من اتخاذ زوجة غيره زوجة له، واستنكر ما ألقى إليه إبراهيم، أو نقل عنه من خبر مكذوب، وما كان من زعمه أنها أخته، فتقول التوراة.

«فحدث لما دخل إبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة حسنة جدًا، ورآها رؤساء فرعون، ومدحوها لدى فرعون، فأخذت المرأة إلى بيت

فرعون فصنع إلى إبراهيم خيراً بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال» [تكوين ١٢ : ١٤ - ١٧]

ونريد قبل المضى فى هذا الحديث أن نستطرد قليلاً فيما ذكرت التوراة من جمال نالها إبراهيم فى مصر مصححين، ذلك أن كاتب التوراة - فى معرض التعبير عما لقى إبراهيم من كرم فرعون، إنما كان يعدد على أسلوبه وبيئته ما عسى أن يتلقى - فى مفهومه - من ملك مصر، فذكر الغنم، والبقر، والحمير، والعبيد، والإماء والأتن، ثم أضاف إليها الجمال، وإن ظلت الإبل غريبة لا يعرفها المصريون يومئذ على التحقيق، بل لقد كانت غريبة على من أقبل على مصر يومئذ من قبائل البدو الساميين، فلقد أقبلت قبيلة إبيشاى، أو قافلته تسوق الحمر لا الجمال كما لم ترد فيما نقش على صخور سيناء على امتداد عصور مصر الفرعونية صور للجمال، وذلك فضلا عما قطع به سفر الخروج من عودة موسى وأسرته من مدين إلى مصر على الحمير «فأخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم الحمير ورجع إلى أرض مصر» [٤ : ٢٠].

ونعود إلى رواية التوراة التى تتصل فتقول:

«فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراى امرأة إبرام، فدعا فرعون إبرام وقال: ما هذا الذى صنعت بى؟ لماذا لم تخبرنى أنها امرأتك؟، لماذا قلت هى أختى حتى أخذتها لتكون زوجتى؟، والآن هو ذا امرأتك. خذها، واذهب، فوصى عليه فرعون رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له». [تكوين ١٢ : ١٢ - ٢٠]

وقد وافق حديث الرسول عن أبى هريرة رضى الله عنه خبر الخليل فى التوراة قال عليه الصلاة والسلام:

«لم يكذب إبراهيم النبى عليه السلام قط، إلا ثلاث كذبات، اثنتين

فى ذات الله فى قوله إنى سقيم، وقوله بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة فى شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار، ومعه سارة وكانت أحسن الناس فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك، فإن سألك فأجيبيه أنك أختى، فإنك أختى فى الإسلام، فإنى لا أعلم فى الأرض مسلما غيرى وغيرك. فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه، فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغى لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها فأتى بها، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقبضت يده قبضة شديدة، فقال ادعى الله أن يطلق يدى ولا أضرك ففعلت، فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك ففعلت، فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين، فقال ادعى الله أن يطلق يدى فلك عهد الله ألا أضرك، ففعلت وأطلقت يده، ودعا الذى جاء بها، فقال له: إنك إنما أتيتنى بشيطان ولم تأتنى بإنسان فأخرجها من أرضى وأعطها هاجر... فأقبلت تمشى فلما رآها إبراهيم عليه السلام..، قال مهيم قالت خيرًا كف الله يد الفاجر، وأخدم خادما. قال أبو هريرة فتلك أمكم يابنى ماء السماء».

«لم يكذب إبراهيم النبى عليه الصلاة والسلام إلا ثلاث كذبات» ومع ذلك فقد حرص مفسرو الإسلام على نفى الكذب عن أنبياء الله وتنزيههم عن الوقوع فيه، وقالوا: إن الكذب حرام إلا إذا عرض، ومن أمثلة العرب قولهم: إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب، ولذلك فقد ذكر المفسرون أن الذى قاله إبراهيم فيما ورد بسورة الصافات «إِنِّى سَقِيمٌ» إنما هو معراض من الكلام، أى سأسقم، أو أنه منَ الموت فى عنقه سقَيم، أو أراد إنى سقيم النفس لكفركم[1].

(١) تفسير النسفى لآية ٧٩.

وأما الثانية: فقد وقعت فيما كان منه بأصنامهم، ﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾

[الأنبياء: ٥٧ - ٦٣]

وقد ذكر النسفى فى تفسيره: إن إبراهيم إنما نسب الفعل إلى كبيرهم وقصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى، تبكيتًا لهم وإلزاما للحجة عليهم، وقال أبو السعود مشيراً إلى الذى لم يكسره: «سلك عليه السلام مسلكًا تعريضيًا يؤديه إلى مقصده الذى هو إلزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه يحملهم على التأمل فى شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقى من الكذب، حيث أبرزه فى ذلك المعرض فعلاً بجعل الفأس فى عنقه، وقد قصد إسناده إليه بطريق التسبيب، حيث كانت تلك الأصنام غاظته عليه السلام، حين أبصرها مصطفة مرتبة للعبادة، من دون الله سبحانه، وكأن غيظ كبيرها أكبر وأشد حسب زيادة تعظيمهم له، فأسند الفعل إليه باعتبار أنه الحاصل عليه، وهو على كل حال، إنما قصد بمقالته تلك إلى تبكيتهم بما يعبدون من صنم لا يسمع ولا يقول» وأما البيضاوى فقد ذكر أنه إنما «أسند الفعل إليه تجوزًا لأن غيظه لما رأى من زيادة تعظيمهم له، تسبب لمباشرته إياه، وتقريرا لنفسه مع الاستهزاء والتبكيت على أسلوب تعريضى، كما لو قال لك من لا يحسن الخط فيما كتبته بخط رشيق: أأنت كتبت هذا؟ فقلت بل كتبته أنت».

وبعد، فما بال إبراهيم فى الثالثة يزعم للمصريين أن سارة أخته، وما بال المفسرين عن هذه يسكتون؟! أتراه اضطر هذه المرة إلى الكذب والمين فلا منتدح، ولا محيص إلى التعريض؟!

لعل دراسة الحضارة المصرية ولغتها أن تقدم إلينا فى قصة إبراهيم سبيلاً إلى إعفائه مما قيل إنه وقع فيه، وأن تسهم مع المفسرين فيما أرادوا لإبراهيم من تنزيه عن الكذب الذى قيل إنه اضطر إليه فمال عنه إلى التعريض.

فغير بعيد أن كان إبراهيم عليه السلام، يعرف اللغة المصرية القديمة ويعبر بلسانها، أو أنه على الأقل، بل لا أكاد أشك، قد كان يعرف منها بحكم انتشارها فى بلاده كما قدمنا طائفة من عبارات وألفاظ تعينه على شئونه فى مصر حين أقبل عليها. لذلك فلم يكذب إبراهيم، ولم يخرج على مألوف المصريين فيما كانوا به يتحدثون، فلقد كانوا يطلقون على الزوجة فى لغتهم ـ فضلاً عن لفظ المرأة «حمة» و«سه حمة»، (أو هيمه وسهيمة فى اللهجة القبطية) لفظ الأخت «سونة»[1]، وكان ذلك نوعًا من التعبير عن المحبة والإعزاز، وما ندرى لعل إبراهيم حين أقبل على مصر فلقى الناس من آل فرعون وملئه قد آثر التورية والتعريض فوصف زوجته سارة، وتحدث عنها على مألوفهم بأنها «سونة». بمعنى الزوجة ومعنى الأخت جميعا، حيث أوقع، أو وقع فى روع المصريين بلكنته الأجنبية، وما عسى أن رأوا من معاملته لسارة أنه إنما قصد إلى المعنى الأصيل للفظ الأخت لا إلى المعنى المجازى له، ولعله قال لسارة فيما روى عن رسول الله ﷺ :

---

(١) من أصول اللفظ العربى «صنو» و«تن» وتجانسه.

«إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك، فإن سألك فأجيبيه أنك لى «سونة» أو «سونتى».

عدل المصريين وتقديس الحرمات:

وظاهر من سياق الرواية أن إبراهيم لم يكن مضطرا - لو عرف المصريين بحق - إلى الخوف على امرأته ونفسه من بطش الملك، فلقد كان الملك كما فعل من بعد، خليقًا أن يحترم حرمة الزوجة ويحفظها لو كان أخبر بذلك من قبل، فلقد كان المصريون يقدرون الحرمات ويقدسونها ويرعونها أشد الرعاية، ويبجلونها أعظم تبجيل، فلم يكد فرعون يتبين مكان سارة من إبراهيم، حتى ردها إليه معتذراً عما أوشك أن يفرط عن غير علم منه محتجا على ما أبلغ إليه من خبر مكذوب، أو مدخول، متفضلاً بما أهدى إليها من جارية، هى هاجر، أو هاقر، إن شئنا أن ننطق باسمها المصرى بغير تصحيف ولا تحريف، وقد كان فراعين مصر من ذلك العصر يحيون فى ظل مبادئ من الحق والعدل فرضها المجتمع المصرى يومئذ للناس وعلى الناس أجمعين، وحرصوا علي أن يتمتع بها الصغير مقاما والكبير منصبًا، فلا فضل لشريف على غيره لشرفه ولا لغنى على فقير لغناه. بل لا فضل لحاكم على محكوم بحق ادعاه، ولعلهم بما اتخدوا لأنفسهم من أسماء وألقاب، إنما كانوا يعلنون للناس ويلزمون أنفسهم بما دلت عليه ألقابهم تلك من المعانى والمثل العليا، فقد اتخذ امنمحات الأول لقب «وحم مسوت» أى المولد المتكرر أو النهضة، كأنما كان يدل على ما فى ضميره من حرص على أن بعهده، إنما يستأنف عهداً جديداً يعيد به إلى مصر مجدها القديم. وحرص أخلافه على أن

تشمل ألقابهم التى يتخذون معنى العدل والحق، والمساواة والقانون والنظام، وهى المعانى التى يشتمل عليها كلها لفظ «ماعت» المصرى، فاتخذ أمنمحات الثانى لقبًا يعني السعيد بالعدل «حكن م ماعت» وعادل الصوت «ماع خرو» وتسمى سنوسرت الثانى مظهر العدل «سخع ماعت»، وأمنمحات ا لثالث العدل لرع «نى ماعت رع»، وأمنمحات الرابع عادل الصوت رع «ماع خرو رع» وفيما بلغنا من آثارهم الأدبية شواهد ممتعة، ومثل رائعة بما استطاع هؤلاء القوم إرساءه من قواعد الحق والعدل والمساواة، وما أقاموا من معانى الخير والبر والإحسان، فقد ذاعت أيام تلك الدولة قصة نعرفها اليوم بعنوان، «قصة الفلاح الفصيح» وهو الذى تعرض لظلم حاكم الإقاليم وعسفه بغصبه حميراً له، ولكن بطل القصة أبى ورفض الاستسلام، فطفق يشكو ويجأر بالدعاء حتى بلغت شكواه مسامع الملك نب كاورع، فأنصفه وأكرمه، وقد استهدفت القصة فيما استهدفت الإعلاء من كلمة الحق والعدل، وما ينبغى أن يكون عليه من السيادة والقوة التى تشمل صاحب السلطان الذى لا يتسلط على الناس، كما تشمل العاطل من السلطان الذى لا يتسلط على أحد من الناس، بحيث يكون الناس جميعًا سواسية أمام القانون وقد قدمت هذه القصة فى ختامها دليلاً على رعاية العدل والانتصاف من الظالم للمظلوم، ودلت على مجتمع يستطيع فيه القروى المسكين الدفاع عن حقه ـ أو هذا واجبه وما تدعو له القصة ـ، والمثابرة عليه، والإلحاح فى طلب الإنصاف من ظالمه، مبينة عن شجاعة فى الطلب وجرأة فى مخاطبة الحاكم، بل تعنيفه بدون خوف أو وجل من أذاه، وذلك فضلاً عما اشتملت عليه من نقد لاذع ونبش لما فى المجتمع من علل وعيوب، فلقد خرج الفلاح عن أمر المطالبة بحميره، إلى الحديث عن جشع كبار

الموظفين وانحراف القضاة، وفساد الذمم وتستر الحاكم عليهم واشتراكه معهم فيما ينهبون، فكأن القصة تعليم للناس حقوقهم فى العدل والمساواة، وفى حرية الكلمة والتعبير، وواجب الشجاعة فى إبلاغها. وفضلاً عن ذلك فقد شاء الكاتب على لسان القروى أن يبسط للناس مكارم الأخلاق وفضل الحياة الصالحة النقية، وما شاع فى عصره من زهد فى الدنيا وزخرفها، فإن الآخرة خير وأبقى، وماذا عسى أن يجنى الحاكم أو غيره من المال على سوء الخلق وفساد الضمير وأكل السحت وقول الزور، ومن ورائه حساب ينتظره يوم تجزى كل نفس ما عملت، وحسبه إبريق من جعة ورغفان ثلاثة، وذلك لأن العدل باق خالد، وهو ينزل مع من يقيمه كما قال، وكما قيل من قبل للملك (مريكارع) وهو بعد أمير «بأن فضيلة من يؤثر العدل والحق أحب (عند الرب) من الثور الذى يقدم قرباناً» وهو المثل الذى انتقل إلى العهد القديم فى أمثال سليمان (٢١ : ٣)، «فعل العدل والحق أفضل عن الرب من الذبيحة»، كذلك فلم يعمد ملوك هذه الأسرة إلى إيثار أنفسهم بالأضرحة الفخمة والأهرام الضخمة، بل آثروا إنشاءها من اللبن، وتوجيه جهودهم إلى رفاهية الشعب وسعادة الرعية، ولئن كانوا قد نشأوا من طيبة، ووجهوا بحكم تلك النشأة بعض عنايتهم إليها، فلقد نقلوا عاصمة ملكهم إلى مدخل الفيوم فى مكان يقال له اليوم «اللشت» غير بعيد من واسط الأرض منف. هناك أقاموا فى تلك البقعة الشاسعة الخصيبة من أرض مصر من مشروعات الرى الهائلة، ما غمر خيره البلاد والعباد، حيث أنشأوا عند مدخل ذلك المنخفض سداً هائلاً، خلقوا به خزاناً ضخماً، يدخرون فيه موارد الفيض التى تتحدر على مصر أمواهها، فما تلبث أن تنضب وتزول فى البحر هباءً، فكانوا أن أضافوا إلى حقول مصر زهاء

سبعة وعشرين ألف فدان من أرض تزرع عند الفيوم، كانت من غير شك مصدراً من مصادر الرفاهية فى بلد تعتمد رفاهيته على الزراعة والرى، ولقد كان ادخار ماء النيل والحكمة فى الإفادة منه بالقسط، إنما يقتضيان علمًا واعيًا بمواقيت فيضه ومناسيب دفقه، وكان فراعين هذه الأسرة مقسطين حكماء اتبعوا فى ذلك سبيل الحكمة والتدبير، فكان لهم فى أقصى الجنوب عند الشلال الثانى رجال يرقبون المناسيب على الصخور، فإذا ما أبلغ ولى الأمر بما يرون من «نيل صغير» أى منخفض. أو «مبكر، أو مستأخر»، اتخذ ما يضمن النتاج الأكبر والمحصول الأوفر، وتجنيب البلاد ما عسى أن تتعرض له من أخطار، وكذلك فقد استغل ملوك هذه الأسرة مناجم سيناءاستغلالاً طيبًا، ثم أولوا بعد ذلك التجارة الخارجية جهد استطاعتهم، من الوشائج المتينة والأمن والسلام، حيث تمتعت مصر يومئذ ـ كما قدمنا ـ بنفوذ سياسى ومركز تجارى، وسلطان ثقافى متين فى غرب آسيا بنوع خاص، فلا جرم يفخر أمنمحات الأول بأن لا جائع فى عهده، ولا جرم تكون مصر قبلة لطلاب الرزق والعلم، حيث تقدم لهم ما يشاءون من غذاء البدن والروح جميعًا.

ولم يصل هذا الشعب إلى ما وصل إليه من ذلك، إلا بعد كفاح اجتماعى طويل امتد من تاريخ مصر أحقابًا واستغرق أجيالاً، إذ انبعث فيها منذ الدولة القديمة أواخر الأسرة الرابعة فى القرن السابع والعشرين من قبل مولد المسيح، حتى مطالع الدولة الوسطى فى القرن العشرين، صراع ركب السياسة وركبته السياسة، فأديل فيه من حكومة إلى حكومة، ومن دين إلى دين. ثم عج عجاجه واصلخم عبابه بسقوط الدولة القديمة فى أعقاب الأسرة السادسة، بالعنف، والهدم، وسفك

الدماءوانهيار الأمن والنظام، وذلك فى أول ثورة اجتماعية عرفها التاريخ.

كان الملك فى عيون المصريين الأقدمين منذ مطلع الصبح من تاريخهم، إنما يحكم البلاد باسم إلههم «حور»، ولقد بدا سلطان الملكية وسطوتها منذ مشرق الدولة القديمة، فيما أنشأ الملوك لأنفسهم من أبنية كالجبال اتخذوها قبوراً وأضرحة تستقر فيها جسومهم بعد الموت، وفيما جندوا وحبسوا لتلك المنشآت الباذخة من أموال وعمال وكهان، ولنا فيما نشهد من أهرام زوسر، وسنفرو، وخوفو، وخعفرع، دليل ناطق وبرهان مبين. ثم كان أن طفق سلطان الملوك العارم، ينحسر عن النفوس وبأسهم يتقلص فى العيون، واهتزت هيبة الملكية أواخر الأسرة الرابعة بالقياس إلى أوائلها منذ طفق كهان الشمس يبشرون بدينهم، ويدعون لدولتهم التى يقبض زمامها ـ فيما رووا ـ ملوك زعموا أنهم يولدون لإله الشمس من امرأة من الشعب يقال لها: «ردچدت».

ثم كان خليقًا بملوك الأسرة الخامسة أن يسيروا فى الناس سيرة تتفق وما كسبوا من تأييدهم فى الوصول إلى الملك، فبذلوا الأموال والمناصب عن سخاءلأهل الطبقة العليا ـ فضلا عن كهان الشمس ـ حرصًا على استبقاء ولائهم وتأييدهم، بل زادوا ففتحوا لهم سبيل المصاهرة، يزوجونهم ويتزوجون منهم، ففتحوا للناس بذلك سبيل الإحساس بكيانهم، وسبيل الإيمان بالمساواة، ولم يكن قليلاً ولا هينًا يومئذ أن يعتذر ملك لرجل من رجاله، فلا يتحرج «نفراير كارع» ـ وقد أصابت عصاه ساق «رع ور» ـ من أن يعتذر له، ويعلن أن «رع ور» أحب الناس إليه وآثرهم عنده، بل لم يكتفِ بذلك فأذن للرجل بتسجيل تلك الواقعة

وذلك الاعتذار فى قبره لتقرأها الأجيال من بعدهما، ولنقرأها ثم نوردها فى هذا الكتاب، كما وردت وترد فى كتب أخرى بعد نيف وأربعين قرنًا من الزمان.

ولئن ظل الملوك من أخلاف الأسرة الرابعة ينشئون الأهرام قبوراً وأضرحة لهم، فلقد بدا واضحًا صغر حجمها وضعف بنائها، وتواضع مظهرها بالقياس إلى أهرام أسلافهم، ولا شك أن ذلك إنما يترجم عن قلة فى الموارد وانحسار فى النفوذ، وانصراف الناس إن لم يكن كفرهم بحق الملك فى استنزاف أموال البلاد من أجل ضريح لهذا الواحد الفرد دون سواه، حيث طفقت أفكار الناس تتحول عن المادية وسيلة إلى السعادة فى الدار الآخرة وزادًا لها، إلى أفكار أخرى تؤمن بالتقوى وصالح الأعمال، ولم يعد مصير الإله «أوسير» - رب الموتى - حقًّا للملك وحده، بل شاركه فى ذلك الأشراف أولاً، ثم لم يلبث العامة أن دخلوا معهم وشاركوهم ذلك المصير.

ولم يكن «بيبى» الثانى آخر ملوك الأسرة السادسة بالرجل القوى الحازم، الذى يقبض زمام الأمور، ولا كان بالملك الذى يرعى القدوة، أو يقى سيرته، ويحفظ للعرش بسلوكه هيبته. كان فى شبابه ماجنًا عابثًا[1]، ثم كان لشيخوخته - إذ بلغ المائة - الأثر الحاسم فى انقضاض صرح الدولة، وانحسار سلطانها، حيث اضطرب الأمن، وانهار - بشيوع الحقد بين الناس - السلام واضطرمت فى البلاد ثورة فكرية اجتماعية لم

---

(١) Poesner; G., Le Conte de Neferkare et du General Sisené; dans Revue d'Egyptologie 11 (1957) pp. 119 ff.

تعرفها منذ اتحادها على يد «نعرمر» فترعزعت عقائد، واهتزت مثل وقيم قدسها المصريون من قبل، فانهارت فى عيونهم قيمة القصور المنيفة والمقابر الضخام، وتغلغل فى بعض النفوس الإلحاد، وديست الوثائق والأحكام، فكان أن انطلقت الألسنة المعقولة ونطقت الأفواه المكمومة، وذلك فيما صور لنا حكيم ذلك الزمان «إيپوور»، إذ اقتحم على الملك شيخوخته وسكينته التى أخلد إليها واستنام لها فطفق يصف فى أسلوب رائع حزين حال البلاد وما ترددت فيه من اضطراب وإفلاس، وما حل بالناس من محن وخطوب، فذل العزيز وعز الوضيع[1]، وقد تمثلت الثورة فيما وصف «إيپوور» بعدوان الناس على الناس وأملاك الناس، بل بعدوان من يفترض فيهم صون الأمن على الأمن، وبسوء استخدام المسلحين لأسلحتهم، وإضراب العاملين عن العمل، وبالعداءللأغنياء والشماتة فيهم بما أصابهم من إدبار الزمان، واختلال موازين الثراءحيث أثرى الفقير وأملق الغنى، وبتدمير المنشآت وتدهور الاقتصاد والصحة العامة، وعجز الناس عن دفن موتاهم فإذا بهم يلقون بهم فى النيل حتى صار النيل كما قال مدفنًا، بل لقد بلغ البؤس والشقاءبهم مبلغًا حملهم على التخلص من الحياة بالانتحار، فإذا البلاد من ذلك كله فى حال من الركود والانحلال أطمعت فيها البدو، فنزحوا إليها زرافات، لا يجدون من يردهم ويدافع عن مصر، فانتشروا فى الدلتا وتغلغلوا فيها أفواجًا.

ولذلك فلم يكن إبراهيم عليه السلام ليأتى إلى مصر فى ذلك الزمان، فإن هذه الأحوال التى نستطيع اتخاذها من قرائن التحديد لعصره ـ فضلاً

---

(١) Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage (Leipzig 1909)

عن حساب السنين ـ لمانعة رجلا مثله أن يهجر جوعا إلى جوع وإملاقًا إلى إملاق، بل يهجر أمنًا وإملاقًا إلى اضطراب وإملاق وحروب داخلية بين الحكام ثم حروب من بعدُ لرد البلاد إلى الوحدة والنظام.

فكر مصرى شهده إبراهيم:

ومهما يكن من شىء فلقد نتج عن تلك المحن التى نزلت بالبلاد كثير من التأملات والأفكار، فمن الناس من اهتز يقينه بالدين على عمق يقين الناس بالدين، فأنكر الإله واستخف بالآخرة والحساب، ومنهم من قال فيما روى عن إيپوور: «لو أنى عرفت أين الإله لقدمت إليه القربان»، أو كعازف الچونك الذى حض الناس على الملذات واقتناص المسرات، «فإن أحدًا ممن قضى نحبه لم يعد ليحدثنا بما وقع له».

على أن منهم من لم يرض عما آل إليه حال البلاد ولا هو سكت عما نزل بها من الكوارث والمحن، فانطلقت الأفواه والأقلام بما أتيح لها من التعبير عن الشوق إلى العدل وعودة البلاد إلى النظام والأمن، وذاعت فى الناس فضلاً عن تلك الكهانات التى تبشر بالمخلِّص المنتظر الذى يملأ الدنيا عدلا بعد أن ملئت جورًا. وتسامع الناس بظهور «ابن الإنسان» أو «ابن الناس» الذى يقيل الدنيا من عثرتها وينقذها من محنتها، فكأن الناس بما أشاعوا من ذلك قد وضعوا أسس الحكم وقرروا الشرائط التى تسوغ للحاكم حكمه والدستور الذى يقيم عليه ملكه، ثم ما لبثت تلك الأفكار أن تبلورت نصوصًا مكتوبة فيما صدر من نصائح، جرت على لسان «ختى» أحد ملوك إهناسيا من ذلك العصر إلى ابنه «مريكارع»

حيث بسط أصول الحكم الصالح وأعباء الحاكم الرشيد، وشرح حق الرعية عليه وواجبه نحوها.

وقد كانت الأفئدة يومئذ قد تحولت إلى معان جديدة، ومبادئ جليلة فغلبت فيها على المادة الروح، إذ رأت السعادة فى صالح الأعمال، وفيما يكتسب المرء من فضائل، فأشادت الأقلام بالنظام والعدالة، وبشرت بأن الخلود لا تسوغه وجاهة أو ثراء، وإنما سبيله اجتناب الآثام وفعل الخيرات[1]، وهى بهذا قد أرهصت بما علم الأنبياء وأعدت الناس لما يبعثون به كافة للناس من رسالة ودين، بل نطقت بما ثبته الأنبياء بعد عصرها بلفظه ومعناه.

ولا شك أن إبراهيم، قد أفاد مما رأى وسمع، حيث طفق يتأمل ويسائل نفسه فيما شهد من سيرة الناس، وليتبين الهدى فيما يعبدون من نجم وقمر وشمس.

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٧٩]

---

(١) Volten, Zwei Altägyptische Politische Schriften (Kobenhavn 1945).

ـ ٣ ـ
يوسـف

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف : ٧]

كان دخول يوسف مصر على المشهور أيام احتلال الهكسوس مصر وقد كانوا آسيويين ساميين، أو تبينت فيهم العناصر السامية من سوريا وفلسطين. دخلوا مصر أواخر الأسرة الرابعة عشرة غزاة فاتحين، يغريهم ضعف البلاد السياسى، وتغريهم قوة ثروتها وخصب أرضها، وتدفعهم من مواطنهم فى ذلك العصر ظروف طبيعية صعبة ساد فيها الجفاف وصوح الزرع وقلت الموارد وحل القحط الذى بلغ ذروته، ثم امتد حتى شمل مصر فى أعقاب مجىء يوسف بسنين.

ولقد ترك فتح الهكسوس مصر أثرًا لا يمحى فى نفوس المصريين، تحدث عنه المؤرخ المصرى «مانيتون» فيما روى عنه مؤرخ اليهود يوسف، فيقول: «وكان هناك ملك لنا يدعى تيماوس» وقع فى عهده ـ ولا أدرى كيف ـ أن غضب الله علينا، فجاءعلى حين غفلة قوم من أصل وضيع من ربوع الشرق، كان فيهم من الجرأة أن حملوا على بلادنا، وبسهولة أخضعوها بالقوة، وإن كان ذلك بغير الالتحام فى معركة معهم، فلما

أخذوا حكامنا تحت سلطانهم، عمدوا بعد ذلك فأحرقوا مدننا، ونقضوا معابد الآلهة، واستغلوا الناس استغلالاً وحشيًّا، إذ قتلوا بعضهم وساقوا أبناءهم، وأزواجهم أسرى».

وتحدثت «حاتشبسوت» من بعد انحسار دولتهم، وانقضاء زمانهم بنيف وسبعين عاما، تشير إلى ما وقع بمصر بقولها: «لقد أصلحت الخراب، وأتممت ما كان ناقصا قبل مجىء الآسيويين إلى هوارة فى الأرض الشمالية، وكان بينهم يومئذ من الهمج من وجهوا جهدهم إلى تخريب العمائر جهلاً منهم بوجود رع»[١].

ثم لم تلبث حياة الاستقرار أن هذبت الهكسوس فأخلدوا إلى ما وجدوا من المدنية والحضارة المترفة التى أتاحتها الحياة المصرية إذ ذاك فاتخذ ملوكهم ألقاب الملوك المصريين وآلهتهم وأطرافا من حضارتهم، وتسموا ببعض أسمائهم، واتبعوا فيما بعد نوعا من التعايش السلمى مع عواهل مصر وأمرائها الوطنيين فى أقصى الصعيد، ولقد صورت لنا ذلك وثيقة بردية تحدثت يومئذ عن ملك طيبة «كاموسى» أنه لما عزم على إجلاء الهكسوس واستئناف القتال معهم قال: «وددت لو علمت الفائدة من قوتى، وفى «حوت وعرة» (هوارة) أمير وفى النوبة آخر، حيث يقبض كل منهما جزءا من مصر، ويشركنى الأرض، إننى لن أتركه . . . انظروا إنه يحتل خمونو (الأشمونين)»، فقال بعض جلسائه من الأشراف: «أجل، لئن كان الهكسوس قد أدركوا القوصية وأخرجوا لنا جميعا ألسنتهم فمازلنا نملك نصيبنا من مصر هانئين، فالفانتين قوية، والأرض

(١) Breasted, Ancient Records II § 303

الوسطى معنا حتى القوصية، وأحسن حقولها تحرث من أجلنا وثيراننا ترعى فى الشمال، والحبوب ترسل لخنازيرنا ولن تؤخذ منا ثيراننا».

ومهما يكن من شيء، فقد اتخذ الهكسوس عاصمة ملكهم فى شرق الدلتا فى مدينة حوت وعرة (هوارة)، حيث فتحوا أبواب مصر الشرقية لهجرة العناصر السامية والكنعانية من بنى جلدتهم فدخلوها أفواجا لا يصدون عنها(١)، وكان منهم من غير شك الرعاة الذين أقبلوا على مصر يطلبون المرعى الغزير والحياة السهلة والإقامة الناعمة، ولعل ذلك ماحدا بالمؤرخ المصرى «مانيتون» إلى تفسير اسم الهكسوس بملوك الرعاة.

وفى هذا الزمان الذى أظل مصر، أقبل يوسف عليها، وكان ملوك الهكسوس من غير شك قد أدخلوا بعض المصريين من أهل الدلتا المحتلة فى خدمتهم، وانتحلوا بعض عادات المصريين وبعض أسمائهم، وربما دل على ذلك، كما ورد فى التوراة، اسم العزيز الذى اشترى يوسف وأدخله فى خدمته «فوطيفارع» وهو اسم مصرى مصحوف عن «پادى پارع» بمعنى عطية رع، وكذلك كان فيما روى كتاب التفسير - اسم امرأة العزيز «زليخا» إذ هو اسم ملحوظ الصلة بما عرف من أسماء المصريات فى الدولة الوسطى، فقد انحدر إلينا من أسمائهن ما قد يرتد إلى أحدها اسم زليخا؛ وربما صحفت طائفة من كلمات متجانسة أحرفها - وإن اختلفت أصولها ومصادرها - فى لفظ واحد، ومن ثم فقد يكون اسم زليخا مؤنث «سروخ أو زلوخ» أو مجزوء «زروخ يب» بمعنى علاج

---

(١) H. Stock, Studien Zur Geschichte und Archaeologie der 13 bis 17. Dynastie Agyptens unter besonderer Berucksichtigung der Skarabaen dieser Zwischenzeit (1942) p. 70

الفؤاد، أو لعله من «زى رخو» بمعنى بنت العالم، أو من زى ختنى أو زى خرتى أى بنت ختنى وبنت خرتى[1]، وكان ختنى وخرتى من آلهة المصريين التى قدست خاصة فى الوجه البحرى(٢)، وفى ذلك ما عسى أن يكون من دلائل نشأة امرأة العزيز فى شمال مصر حيث كانت تحت فوطيفارع كاهن أون ـ عين شمس أيام الهكسوس.

* * *

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ [يوسف: ٧ - ٩]

بدأت قصة يوسف بالحقد الذى اعتمل وثار فى نفوس إخوته وران على قلوبهم لما رأوا من حب أبيه إياه وإيثاره عليهم، فاجتمعوا على النيل منه وتآمروا على المباعدة بينه وبين أبيه، أو فليكن قتله حلا لحب يفتقدونه فى أبيهم، وضغن استقر فى نفوسهم ثقيلاً لا يكاد يريم، ومع ذلك فقد كانت للقتل بشاعة ترهق نفوس الإخوة وتردها عن اقترافه والتورط فيه واحتماله، فلينصرفوا عن قتل أخيهم، وليؤثروا المباعدة بينه وبين أبيه بإلقائه فى البئر حيث يلقى ما قدر عليه من مصير، لا يستثنى منه الموت.

---

(١) Ranke, Op. cit I.S. 292, 293, 317

(٢) وقد كان خرتى معبودا حيث قرية أوسيم اليوم وكانت على مشارف أونو. انظر
Bonnet, H., Reallexikon der Agyptiachen Religionsgeschichte

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف : ١٠]

وقد قدر ليوسف أن يدخل مصر عن هذا الطريق إذ استأذن إخوته أباهم يعقوب فى اصطحابه إلى حيث يرتعون ويلعبون زاعمين .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [يوسف : ١١ ، ١٢]

وظاهر فى قولهم مالك لا تأمنا أنهم كانوا تقدموا إلى أبيهم من قبل فى اصطحابه والخروج به ، فأظهر الخوف عليه والشك فيهم ، وقد كان يعلم أن فى نفوسهم وقلوبهم ذئبا ضاريا يتربص به ريب المنون .

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ [يوسف : ١٣]

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف : ١٥]

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف : ١٩ ، ٢٠]

ولقد حمل يوسف إلى مصر حيث كانت تجارة الرقيق من البنين والبنات الآسيويين تلقى يومئذ من الرواج ، ما يدل عليه ما كشفت عنه

بردية فى متحف بروكلين بنيويورك الآن[1]. ولعل فى بخس ثمن يوسف دليلاً على زيادة المعروض للبيع من العبيد فى ذلك الزمان. فقد جاء فى تلك البردية ذكر ما يربو على أربعين آسيويًا بأسمائهم الآسيوية وما منحوا من أسماء مصرية، من نيف وثمانين كانوا يعملون خدمًا فى بيت واحد من عصر الأسرة الثالثة عشرة، قبيل مجىء الهكسوس. ولم يكن من سبيل بحكم ما هو معروف من تاريخ تلك البرهة، وأحوال مصر المتواضعة، أن يكون هؤلاء مع إخوان لهم فى بيوت أخرى، من أسرى الحروب فى زمان لم تقع فيه حروب، وإن دلوا على حركة شعوبية فى الشرق هائلة أدت إلى لجوء مثل هذا العدد الضخم إلى مصر كما وقع أيام زحف التتار.

بيع يوسف إذن فى مصر لعزيز مصر «فوطيفارع» حيث أنزله منزلاً طيباً وأوصى به امرأته، واستبدل باسمه العبرى يوسف اسما مصريا عرف منذئذ به.

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

[**يوسف**: ٢١، ٢٢]

وبذلك انقطع ما صار إليه عما كان عليه، وانفصم حاضره عن غابره،

---

(١) Pritchard, Op. cit. p. 558., Hayes, N.C., A papyrus of the Late Middle Kingdom in the Brooklyn Museum (Brooklyn 1955)

فإذا هو مصرى فى مجتمعه الجديد بسمته الجديد واسمه الجديد، فلم يعد يعرف بغيره.

على أن الأيام لم تشأ أن تصفو ليوسف على طول المدى؛ فقد أقام فى بيت العزيز مكرمًا متمتعًا بثقة سيده الذى عهد إليه بشئون بيته وماله: «فوكله على بيته ودفع إلى يده كل ما كان له..، فترك كل ما كان له فى يد يوسف، ولم يكن معه يعرف إلا الخبز الذى يأكل (تكوين ٣٩: ٤، ٦) ولكنه كان فى أثناء ذلك ينمو، ويتفجر جسده بالقوة الناضجة، والشباب الزاخر، فيروق امرأة العزيز.

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٣ – ٢٥]

هنالك ادعت عليه السوء، وبما نسميه اليوم بالتحرش الجنسى، ورمته بالعدوان، واتهمته عند زوجها بالخيانة والغدر واستعدته عليه، وطالبت بتعذيبه وسجنه.

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٥]

فما كان من الزوج حين دفع يوسف عن نفسه التهمة عليها إذ ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ إلا أن يحقق قولهما.

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾ وتحقق من كذب امرأته وخيانتها، ولاح نصب عينيه شبح الفضيحة والذل: ﴿ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٢٨- ٢٩]

غير أن أنباء الفضيحة سرعان ما تترامى إلى الناس، وطفق النساء خاصة يتحدثن بسقطة امرأة العزيز ويتناقلنها بينهن.

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٠]

وأى ضلال أشد ومصيبة أنكى من أن تراود سيدة من نساء الحكام عبدًا لها، وفتى من خدمها يصغرها سنًّا ومنزلة ومكانة إن كان له، أو لمثله فى المجتمع مكانة. ولكنها مع ذلك ورغم ذلك، قد كانت تتلمس لنفسها العذر فيه وترى ألا قبل لها، ولا لأمرأة تراه بغير ما فعلت.

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ

مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [**يوسف**: ٣١ – ٣٤]

فقد تحولت الأمور إذن إلى صراع بين المرأة والفتى، ودخلت كما يقال فى دور من العناد والمغالبة غريب، هى بتهالكها الذى انكشف عن تبجح سافر وكبر خائر، وهو بإصراره الذى لا سبيل له إلا إلى المضى فيما بدأ، وأعلن فى الناس، ولكنه مع ذلك لم ينج منهن ومن كيدهن، وتحالفت عليه قوى البغى، فكان لهن من السلطان على أزواجهن ما حجب الحق الأبلج وأساء إلى الخلق المتين.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [**يوسف**: ٣٥]

إذ تهاوى الزوج الجريح تحت وطأة الأقاويل من كل مكان، وقد أوهمه من حوله فتوهم أن فى الزج بالفتى فى السجن، إدانة له أمام الناس على عدوانه المزعوم، وإبراء لزوجته أمام الناس من تهمة الإغواء الموصوم.

* * *

صورة دقيقة لمجتمع فاسد، تصور ما كان عليه مجتمع الدخلاء من حكام الهكسوس فى مصر، وَمَن عايشهم من فساد وانحلال، ولو لم يكن لدينا عن مجتمع مصر فى ذلك الزمان سوى تلك القصة لاتخذناها وحدها دليلا على مجتمع يسوده الأجانب والغرباء، ولنفيناها عن المصريين الخلّص. ونسبناها إلى ذلك المجتمع الأجنبى مطمئنين، لأنها

إنما تخالف عن طبيعة الأشياء فى مصر وتخرج عن سليقة المصرى، بما ركب فيه من الأنفة والحمية والكرامة والكبرياء، ولو قد نظرنا - كما قدمنا - إلى بعض قصص التوراة، لوجدنا قصتنا هذه أشبه بقصصها وأدنى إلى مجتمعها، على حين تنبو عن مجتمع المصريين الأصيل، وتخالف تقاليدهم وأذواقهم خلافا كل خلاف، فما كان لمصرى أن يحتمل أو يسكت كما أراد يعقوب، وقد تعرضت ابنته لاغتصاب شكيم بن حمور (تكوين ٣٤ : ١-٣٠) أو يصبر عن مثل ما روى عن بكر بنى إسرائيل راءوبين إذ: «ذهب واضطجع مع سرية أبيه وسمع إسرائيل» (تكوين ٣٥ : ٢١). . . وما وقع فيه يهوذا من الزنى بأرملة ابنه، على جهل بهويتها، ثم الحكم بإحراقها لإثمها (كذا) ورجوعه عن ذلك القصاص الجائر حين تبين أنه هو الذى قارف الزنى بها (تكوين ٣٨ : ١٤-٣٦) ولا كان المجتمع المصرى ليطيق ما شاع عن داود مع أوريا وزوجه كما قدمنا، ولا ما اقترف ابنه أمنون بن داود، وقد احتال حتى اغتصب أخته ثامار بنت أبيه اغتصابًا (صموئيل الثانى ١٣ : ١-٢١)، فلقد كان المجتمع المصرى القديم مجتمع التقوى ومكارم الأخلاق، وكان حكمه على مثل تلك الجرائم عنيفًا قاسيًا، فلم يكن المصرى ليقبل فى الخيانة والخنا هوادة ولا لينًا، وكان «اسم الزوجة إذ تتهم بالإفك عند زوجها» مضرب المثل فى البشاعة والمقت كما ورد فى قصيدة المصرى القنوط، الذى كره الحياة وحدث نفسه بقتل نفسه، وانحدرت إلينا عن عصر الدولة الوسطى، غير بعيد من عصر يوسف، مسطورة بالخط الهيرطى على بردية يحفظها اليوم متحف برلين[١].

---

(١) Erman, Gespräch eines Lebensmüden mit seiner Seele (1896). S. 54f.

أدب المصريين القديم مرآة لخلقهم القويم:

ومما يروى من قصص المصريين وآدابهم ما يصور مثلهم العليا التى كانوا بها يستمسكون، ويصور ما تغلغل منها فى حياتهم وأحاديثهم، ولو جرت للتسلية وإزجاء الفراغ. روى عن خوفو فى بردية وستكار[١] أنه جلس يوما وحوله الأمراء من بنيه يتحدثون إليه ويسمرون معه، فحدثه «خعفرع» من عهد سلف له من الملوك عن كاهن من حاشيته المقربين يدعى أوبا أونر، كانت زوجته تعلقت بفتى من أهل المدينة، كان ينسل إلى قصر ذلك الكاهن، فينفق معها - فى غياب زوجها - سحابة النهار، فى كوخ منعزل فى حديقة القصر عند البحيرة فيها، حيث ينزل الفتى ليغتسل فى أعقاب خلوته. على أن ناظر القصر، وقد سدرت المرأة فى غيها وأوغلت تعمه زمنا فى ضلالها، قد عمد فمشى بخبرها إلى زوجها، فكان أن صنع من الشمع كهيئة التمساح، فألقاه فى البحيرة، بعد أن قرأ عليه من عزائم السحر ما حوله إلى تمساح مفترس عظيم، فلما نزل الفتى إلى الماء قبض التمساح عليه ونزل به إلى الماء، ثم تحدث الكاهن بخبر زوجته الخاطئة إلى الملك، ودعاه إلى بيته ليشهد العشيق الشاب بين فكى التمساح. هناك وقف الملك على حافة البحيرة مع الكاهن الذى نادى على التمساح فخرج إليهما بفريسته، فأمره الملك - وقد فزع من منظره - أن «خذ مالك»، ثم طلبت الخائنة بخيانتها فاقتديت إلى ساحة شمالى القصر حيث أحرقت علنا، وألقى رمادها فى النهر وذلك عقاب الزانية المحصنة فى ذلك الزمان.

---

(١) Erman, Die Märchen des Papyrus Westcar (1890) 120.4,10, Lefebvre, Romans et Contes Egyptiens de l'Epoque Pharaonique (Paris 1949) p. 70-77

وثمة قصة أخرى من قصص المصريين، بدا حرصهم فيها على رفع سلطان العدل وحرمة الأخلاق، إذ انحدرت إلينا على بردية استقرت اليوم فى المتحف البريطانى باسم بردية «تشستر بيتى الثانية[1]»، قصة بطلاها شخصان معنويان هما الحق والباطل، وورد فيها أن الحق كان له ولد من زواج لم يشهر للناس، فلما أرسل إلى المدرسة، سمع من أترابه غمزاً فى نسبه وتساؤلاً عن أبيه المجهول، فعاد الولد إلى أمه يسألها عن أبيه قال: «ما اسم أبى حتى أحدث به زملائى فإنهم يقولون فى خبث أين أبوك؟، كذلك يقولون ويؤلموننى؟ ولقد أوجب الولد - مع صغر سنه - على أمه الموت حين أوشك أن يتهمها ويظن بها الظنون، وحكم بما نستنتج أنه عرف المصريين يومئذ وتقاليدهم. بأن يدعى رجال أسرتها ليجبهوها بذنبها، وليلقوا بها إلى الهلاك فى النهر إلى تمساح يفترسها جزاءً وفاقًا لما اقترفت، وفى ذلك حكم من المجتمع المصرى، شاء مصنف القصة أن يجرى به لسان صبى على من كانت له الردء والسند والحنان؛ حكم يصدر من ولد على أمه إعلاء لما لا يجاوزه، ولا يعلوه شىء من دعائم الفضيلة والأخلاق، ولا شفيع عنده فى ذلك ولو كان البر بالأمهات.

ولقد حفظت لنا فضلاً عن ذلك قصة كانت أقرب شبهًا بقصة يوسف وإن خالفتها فى موقف الزوج المخدوع، تلك هى قصة الأخوين التى يحفظها المتحف البريطانى على ما يسمى ببردية «دور بينى[1]». وهى تجرى - كما شاءلها المصنف - فى ريف مصر، حيث الزراعة عماد الحياة،

---

(١) Hieratic Papyri in the British Museum 3rd Series. Vol. I,p.2-67 Vol.II pl. 1-40 (London 1935); Lefebvre op. cit,p. 159-168.

وحيث النظام الاجتماعى الذى يوجب على الأخ الأكبر القوامة على أخيه اليتيم، فيضمه - كما فعل العزيز - فى بيته بينه وبين زوجته، حيث كانا له بمنزلة الأب والأم، والرجل يعتمد فى ذلك على ما ساد المجتمع يومئذ من إخلاص الزوجة وأمانة الأخ وعرفانه مع مشاعر الأمومة والبنوة فيهما، ثم لا عاصم أو رقيب بعد ذلك إلا الفطرة السليمة والخلق القويم. وقد مضت القصة فروت أن الأيام قد تتابعت على الأخ الصغير، وهو يشب وينمو ويتفجر جسده بشباب ناضج وقوة عارمة؛ وتنظر الزوجة إلى «سلفها» فيعجبها شبابه الفائر العنيف فتراوده عن نفسه - كما فعلت امرأة العزيز - غير أن الفتى يغضب لما ترددت فيه زوج أخيه التى كانت له - كما قال لها - بمنزلة الأم من الخيانة والإسفاف، وينتهرها انتهاراً عنيفًا، ولكنه يعدها بكتمان أمرها عن أخيه الذى قام منه بمنزلة الأب، على أنها تخشى علم زوجها بما وقع منها فتبيت فى نفسها أمرا، فإذا عاد زوجها إلى البيت مع المساء ألفى البيت مظلمًا، وألفاها راقدة تتأوه من مرض وألم مزعوم؛ فلم تنهض لاستقباله، أو إنارة البيت وصب الماء له، ثم زعمت له حين سألها أنها تعرضت من أخيه بعد أن راودها عن نفسها للعدوان ومحاولة الغصب ثم الضرب، وإذا بالأخ يثور ثورة هائلة كأنه الفهد الضارى ويشحذ خنجره ليفتك بأخيه، ثم طفق يطارده حتى كاد أن يدركه، لولا أن حال بينهما نهر غاص بالتماسيح، فوقفا على ضفتيه يتحدثان، واستطاع الفتى أن يشرح لأخيه الحق ويبرىء نفسه، وإن كان قد أعلن إليه أنه لن يساكنه، ولن يقيم فى بلد هو فيه بعد اليوم، ثم رحل عنه إلى وادى الأرز فى لبنان، وعاد الأخ الأكبر حزينًا كاسف البال إلى بيته حيث انتقم من زوجته بقتلها وإلقاء جثتها للكلاب، وذلك أبشع صور الانتقام فى نظر المصرى القديم، حيث الحرمان من الدفن

والشعائر الجنزية حرمان من الحياة الأخرى وقضاء بالفناء الأبدى الذى يَفْرق منه كل مصرى ويخشاه على الجسد والروح جميعا.

كان ذلك فعل الفلاح المصرى، ومعه رأى المؤلف المصرى والمجتمع المصرى - حين تلقى النبأ بخيانة زوجته؛ وشتان بينه وبين عزيز الهكسوس حين تلقاه عن زوجته، فتلقاه هادئًا، وقد شهد شاهد من أهلها، فما زاد على أن قال:

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٢٩]

وقد كان من أمثلة المصريين السائرة ما يدل على مسئولية الرجل عن بيته ووجوب اليقظة لزوجه حتى يجنبها مواطن الزلل، فإن زلّت كان ذلك عن إهمال أو تراخ منه فكأنما وقع برغبته وإقراره ورضاه، إذ قالوا فى أمثالهم: «إنما تنكح المرأة برغبة زوجها»، وفى ذلك المثل من البشاعة والتحريض ما يثير الرجل - أى رجل - ويقيمه على التحفز لكل شبهة تحوم من حول زوجه أو تنال من سمعتها وسمعته، ولذلك كانت قسوة العقوبة التى لم تأخذهم فيها شفقة أو رحمة، وحرضت عليها تعاليم عنخ شاشانقى(١) فى قوله: «لا تقتل حية وتترك ذيلها».

وفضلا عن ذلك فقد كان المصرى أدنى إلى الطهر والتعفف بحكم ورعه وتقواه، وبحكم وثيق إيمانه بأن الجريمة لا تفلت بغير عقاب، وأن الجزاء عاجل من جنس العمل، إذ رسخ فى أعماقه من قبل المسيح ما قاله المسيح عليه السلام: «بالكيل الذى به تكيلون يكال لكم ويزاد لكم»

---

(١) Glanville: Catalogue of Demotic Papyri in the British Museum Vol. II The Instructions of Onkhshashanky (London 1955).

(مرقس ٤ : ٢ ، متى ٧ : ٢)، وعن تلك العقيدة صدرت تعاليم عنخ شاشانقى فى قوله : «من نكح زوجة على سريرها نكحت زوجته على الطين» و«من نكح زوجة قتل على عتبة دارها»[١] .

ولم يكن المجتمع المصرى أيام الفراعنة - على كل حال - مجتمعا من الملائكة والأولياء الذين لا يقترفون إثمًا أو يرتكبون سوءًا . ولن نعدم المارق ولا الخارج فى مجتمع أنى كان، ولكن الحديث إنما يعالج صبغة المجتمع الغالبة وخصائصه البارزة وتقاليده السائدة وموقفه من المارقين؛ وشتان بين مجتمع يرضى أو يتغاضى عن السوء، أو يقول قائل فيه «أعرض عن هذا» كما قال العزيز، ومجتمع يرفضه ويأباه ويعاقب عليه .

ومن شواهدالحفاظ على الفضيلة والحياة السوية ما كتب به رجل إلى زوجته المتوفاةالتى كانت ـ فيما يبدو ـ أسَنّ منه قال :

لقد اتخذتك زوجة حين كنت يافعًا

وظللت معك إذ تقلدت وظائفى

ظللت معك ولم أبعدك ولم أحزن قلبك

فعلت ذلك وقد كنت شابًّا

أتقلد كل خطير من المناصب لفرعون دون أن أبعدك

قائلا : لقد ظَلّت معى (دائما)

فما وجدتنى أهملتك بدخولى منزلاً آخر

ولما مرضت . . طلبت طبيبا ماهرًا يمرضك

(١) op. cit., pp. 49, 53.

ثم بكيتك مع أهلى

وهاقد أمضيت ثلاثة أعوام مقيما (وحدى)

لا أدخل بيتا (لا أتزوج)

برغم أنه لا يصح لمثلى أن يفرض عليه ذلك[١]

* * *

وإذ قال آنى لابنه وهو يعظه [٢]:

احذرالمرأة الغريبة المجهولة فى بلدتها

لا توجه إليها لحاظك ولا تقارف إثما معها

إن البعيدة عن بعلها لتقول دائما لك إنى جميلة

وفى غيبة الرقباء تتصدى لك بشباكها

ما أشدها من خطيئة تستحق الموت إذا المرء استجاب لها

* * *

تلك دعائم المجتمع المصرى من رفض الزلل والحملة على السوء، حيث قامت من نفس المصرى فى مواقع العقيدة التى ألهمته القوة فيما حل به من ملمات وما نزل به من نوازل وخطوب، فكانت له الذخيرة التى أخرجته من المحنة بعد المحنة واجتازت به النكسة بعد النكسة.

وحسبنا من دليل على أصالةنفسه ونبل مشاعره، ما انتهى إلينا من فيض آثاره وآيات فنه من نحت ونقش ورسم وتصوير على مدى الأجيال

---

(١) Gardiner-Sethe, Egyptian Letters to the Dead (London 1928) p. 8f

(٢) Volten, Studien Zum Weisheisheitsbuch des Anii (1937) p. 130 ff

والقرون وتقلب الأحقاب والعصور، فإذا بها فى مجموعها الغالب على سمت من الجلال والوقار، حتى لتكاد تخلو مما ينبو عن الذوق السليم، أو يند عن الخلق القويم.

ولقد أقام المصرى تاريخه على رفض ما لا يستقيم مع خلقه، والحملة عليه والتحذير منه، حريصا على ما وجد آباءه عليه من العادة والتقليد عاكفين، فكان استمساكه بذلك أمانًا، يقيله من محنته ووقاء يرده عن عثراته.

ونستطيع أن نتبين هذه القيم الأخلاقية الرفيعة فيما آل إلينا من نصائح الآباء إلى الأبناء، وما كانوا ينقشون فى قبورهم من إشادة بصلاحهم فى القول والعمل، وبرهم بالناس واحترام حقوقهم، وما ينبغى أن يتزود به الرجل من دنياه لأخراه من صالح الأعمال. وما من شك فى أن المصريين منذ الدولة القديمة كانوا يؤمنون بالأجر والمثوبة فى الآخرة على ما قدم الإنسان فى الدنيا من خير، ويؤمنون بما سوف يتولاه «الإله العظيم»فيهم من الحساب، أو «فصل الخطاب» على حد تعبيرهم، ولقد كان الوازع الدينى وإيمان الناس بالحساب عميقين فى النفوس، وكان المصريون فى معاملاتهم بعضهم مع بعض، يعتمدون فى ضمان حقوقهم وسلامة أملاكهم وقبورهم على ذلك الوازع الخلقى والدينى، وعلى استشعار الخوف من الحساب فى الآخرة، ولذلك فقد كان ديدنهم فى القبور منذ الأسرة الرابعة، تذكير الناس ممن تسول له نفسه الاعتداء على القبر بذلك الحساب الذى سوف يتولاه الإله العظيم، فى مكان الحساب فى الآخرة. ويبين لنا ما لهذا الإيمان من وازع فى النفوس ما حدث به «رمنوكا» من الأسرة الرابعة من ورعه وتقواه بأنه إنماامتنع عن أن يرزأ أحدا فيما يملك لأنه تذكر حساب الإله فى الآخرة.

وخلاصة البر الذى يؤهل الإنسان للحياة الرغدة فى الآخرة، أن يكون طيب الذكر حسن الأحدوثة بين الناس وأولى القربى بنوع خاص، فيكون بارابأمه وأبيه، ويظفر بحب إخوته وتكريم أقرانه وأصحابه، وأن تظفر الزوجة بحب زوجها وتكريمه، وأن يكون حلو الشمائل، يتحدث بالحق ولا يقول إلا طيبًا ولا يردد إلا طيبًا، ولا يتقول على أحد بسوء.

ثم بلغوا أقصى مراتب البر أن يرحموا الفقراء والمساكين ويرزقوهم من أموالهم فيطعمون الساغب، ويكسون العارى، ويتعهدون من يوافيه أجله ممن لا ولد له بالدفن والأكفان، ويتصدقون بالعون والمساعدة على من قعدت به السبل عن أن يكون له زورق يعبر به، بل يحرص المرء على ألا يبيت أحد من الناس وهو غير راض.

وقد كان احترام الحقوق، وكف النفس عن الغصب والظلم وحرمان الناس أشياءهم فضيلة أخرى، يرجو الناس بها المثوبة بعد الموت، وكانوا كما نقول نحن اليوم يكسبون فى العمال الثواب من الله، ويبتغون عنده الوسيلة والمنزلة بهداية الناس إلى حمده، وذلك كما كتب إيدو فى قبره: «لقد جعلت الله يحمد من المفنين الذين صنعوا هذا القبر إذ أرضيتهم بكل شىء طلبوه منى حبًا فى أن أكون معظمًا عند الإله»، وكانت دوافعهم الخلقية هذه كلها صادرة عن إيمان بالإله الحكم العدل الذى يملك الثواب والعقاب خوفًا وطمعًا وفى ذلك يقول أحدالأشراف: «ما ظلمت أحدا فيما يملك حتى يشكونى إلى إله المدينة»، وكذلك فقد كان ينبغى على من دعته قدرته إلى ظلم الناس وتسخير بناتهم أو غصب أملاكهم أن

يتعففوا عن ذلك، كما أعلن حنكو فى قوله: «لم يحدث أن سخرت بنت أحد»[1].

وبعد، فهذا مجتمع وذلك مجتمع.

هذا مجتمع مصر الصريح، وذلك مجتمع الدخلاء القبيح.

ونعود بعد تلك الوقفة إلى يوسف فى بيت العزيز.

فقد استطاعت امرأة العزيز مع ذلك أن تدبر له عند زوجها، وتتآمر عليه حتى حملته على إرساله إلى السجن، ﴿ **وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ** ﴾ [**يوسف**: ٣٦]

ثم تشاء المقادير التى دفعت بالأحلام إليه فى موطنه، ومسقط رأسه قبل أن يخرج منه أن تدفع بين يديه بحلمين رآهما الفتيان من صاحبي السجن لتخرجاه من السجن. ﴿ **قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [**يوسف**: ٣٦]

كان تعبير الأحلام فى مصر خبرة وعلمًا له أهله ممن لم يعلم بهم ملك الهكسوس، إذ كانوا يؤولون للناس إذ يقصدونهم، أو يصنفون من الكتب والمراجع ما كانوا به يستأنسون، وما كان فى حضارات أخذت عن مصر من حولها منهجًا ومقامًا[2]، ولنا فيما هو محفوظ اليوم بالمتحف

---

(١) Urk 146, 150, 170, 171, 173, 80, 251, 255, 186, 120, 75, 71,77... etc

(٢) Gardiner, Hieratic Papyri in the British Museum. Third Series. Chester Beaty Gift Vol. I p. 22ff.

البريطانى على بردية باسم «تشستر بيتى» دليل ظاهر، ومنهج فى التأويل لا يكاد يختلف عما لحظنا فى حلمى صاحبى سجن يوسف، وقد كان قائمًا على التورية والكناية والتشبيه والمقابلة والجناس، وذلك كما نربط فى حياتنا اليوم بين العيش بمعنى الخبز، والعيش بمعنى الحياة؛ ومن أمثلة ما أوّلوا من أحلامهم. أن الحياة الطويلة تكون لمن يموت فى المنام، وأن من رأى نفسه مع من هو أكبر منه بشر بالترقية إلى منصب أكبر، وكذلك لمن يرى فى المنام أنه يكتب فى لوح فإنه مثبت فى منصبه، ومن أمسك فى حلمه بقوس توقع منصبًا خطيراً، ومن صوب نحو هدف فهو مصيب خيرًا، ومن حلم بتسلق سارية رفعه الله عاليًّا.

ومن الرؤى السيئة اشتعال النار فى الفراش إذ هو نذير بطلاق الزوجة، ورؤية الرجل نفسه فى المرآة كناية عن نفس ثانية معه أى زوجة ثانية له يتخذها.

ومع ذلك فقد يختلف تفسير الحلم الواحد فيتناقض بين الخير والشر، فهو من ثم قائم على أهواء المفسر أو سياق الرؤيا، كأكل لحم الثور مثلا يكون بشير خير يصل إلى المرء أو نذير صراع وقتال ينتظره[١].

* * *

ولذلك فقد حار الفتيان من صاحبى سجن يوسف فيما عسى أن ينتظرا من حلميهما، ذلك أن الحلم بشرب النبيذ عند المصريين - فى أحد تفسيرين - فأل حسن للمرء بحياة بريئة عادلة، وفى آخر أنه يفتح فمه للكلام، على حين كان تخمير البلح بشيرا بطعام يأتيه، ولو قد حلم

---

(١) Ibid Vol. I p. 13 f, Vol. II pls 6-7

أحدهما بذلك لعرف يوسف بتأويله . ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف : ٣٧] ، وكان للحلم بأكل العنب أكثر من تفسير واحد ، فهو بشير للمرء بتسلم أمتعته ، كما كان أكل العنب والتين نذيراً بالمرض والداء ، ولعل أول الفتيين من صاحبى السجن قد كان - بعصره الخمر فى المنام - أقرب إلى الأمل فى براءته وعفو الملك عنه ، ولذلك فهل يستدعى ليستأنف الكلام دفاعًا عن براءته أم إن براءته قد أقرت له فيطلق من سجنه فيسلم أمتعته ويحيا حياة بريئة عادلة ويعود لسقيا مليكه كما كان من قبل ، أم عساه يقع فريسة لمرض يصيبه ، أما ثانى الفتيين فكان خليقًا بحيرة أشد وأنكى . ولعله بما ارتكب لم يكن مطمئنًا على نفسه من القصاص ، ولعله تأرجح بين ما رأى من خبز وطير ؛ فقد كان الخبز الحوَّارى فى المنام بشيرا للمرء بشىء يشرق له وجهه ، على حين كان صيد الطير ، أو رؤية صيده نذيرا بمصادرة أملاكه(١) .

وتصدى يوسف لتأويل الحلمين على غير مألوف الفتيين ، ولا استعداد للجدل معهما فيما كانا يعرفان قائلا : ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ ، ثم قال : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف : ٤١ ، ٤٢]

---

(١) Ibid I 12, 17, II pl. 5,7

وقد كان أن خرج الفتيان كل لمصيره، ويشاء الله لكى يحق الحق بكلماته ويحكم بأمره أن تلم بالملك الطيوف والأحلام.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ ﴾ [**يوسف** : ٤٣، ٤٤]

وإذا برفيق يوسف فى السجن يفيق.

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [**يوسف** : ٤٥]

كانت حيرة الملك والذين من حوله شديدة بحيث أرسل الساقى يسأل يوسف تفسير الحلم ويستفتيه فيه:

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ [**يوسف** : ٤٦ - ٤٨]

ثم عاد يوسف فأضاف بعد أن فسر حلم الملك أو حلميه، فتكهن بما يعقب السنين الشداد من الخير الذى يعم الناس فقال:

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [**يوسف** : ٤٩]

قال النسفى فى تفسير ذلك: «أى يجاب مستغيثهم وفيه يعصرون العنب والزيتون والسمسم، فيتخذون الأشربة والأدهان، ويقول: «ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجىء مباركًا كثير الخير غزير النعم».

وقد كان إذا انقضت أعوام المجاعة - وهى دائمًا أو تكاد تكون من أثر انخفاض النيل - عاد النيل إلى وفائه المعتاد وارتد الناس إلى حياتهم الأولى، وارتدت إليهم حياتهم الأولى، فينثرون الحب، ويرجون الثمار من الرب كما وصف عمرو بن العاص، وربما أتت الأرض بعد ذلك برزق موفور، بعد الذى نالت الأرض، على الرغم من أصحابها من راحة طويلة، وما تخلل شقوقها الجافة من الأزوت وهم لا يعلمون. وإلى ذلك أشار «امينى» أحد حكام الأقاليم إذ قال: «ثم جاء النيل بأمواه عظيمة تحمل القمح والشعير وكل شىء».

فقد تحدث القرآن بما بشر به يوسف عن رخاء يعم مصر من بعد السبع الشداد، وكذلك تواتر إلينا من أخبار تلك الحقبة من تاريخ مصر، نص يكشف عما تمتعت به البلاد أواخر حكم الهكسوس من وفرة ورخاء كاد يلهى المصريين أو بعض المصريين من كبار أصحاب الأرض الأثرياء. إذ ضاق كاموسى ملك طيبة بمكانه بين آسيوى فى هوارة فى الشمال ونوبى يحكم فى الجنوب، فما كان جواب بعض جلسائه منهم إلا حب السلامة وإيثار العافية قائلين: «حقًا لئن كان الآسيويون قد امتدوا حتى القوصية فمازال خالصًا هانئًا لنا نصيبنا من مصرنا، فاليفانتين قوية والأرض الوسطى معنا حتى القوصية وأجود حقولها تحرث لنا وثيراننا ترعى فى الشمال، والقمح والشعير يرسلان إلى خنازيرنا ولن تؤخذ منا ثيراننا.

مصر والمجاعات

وقد كانت مصر عرضة للمجاعات، وفترات من تدهور النتاج من زراعي وحيواني على مر العصور، وقد كان ذلك في أكثر الأحيان من آثار اضطراب النيل وامتناع فيضه وإخلاله بالوفاء كما تعود، وتعود منه الناس كل عام، فإذا تدهور وأقام على نقصانه لم تكد مياهه لتصل إلى الأرض التي تتحرق شوقًا إليه وتنتظر العام كله أو جله للقائه، وعندئذ فلا ري ولا استنبات ثم لا زرع ولا ضرع، فتكون الكارثة التي تنزل بالبلاد والعباد.

وقد كان فيض النيل على كل حال صاحب الزمام في الحياة المصرية ومفتاحها، به تكون الزراعة التي تمير أهلها عامهم كله، وبفضله تعلموا منذ أقدم العصور ادخار الحصيد والقصد في إنفاقه حتى يعود الفيض الجديد، فلقد عثرنا منذ حضارات العصر الحجري في مصر وطلائع تاريخها على مواضع ادخار الغلال، بل لقد كان انحباس النيل ونضوب موارد الدولة وثيقي الصلة بما كان ينزل بها من الضعف السياسي وتحلل السلطة المركزية وتدهور الأمن واضطراب النظام، فيكون شيوع الفساد وانتشار الجريمة مع القحط والجوع شرًا مستطيرًا وشقاءً متصلاً يحل بالناس فيترك في نفوسهم وعقولهم أثرًا لا يمحى، أو لا يكاد يمحى، ويقيم في أذهانهم ذكريات تصور بعضها عبارة لهم عن عام اشتدت قسوته، واستشرى فيه الجوع في الناس والحيوان، فسموه عام الضباع، وهو يذكرنا بما أطلق الناس على عام القحط الذي نزل بالمدينة أيام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه من عام الرمادة، وما للمجاعة من اسم الضبع في العربية.

وقد يبالغ النيل فى فيضه أحيانا فتتعظم أمواهه، وتضرى أمواجه فإذا هو يندفع طوفانًا عنيفًا مدمرًا مغرقًا كل شيء، ثم لا يكاد ينحسر عن الأرض إلا وقد انقضى من أوان البذر وقت قد يكون على الغلة أيام الحصاد سيئ المغبة، وإن لم يبلغ ذلك فى سوئه مبلغ نقص الماء، ولقد جاءنا من الأنباء عن فيض النيل أنه طما على عهد بعض الفراعين، وأنه ارتفع خاصة فى عهد «طهرقة» من الأسرة الرابعة والعشرين حتى غمر الأرض من معبد الأقصر.

ولقد كان للثورات الداخلية، والحروب الأهلية وما قد يسود البلاد من كوارث ومن فساد النظام ووهن الرقابة - وكثير منها من عقابيل المجاعات من نضوب النيل - أثره الهائل وثقله المبهظ فى تقاعس الناس، وشل همتهم عن العمل وإعراضهم عن الإنتاج، ثم فيما يترتب على ذلك من شكوى الناس من الجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات. نسوق من ذلك شاهدا من حديث لبعض الحكماء من عصر الفترة الأولى يقال له (ايپوور) قال: «إن الرجل يمضى إلى حرثه وترسه معه، انظر، لقد شحبت الوجوه وأصبح الرماة متحفزين فى كل مكان، لقد انعدم رجل الأمس، ولكن اللصوص فى كل مكان، إن النيل يفيض ولا من يحرث، وكل امرىء يقول لسنا ندرى ماذا حل بالبلاد، ولقد عقمت النساء فهن لا يحملن، وصار الكثير من الموتى يدفنون فى النهر. . .، ودمرت المدن وأصبح الصعيد مقفراً وزحفت الصحراء على البلاد[1].

---

(١) Pritchard, op. cit-p 441; Gardiner, the Admonitions of an Egyptian Sage (Leipzig 1909) p. 23 ff.

ومهما يكن من شيء، فلقد بلت مصر من القحط والمجاعات الكثير على مر العصور، وكان الصعيد - بخاصة - بحكم ضيق الوادى، وارتفاع أرضه عن النيل وعسر الرى فيه أدنى إلى المجاعة وأقرب إلى القحط الذى كان أفعل فى أرضه وأبعد أثرا فى أهله، مما كان فى الدلتا المتسعة الخصيبة ذات الرزق الوفير، وربما بلغت المجاعة من العنف والشدة حد القسوة التى تهوى بالناس من فطرة الإنسان السوى إلى ضراوة الوحش الوالغ فى الدماء، فلقد نزلت بمصر مجاعة على عصر الفترة الأولى وصفها شريف من أهل الصعيد يقال له (عنخ تيفى نخت) قال: «وكان الصعيد بأسره يموت من الجوع والرجل يأكل أطفاله»[1].

على أن المصريين قد اكتسبوا من ذلك حكمة التجربة وحس التدبير، إذ كانوا يدخرون غلة الأرض من أيام الرى لأيام الجفاف ومن يسرهم لعسرهم، ومن رخائهم لشدتهم. وكانت حكمة الملوك والحكام وحسن تدبيرهم خليقين أن يخففا عن الرعية بما كانوا يصنعون، ولو قد استمعنا - ولسوف نسمع بعد قليل - لأحطنا بما كتبوا خبراً مفتخرين بما كانوا يومئذ يجترحون لرزق الناس وغذوهم، وبما كانوا يبذلون فى استنتاج كل شبر من الأرض صالح للزرع تحت سلطانهم، وبما كانوا يدخرون من الحصيد لتلك الأيام، أو بما كانوا يجلبونه من أرض يتوفر فيها الرزق إلى أرض هى فى حاجة وعوز إليه، وذلك كله مع حرص على شمول العطاء وعدالة التوزيع.

---

(١) وقد كان من أعنف ما نزل بمصر من مجاعات فى العصور الوسطى ما وقع فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى من مجاعة حملت الناس على أكل القطط والكلاب، بل وسوغ لهم أكل لحم البشر الذى بيع علنا فى الأسواق. انظر:

S. Lanepoole, A History of Egypt in the Middle Ages (London 1914) p. 146..

ففى أسيوط كتب «خيتى» الثانى من الأسرة العاشرة، يتحدث عما جلب من قمح الشمال وادخاره فيقول: «إننى غنى بقمح الشمال حيث كانت الأرض فى جفاف، فأعشت مدينتى . . . وأذنت للصغير أن يحمل لنفسه من قمح الشمال مع زوجته، وللأرملة مع ولدها، ونزلت عن الضرائب التى وجدت آبائى قدروها»(١) .

أما «چفاى» من عصر الأسرة الحادية عشرة، فلم يجد فى مدينته من حاجة إلى استيراد قمح الشمال، وإنما عمد إلى ادخاره فى قصره وكلف بذلك مساعده «سنتى» الذى يروى ذلك فيقول: «لقد كلت قمح الصعيد الذى يحيى تلك المدينة بأسرها فى قصر الحاكم أمير الكهان «چفاى» فى سنى الضيق والشدة(٢) .

وأما فى بنى حسن من عصر الأسرة الثانية عشرة، فقد تحدث «امينى» عن زيادة الإنتاج فيقول: وكان أن حدثت أعوام المجاعة فكان أن حرثت الحقول من إقليم الوعل حتى تخومه الجنوبية والشمالية وأعشت أهله، وكفيته غذاءه، فلم يبق جائع فيه، إذ أعطيت الأيم كالسيدة ذات الزوج، ولم أميز عظيمًا على صغير، ثم جاء النيل بأمواه عظيمة حملت القمح والشعير وكل شىء، ولم يحدث أن أثبت فى السجلات ضرائب على الحقول(٣) .

وكذلك فعل فى الكاب حاكمها پپى من الأسرة الثالثة عشرة التى سبقت قليلا عصر يوسف والهكسوس، قال:

---

(١) Vandier, La Famine dans L'Egypte Ancienne (Le Caire 1936), p. 101 f.

(٢) op. cit. p. 111

(٣) op. cit. p. 17, 114

«لقد كنت أكدس القمح المطلوب الجيد، وكنت يقظًا فى فصل البذر، فلما وقعت المجاعة على مدى الكثير من السنين أعطيت القمح مدينتى فى كل مجاعة»[1].

على أن العلماء على كثرة ما قرءوا من أخبار المجاعات فى مصر القديمة إنما يقفون خاصة موقف الفاحص المتأمل من مجاعة أخرى نقشت أخبارها على الصخر فى جزيرة سهيل جنوبى أسوان[2]، ولئن كان الخبر منسوبا إلى العام الثامن عشر من حكم «زوسر» رأس الأسرة الثالثة، فإن الذى لا شك فيه أنه نقش فى تلك الجزيرة بعده بعشرين قرنا من الزمان؛ نقشه كهان خنوم على عهد البطالمة فى مصر، ولعلهم نقشوه حول عام ١١٤ و١١٣ ق.م فى حكم بطلميوس سوتر الثانى وقيل نقشوه فى عهد بطلميوس الخامس «أبيفانس» (شكل ٣).

ولقد وقف العلماء على ما ورد فيها من أن المجاعة إنما حلت بمصر سبع سنين، وعلى ما روى من أن الملك «زوسر» دعا وزيره الحكيم «إيمحتب» ليستفتيه فى تلك النازلة التى أحزنته، وليعلم علم هذا الذى أصاب النيل فحبسه عن المجىء فى عهده سبع سنين فذوت الحبوب وصوحت الثمار وقلت الأقوات، حتى لكأن الناس قد حرموا الأنفاس فلم ترقأ لطفل دمعة وأقام الشباب على الانتظار، على حين امتلأت القلوب أسى فانحنوا على أطرافهم مدقعين، واشتدت الحاجة برجال الحاشية، وغلقت المعابد وعم الحزن الناس.

---

(١) Ibid

(٢) op. cit., p. 132 ff; P.Barguet, La Stéle de la famine à Sehel. (Le Caire 1953); Pritchard, op. cit., p. 31; cf. Brugsch, Die Biblichen Sieben Jahre der Hungersnoth (Leibzig 1891).



(شكل ٣) نص المجاعة بجزيرة سهيل

ثم يمضى النص فإذا «خنوم» - رب أسوان -، يتجلى للملك فى منامه فيعده وعداً حسناً، وإذا هو يعلن إليه أن النيل لن يحتبس بعد عامه هذا، وأن الفيضان آت، وسوف يقبل فيعم البلاد فينبت الزرع والفاكهة وتنقضى أيام المجاعة، فلما أفاق الملك قرر لربه هذا وقف الأرض من أسوان جنوبا حتى تاكومسو، وذلك فيما عرف بلفظه اليونانى باسم «دوديكا سخوينوس» بمعنى الفراسخ الاثنى عشر.

فإن النص ليتحدث عن مجاعة امتدت سبع سنين، وعن مشورة استشارها الملك من وزير عرف بالحكمة والموعظة الحسنة، وعن حلم رآه، وغير بعيد أن يكون هذا النص صوتًا من واقع بعيد، وأن كهان خنوم حين كتبوه على عهد البطالمة قد كانوا تحت تأثير ما كان شائعًا يومئذ من أصداء الماضى السحيق، وبما ورد فى التوراة من أخبار السنين السبع الشداد التى جرت بها ألسنة من كان بمصر يومئذ، وكانوا كثرة، من يهود. وإلى يهود مصر خاصة، تعزى ترجمة التوراة إلى اليونانية من قبل إثبات هذا النص بما يقرب من قرن من الزمان، وذلك فضلا عما كان لليهود فى اليفانتين من مجتمع، يطل بحكم الموقع على سهيل.

ولقد أقبل يوسف على مصر وهى ذات حضارة عريقة ونظام دقيق ضارب فى السنين، إذ كانت الضرائب منذ القدم فى مصر وثيقة الصلة بفيض النيل ومنسوب مائه، حيث كانت تفرض على الناس مما تنبت الأرض من بقلها وكتانها وحبها وبصلها، ومما يستنتجه الناس من زيت وجعة ونبيذ، وكان الحب من قمح وشعير أهم ما تستقبل خزائن الأرض حيث يقوم عليها شريف من كبار رجال الدولة يحمل لقب أمير الأهراء «أميرا شنوتى» كان يشرف على كتائب من العمال والمساعدين والكتاب، فمنهم من يقيس الأرض أو يكيل الغلال، أو يثبتها فى السجلات ويحفظها فى الأضابير، (شكل ٤)، وكان على أمير الأهراء، أن يرفع إلى فرعون أمر هذا كله، وأن يحيطه بما حصلته الخزائن خبرا، وكان فرعون بحكم منصبه ومكانه من الناس مسئولا عن رفاهية الرعية وكف البؤس عنها إن تعرضوا له، وكان حكام الأقاليم إنما يصدرون فى أقاليمهم كما شهدنا، عن مثل تلك المسئولية وذلك الوعى الناضج فكلهم راع وكلهم مسئول عن رعيته، ولقد قدمنا من الأحاديث ما

يكشف عن وعى الحكام بذلك أشد الوعى وأرسخه، كما انحدر إلينا عن «أمنمحات الأول» رأس الأسرة الثانية عشرة ما يكشف عن تلك المسئولية التى يستشعرها الملك حيث يقول:

إنى أنا زارع الحب ومحب رب الحصيد

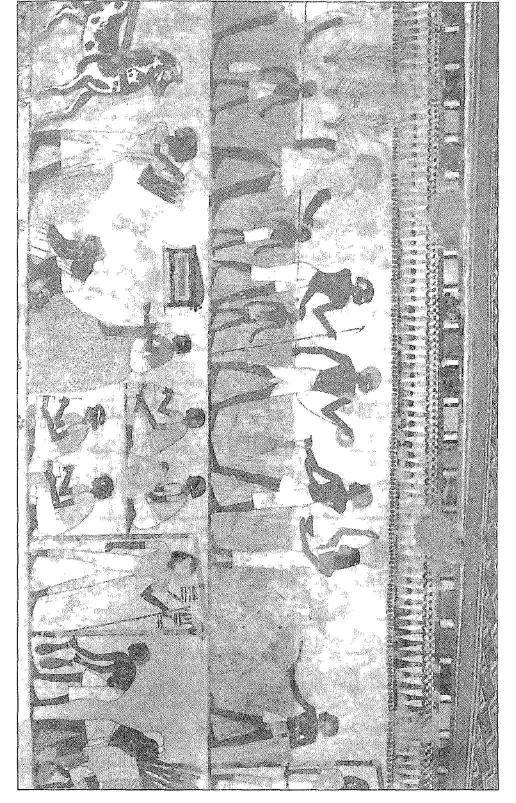
لقد حيانى النيل فى كل واد

فلا جائع فى عهدى

ولا ظمآن كذلك.

كان الهكسوس إذن قد أقاموا فى مصر ملكا لهم، حيث استقر بهم المقام فى الدلتا، واتخذوا عاصمتهم شرقيها فى حوت وعرة (هوارة)، غير بعيد من مواطنهم فى آسيا، ثم لم يلبث الهكسوس حيث استقروا فى بلد له حضارته وثقافته أن أخذوا ما استطاعوا عنه وانتهلوا ما ساغوه من علمه، ثم لم يلبثوا أن اتخذوا لأنفسهم نظم الملك وألقابه المصرية الخالصة. على أن الصورة التى يوحى بها القرآن عن مجتمع الهكسوس فى مصر أيام يوسف أنه مجتمع أخلد إلى الرفاهية المفسدة، فتراخت فى أهله النخوة وتداعت فيهم الهمة عن جليل الأمور، حتى عز فى الدولة الرجال من أولى الحكمة والبصيرة وأهل العفة والأمانة وأصحاب الحزم والتدبير، وكيف لرجال فقدوا الحزم على بيوتهم وانحسرت غيرتهم عن أهلهم، أن يتولوا دولة ناشئة فى بلد غريب ولما يرسخ كعبها فى أرضه. لذلك فقد كان الملك فى حيرة من أمره يتلمس الرجال تلمسًا.

ولا شك أن تفسير الحلم قد أعجب الملك إعجابًا شديدًا، فما كاد يسمعه ويقدر ذكاء الفتى السجين الذى فسره حتى أرسل فى طلبه، ولكن



(شكل ٤) الزراعة في مصر

الفتى لا يجيبه، ولا يسرع إليه حتى يضرب مثلاً آخر فى الشجاعة وعزة النفس، فهو لا يخرج من السجن، ولا يريد أن يخرج منه، أو يقصد الملك حتى يجرى التحقيق فيما نسب إليه ظلما من جريمة دفعت به إلى غيابته، وحتى تظهر براءته ويرد اعتباره بشهادة النسوة اللاتى شهدن هذه الواقعة وقطعن أيديهن لما أخرج عليهن ورأينه، ثم سمعن اعتراف امرأة العزيز التى كانت حينئذ مضيفتهن.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٠ - ٥٣]

ولكن ذلك لا يزيد الملك - وهو فى عوز أشد العوز إلى الرجال - إلا حرصًا عليه ورغبة فيه، وعزمًا على اتخاذ قراره بإطلاقه واستخدامه، وغير بعيد أن يكون النيل قد أنذر باضطراب استشعر منه العارفون من حوله.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ وأدرك ذكاء قلبه ورجاحة عقله وأمانته وبعد نظره، ﴿ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : ٥٤]

وكأنما عرض عليه مناصب الدولة، وأدار معه الحديث فيما هم مقبلون عليه ويتوقعونه من شئون الدولة ومشكلاتها، وفى أمور الناس وحاجات الناس.

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥]

وكان يوسف من قبل قد خبر ما صورنا من شئون البلاد ونظمها، وطرائق عيشها وأساليب أهلها فيها، وذلك بحكم إقامته بها فى خدمة العزيز مدبرًا أمور بيته محتملاً ما يسند إليه من وظائف وأعباء، وكان فى أثناء ذلك وهو الغريب النازح يدرس ما يجرى أمام عينيه فاحصًا متأملاً مستقصيا أمور البلاد والعباد، متعرفا ما يتبعون من عادة مستمعًا إلى ما يروون من عيون الأخبار من تاريخهم وتاريخ ملوكهم وحكامهم، وكانوا بالرواية والتاريخ شغُوفين، وقد أجاب الملك يوسف إلى ما طلب من منصب فكان له ما أراد، وخرج من السجن ليتولى فى الدولة منصبًا من أكبر مناصبها، وأشدها فى ذلك الزمان خطرا.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٦]

وكان القحط الذى نزل بمصر قد امتد إلى ما وراء الحدود، فشمل أرض كنعان فى فلسطين، واضطر يعقوب تحت وطأته أن يرسل بنيه إلى مصر مشترين مستطعمين:

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [يوسف : ٥٨]

كانوا قد ألقوه فى غيابة الجب صبيًا لم يتخذ من اللباس إلا ما يتخذ

البدو من ثياب بسيطة لم يألفوا سواها. وهم اليوم يدخلون بعد نيف وعشرين عامًا على فتى فى عنفوان الرجولة مصرى الهيئة، مصرى الاسم[1]، حليق العارضين إلا من لحية صغيرة قصيرة على الذقن، وقد تزيا بثياب المصريين الأنيقة، من نقبة وقميص من كتان أبيض يتحلى عند الصدر بطراز عريض مختلف ألوانه، واتخذ من فوق رأسه شعرًا مستعارًا، أو غطاء من تلك الأغطية التى شاعت عند المصريين فى تلك القرون، وأكبر الظن أنه حدثهم بغير لغتهم إذ خاطبهم بالمصرية متخذًا فى لهجته سمت الإمارة وسطوتها، ولم يكن للإخوة أن يتخيلوا أن هذا العزيز أخوهم وابن أبيهم. فلقد ألقوه فى غيابة الجب صبيًا حدثًا عاطلاً من المال، قد تقطعت به الأسباب فلا سند له من أهل ولا مكان له من وطن؛ وأكبر الظن أن يوسف قد طفق يتحدث إليهم، ويسمع منهم، ثم يستدرجهم إلى مزيد من الحديث عن بلادهم وآلهم فيسأل عن أبيهم وأمهم وإخوتهم، وهم لا يعون من وراء تلك الأحاديث شيئًا، ولا يحسون إلا أنها مما يجرى بين الغرباء حين يلتقون، وكان مما حدثوه أن لهم من أبيهم أخًا أصغر لم يأت معهم لحرص من أبيهم عليه، فتقدم إليهم فى رؤيته، وقد كانت نشأت بينه وبينهم - بحكم ذلك اللقاء - مودة، عبر عنها بفضل فى إيفاء الكيل، وبتكريمهم برعايتهم وقراهم وإنزالهم منزلاً، يجدون فيه الراحة والأمن، بل يجدون فيه شيئًا من ترف لم يتمتع بمثله مثلهم، وظاهر كذلك أنه كان يشرف بنفسه على ميرتهم وما يشترون.

---

(١) إذ سماه الملك كما ذكرت التوراة (تكوين ٤١ : ٤٥) على غير سابقة نعرفها من أسماء المصريين «صفنات فعنيح» مصحوفا فى تخريج العلماء عن «چدپا نتر اوف عنخ» أى «قال الرب إنه يعيش». Ranke, Peronennamen II 334, 13

لذلك فقد كان خليقًا أن يطلب إليهم وهو يودعهم ما يشاء، وأن يعبر عن رغبته في رؤية أخيهم ذلك الذى لم يأت معهم، فإن لم يأتوا به فكأنما هم يرفضون له طلبًا يرضيه، وينكلون عن إسداء مكرمة بمكرمة.

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ [يوسف: ٥٩ - ٦١]

ومع ذلك فقد كان حديث يوسف إلى إخوته حديثًا باطنه الرحمة وظاهره العذاب فلقد احتمل عن أهله وهو العظيم الموسر ثمن ما ابتاعوه:

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يوسف: ٦٢]

وظاهر أن تهديد يوسف بمنع الكيل قد كان خطيرًا يفزع شبحه النفوس، وأن القحط والمجاعة قد كانا يومئذ في كنعان أعنف وأفعل من أن يحتملها أحد أو يقوى تحت وطأتها على المفاوضة بله الإباء.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

[يوسف: ٦٣، ٦٤]

ومع ذلك فقد أنصت لإلحاحهم وإغرائهم.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا

نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ [1] ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ [يوسف : ٦٥]

ومع ذلك فقد اضطر يعقوب تحت ضغط الحاجة وشدة العوز، أن يرسل معهم أصغر بنيه على خوفه عليه، وشكه فى إخوته أن يفرطوا فيه كما فرطوا فى يوسف، واكتفى بعهد عليهم أن يحفظوه:

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [يوسف : ٦٦]

ولعله اطمأن فى أعماقه وارتاح إلى نبرة بنيه، وصدقهم فيما تحدثوا به من لين العزيز وكرمه وما ارتد من بضاعتهم فى رحالهم.

سبحان الله. أحد عشر فتى يخرجون على رواحلهم متقاطرين، لا يشك الناظر فى وجوههم أنهم إخوة لأب واحد أجمعين، تتشابه قسماتهم من جبهة عريضة، وأنف أقنى، وعين سوداء.

لا شك يعجبون المشاهد إذا شهد، ويثيرون الحاسد إذا حسد.

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف : ٦٧]

وخرج الفتية إلى مصر قاصدين، وكان لابد من طاعة الأب فيما أوصى به عند دخول المدينة:

---

(١) انظر مادة «بعر» فى لسان العرب وحديث ابن خالويه فى دلالة البعير على الحمار فضلا عن الجمل.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٦٨]

ثم أقبلوا على العزيز مستأذنين فكان طبعيا أن يخف إلى استقبالهم، وأن يزداد حفاوة بالصغير، وأن يؤثر هذا الضيف الجديد بشيء من المودة والنجوى :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ [يوسف : ٦٩ - ٧١]

وشاء رجال يوسف - أو أوحى إليهم - المبالغة فى قدر المسروق وقيمته إمعانا فى إرهاب إخوته . فزعموا أن المسروق شيء أثمن وأخطر من السقاية، وإنما هو من أمتعة الملك أو هو من ممتلكات الدولة الملكية ودللوا على قيمته بما جعلوا من مكافأة لمن يأتى به .

﴿ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ [يوسف : ٧٢، ٧٣]

هم لا يشكون وما ينبغى أن يشك العزيز فى ذلك فقد كان تعرف بهم وتحدث إليهم وعرف من أمرهم كل شيء، وعلم أنهم قوم مسالمون إنما أقبلوا يميرون أهلهم بما يكتالون منه، ولكن ذلك كله فضلا عن إنكارهم ودفاعهم لم يمنع من اتهامهم أولاً، ثم تم تفتيشهم ثانيًا .

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٤ - ٧٦]

وكأنا بالإخوة وقد استخرجت السقاية من رحل السارق المزعوم قد نكسوا رءوسهم حياء وخجلا، وحاولوا أن يقولوا شيئًا يعتذرون به .

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ٧٧]

لا شك أنهم شر مكانا بما يفترون من بهتان يثير النفس ويغضب الحليم، وقد طوعت لهم نفوسهم من قبل التخلص من أخيهم بقتله أو بإلقائه فى غيابة الجب، ثم هذا حقدهم عليه مازال رغم السنين مقيما فى قلوبهم لا يريم، ومع ذلك فلم يأن بعد لحسابهم الأوان. على أنه لم يكن من سبيل إلى الشفاعة فى أخيهم أو التطوع باحتمال التهمة عنه .

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ [يوسف : ٧٨ ، ٧٩]

ويكون ذلك فاتحة الختام أو بداية النهاية من فصول القصة، إذ انتهى المطاف بيعقوب وبنيه إلى الاستقرار بمصر، حيث أنزلوا أرض جسم أو

جاسام كما قرئ اسمها فى النصوص المصرية[1] ، أو أرض جاسان كما ورد فى التوراة ، ويكون استقرارهم هذا فى تلك البقعة من وادى طميلات فاتحة لقصة أطول وتاريخ أكبر ، تشعبت أحداثه ، وتقلبت فصوله ، ونوشك أن نتعرض له معالجين بعد قليل .

ولقد كان هبوطهم - كما قدمنا - على عهد الهكسوس فى مصر ، حيث بقيت لنا من آثار تلك الفترة من تاريخها ، جعلان عليها أسماء لطائفة من رؤساء الساميين كان منهم اسم «يعقوب إيل» ، وهو اسم يكاد يصعب فى رأى أرسخ المؤرخين ، إنكار ما شاع بينهم من أنه إنما نقش تذكاراً لسبط إسحق بن إبراهيم عليه السلام[2] . (شكل ٥)

ونعود هنيهة إلى يوسف وإخوته .

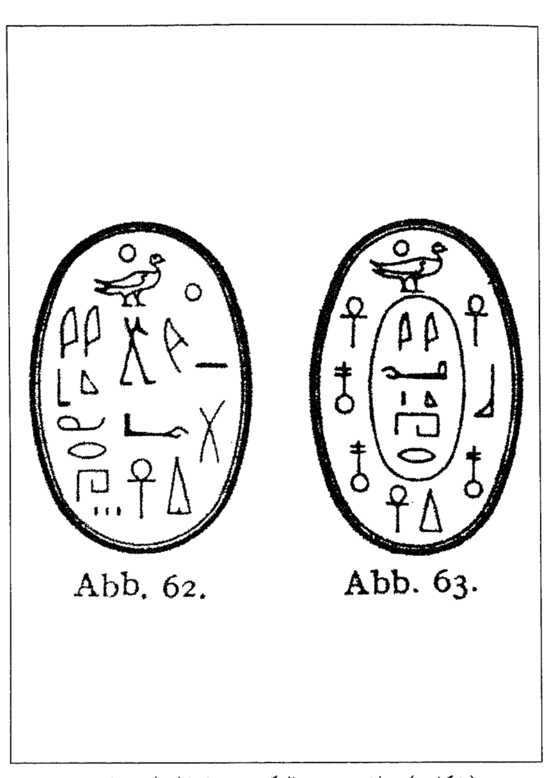
﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [يوسف : ٨٠ - ٨٢]

ومع ذلك فلقد كان يعقوب يعلم بما فى نفوس أبناء الضرائر من الحفيظة والحقد ، وقد ظل الشك يعمل فى نفسه مما يقولون .

---

(١) Montet, L'Egypte et la Bible, p. 57

(٢) Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford 1961) P. 157, JEA XXXVII, 62n. 5
cf. Stock, op. cit S.43.



(شكل ٥) جعلان من عصر الهكسوس منقوشان باسم يعقوب

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ٨٣]

ولم يكن يعقوب ـ ككل أب لولد مفقود ـ على استعداد للتسليم بهلاك ابنه، ولا لليأس من عودته ورؤيته.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾
[يوسف : ٨٤ – ٨٧]

ويعود الأخوة إلى مصر وقد أضرّ بهم القحط والحزن على ما نزل بهم وبأبيهم من محن، فيلقون يوسف ولم يكن فى عيونهم حتى اليوم سوى عزيز مصر.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف : ٨٨]

وكان الأوان قد آن للكشف عن شخصه، وقد ارفضّت عيناه ـ فيما يخيل إليّ ـ بالدمع لما وجد فيهم وصرحوا به من ذلة وجهد وقد مسهم الضر حقًا وهم يسألونه الرحمة والصدقة، ويخيل إليّ أنه خاطبهم هذه المرة بالكنعانية:

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾
[يوسف : ٨٩]

رباه، هاهى هذه جريمتهم التى دبروا لها، واقترفوها، ثم قبروها فى صدورهم سنين - لم يعلم بها سواهم من أحد إلا ضحيتها - تبعث من جديد، وها هو هذا العزيز الشاب من وراء رقعة بلادهم أميالاً يحدثهم بما لا يعلم به سواهم، فيا للمفاجأة التى تذهل وتردهم خرسا فاغرة أفواهم محملقين، وإنهم ليحدون البصر فى وجه محدثهم هذا المصرى العجيب، وقد ارتد بهم الفكر إلى تلك الصورة البشعة من فعلهم فلا يكادون يرون إلا أخاهم الصبى وهم يجرونه جرا إلى غيابة الجب وقد اختلطت قسمات وجهه بما غشيها من الرعب والتوسل، بوجه ذلك العزيز الماثل هادئًا صامتًا مبتسمًا بعد تلك الضربة المروعة التى أنزلها بهم بكلماته الهادئة. وتتعاقب صور الوجهين وسحب التذكر والوجوم، فلا يتبينون إلا وجهًا واحدًا لم تكد - فى زخرف الرياسة وترفها - تغير منه السن والسنون، فلا يلبثون، وقد انجابت السحابة قليلا إلا أن يهتفوا مروعين: ﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾
[يوسف : ٩٠]

وكان بين الإخوة لقاء امتزج فيه الفرح والخزى والبكاء، وامتزج فيه حسد مكتوم لم يلبثوا أن صرحوا به على ما حظى به من منصب عظيم ومكان رفيع، ثم كان بينهم اعتراف وعتاب ثم عفو وغفران.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لا تَثْرِيبَ

عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف : ٩١، ٩٢]

ثم يكون السؤال عن الأب والإخبار عما آل إليه من العلة والأسى، وما يجد وأهله من المشقة والجهد والإملاق، ويكون القرار بكفالة الأسرة كلها ورعايتها، فما كان ينبغي له أن يتمتع بما يتمتع به من يسر وترف وأهله مملقون. فيقول:

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٩٣ - ٩٦]

ولم يعد من سبيل للإخوة إلى إخفاء جرمهم القديم بعد انكشاف كل شيء فلم يكن لهم إلا الاعتراف والندم وطلب الغفران.

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يوسف : ٩٧، ٩٨]

وعد مؤجل بالاستغفار حتى ترضى النفس و تراض على التسامح والصفح عما كان. ثم يكون حديث الفتية عن يوسف وعما هو فيه من نعمة ومنزلة وسلطان، وما قرر من استقدامهم إليه، فتكون الرحلة التاريخية إلى مصر.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ

اللَّهُ آمنينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

[يوسف: ٩٩، ١٠٠]

«وسكن يوسف فى مصر هو وبيت أبيه، وعاش يوسف مائة وعشر سنين».

«... ثم مات يوسف وهو ابن مائة وعشر سنين فحنطوه ووضع فى تابوت». فى مصر (تكوين: ٥٠: ٢٣، ٢٦)

ولا مناص هنا من وقفة عند هذا الرقم من عمر يوسف عليه السلام، إذ كانت السن المثالية عند المصريين الأقدمين مائة وعشر سنين[١]، فهل كان ذلك عن مصادفة جاءبها القدر أو عن ثقافة مصرية رسخت فى وجدان كاتب هذا السفر من التوراة، فقدَّر سنَّ يوسف بمائة سنين وازداد عشرا.

(١) Lefebvre, op. cit. p. 81 & n. 41

- ٤ -

موسى

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿طسٓمٓ ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ② نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ١ – ٣]

دخل إسرائيل وبنوه مصر بمشيئة الله آمنين، حيث طابت لهم الإقامة فى مصر كاسبين مستكثرين، حتى صاروا كأنهم من أهلها وطائفة منهم كما يقول القرآن الكريم، غير أن ما ركب فيهم من ميل إلى العزلة وكراهية الاختلاط قد حجب نفوسهم وولاءهم عن ذلك البلد الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

وقد روت التوراة ذلك فى سفر الخروج (١ : ٧-١٠) قالت:

«وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا وكثروا كثيرًا جدًا وامتلأت الأرض منهم، ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف فقال لشعبه، هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض». فإن كان الملك الجديد - وهو الأرجح - رمسيس الثانى، فقد

كان الصراع يومئذ على التفوق فى الشرق بين مصر وخيتا وشيكًا أن يستأنف من بعد اندلاعه فى عهد أبيه سيتى الأول. فتقول التوراة: «فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينة مخازن فيثوم ورعمسيس. ولكن بحسبما أذلوهم هكذا نموا وامتدوا فاختشوا من بنى إسرائيل فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف ومرروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن، وفى كل عمل فى الحقل، كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفا» (الخروج ١ : ١١-١٤).

ولا شك أن كاتب هذا الجزء من التوراة إنما أوغل فى المبالغة وأغرق فى التعصب حين أطلق على لسان فرعون أن بنى إسرائيل شعب أكثر وأعظم من المصريين، فلو قد كان ذلك كذلك لما استطاعت قلة المصريين أن تسخر كثرتهم المزعومة، بل لقد شط الخيال والوهم فى تقدير عددهم كما أورده سفر العدد فأبلغه حدا من الإغراق فى الوهم يلغى العقل والتفكير، إذ ذكر أن المحاربين منهم ممن تجاوزوا العشرين قد بلغوا فى مطلع العام الثانى لخروجهم ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين (٦٠٣٥٥٠) محاربا. فكيف كان عددهم فى ذلك الحساب أجمعين.

«فكان جميع المعدودين من بنى إسرائيل حسب بيوت آبائهم من ابن عشرين فصاعداً كل خارج للحرب فى إسرائيل، كان جميع المعدودين ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين». (عدد ١ : ٤٥-٤٧)

فلا شك فى أن مثل ذلك العدد من الشباب المحارب خليق أن يرفع مجموعهم إلى ما يجاوز المليونين، بل يبلغ الملايين الثلاثة أو يقاربها، وهو ما لا يستقيم مع ما تعرضوا له من ذلة وعسف تحت رؤساء

التسخير[1]، ولا مع ما روى من عبورهم البحر فى سويعات قصار، واكتفاء فرعون عند خروجهم بستمائة مركبة حربية، إن كانت حقا ستمائة، لحصارهم واسترجاعهم. (خروج ١٤ : ٧).

ومهما يكن من شيء، فلقد أقاموا فى مصر منذ دعاهم يوسف حيث تمتعوا بالأمن والسلام «فأثمروا وتوالدوا وكثروا»، وحيث كانوا ـ من غير شك ومازالوا كما عرفوا دائمًا وبرغم الظاهر من تلونهم بالمجتمع الذى يعيشون فيه ـ يعتزلون بأنفسهم ويلوذون بعصبيتهم بما ينفر منهم أهل البلاد، ويحمل المجتمع المضيف على الشك فيهم، والحذر منهم. بل إنهم ليرحبون ويشجعون على إثارة ما يلقون من النفور والحذر تمكينًا لأنفسهم من الاعتزال والبعد عن الناس، إذ بدأت تلك السياسة منذ اللحظات الأولى من هبوطهم مصر وذلك بنص التوراة :

«ثم قال يوسف لإخوته ولبيت أبيه : أصعد وأخبر فرعون وأقول له إخوتى وبيت أبى الذين فى أرض كنعان جاءوا إلىّ، والرجال رعاة غنم، فإنهم كانوا أهل مواش، وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل ما لهم، فيكون إذا دعاكم فرعون وقا ل ما صناعتكم أن تقولوا عبيدك أهل مواش منذ صبانا إلى الآن نحن وآباؤنا جميعا لكى تسكنوا فى أرض جاسان لأن كل راعى غنم رجس للمصريين». (تكوين ٤٦ : ٣١-٣٤)

وطبيعى أن يكونوا على ولاء لأنفسهم ومصالحهم بولائهم للهكسوس وملكهم الذى آواهم فى مصر، وأنزلهم أرض جاسان، إذ مثلوا بين يديه مع يوسف :

---

(١) انظر : The Jerusalem Bible, Nb 1:46 n. d p. 171.

«وقالوا لفرعون جئنا لنتغرب فى الأرض إذ ليس لغنم عبيدك مرعى، لأن الجوع شديد فى أرض كنعان، فالآن ليسكن عبيدك فى أرض جاسان. فكلم فرعون يوسف قائلا: أبوك وإخوتك جاءوا إليك، أرض مصر قدامك فى أفضل الأرض أسكن أباك وإخوتك، ليسكنوا فى أرض جاسان، وإن علمت أنه يوجد بينهم ذوو قدرة فاجعلهم رؤساء مواش على التى لى». (تكوين ٤٧ : ٤-٦)

وما ندرى لعلهم قد كانوا حيث أقاموا شرقى الدلتا مع الهكسوس عونًا للهكسوس وحربًا على المصريين فى حرب التحرير، وهم من أحذق خلق الله على التقلب والتلون، وإثارة القلاقل واستغلال الأزمات، إذ هب المصريون بقيادة أمراء طيبة، فشنوا على المحتلين حربًا أضرمها عليهم سقنن رع، فما أن استشهد فى القتال حتى خلفه على العرش والجهاد ولداه كاموسى، ثم يعح موسى (أحمس). ولعلهم مذ ذاك ولما كانوا يبدون من هوى وميل نحو أعداء مصر، قد فقدوا ثقة المصريين، وظلوا بعامة موضع الحذر والشك.

لمحة من التاريخ:

وكان قد سبق الحرب محاولات للتحرش بدأ بها، أبوبى ملك الهكسوس. إذ أرسل إلى سقنن رع - فيما روت بردية ساليبه - سفارة تستنكر عليه أفراس النهر فى بحيرته، وما تثير من جؤار مزعج يذود النوم عن ملك الهكسوس فى هوارة[١].

(١) Gardiner, Late Egyptian Stories, 85 ff

ولقد تجلت وطنية المصريين فى تلك الحرب بما استطاع كل مصرى أداءه من تقديم النفس والمال فى سبيل التحرير، حتى انعقد لواء النصر للملك «يوعح موسى»، الذى دمر معاقل الهكسوس بعد معركة ضارية حول مياه پاچدكو فى مصر، حيث كانوا يرتكزون شرقى الدلتا فى عاصمتهم حوت وعرة (هوارة)، ثم تعقبهم إلى فلسطين حيث حاصرهم فى «شاروحان»، ثلاث سنين، قبل أن يقضى عليهم قضاءلم يسمع بهم بعد ذلك من أحد، ثم عاد لينشىء أسرة جديدة ويبدأ دولة جديدة، وعصراً جديداً ومجداً جديداً. فكان رأس الأسرة الثامنة عشرة وطليعة الدولة الحديثة، ومرسى أساس الإمبراطورية فى تاريخ مصر القديم.

على أن احتلال الهكسوس، وقد زال عن مصر، لم يَزُلْ عنها دون أن تخرج منه بما كان لها فى حضارتها، وفى أهليها من أثر خطير. فقد عرف المصريون عنهم العجلات الحربية، والخيل، وأخذوا القسى المزدوجة وألوانا من الأسلحة والسيوف. كذلك فقد اضطرمت الروح الوطنية، والنزعة الحربية فى نفوس المصريين. إذ وجدت البلاد نفسها منذ إجلائهم مضطرة إلى الإقامة على حمل السلاح، وإشهار السيف، وكان لزامًا عليها أن تستبقى سيفها مشهراً مذ ذاك حفاظًا على حدودها أولاً، وتأمينًا لطرق التجارة والنقل ثانيًا، ثم ضمانًا لموارد الثروة والمواد الغفل ثالثاً. وكانت القبضة المصرية على ما أحرزت من أملاك فى آسيا وأفريقية خليقة، إن لانت أو تراخت، أن تفقدها ما أحرزت من هذه الأملاك.

وأنجبت مصر ملوكا كانوا من أعظم القادة العسكريين والجنود

المحاربين، من أمثال تحتمس الأول، وتحتمس الثالث، وأمنحتب الثانى، بل نهض من الرعية قادة محاربون أبلوا فى سبيل بلدهم أحسن البلاء، من أمثال يوعح موسى بن إبانا، ويوعح موسى الكابى، وأمنمحب، إذ شهدت طيبة عاصمة مصر على عهد هذه الأسرة عهدًا تطامنت لها فيه إمبراطورية واسعة النطاق مترامية الأطراف، تمتد من أعالى الفرات فى الشمال، إلى جنادل النيل الرابعة فى الجنوب، حيث أسرع إليها الناس شعوبًا وقبائل وحكامًا، من أقطار الأرض وجزر البحر بالولاء والخضوع خوفًا وطمعًا، وباتت طيبة عاصمة الدنيا وأم القرى فى ذلك الزمان، حيث تدفقت على مصر كما تفجرت من أرضها ينابيع الثروة، وشملتها من أسباب الأمن والرفاهية والرخاء والحياة الناعمة ما وجد سبيله إلى الثقافة والفن، وبات الملوك من جيرانها وفى يقينهم أن الذهب فيها كالتراب كثرة ووفرة، فهم يرسلون الرسائل ويبعثون البعوث يطلبون، بل يستجدون رضاءمصر أولاً، وذهب مصر ثانيا، ويتمنون على فرعونها أمنحتب الثالث أن يرضى، فيسمح بتزويجهم فتاة من مصر ولو لم ترتفع إلى طبقة الأمراء والنبلاء.

على أن هذه الحقبة من التاريخ قد شهدت طلائع القبائل العبرانية تدخل فلسطين حيث ورد فيما سجل تحتمس الثالث من فتوحاته بالكرنك مواضع تدل أسماؤها على صبغة عبرانية تلقتها من بعض القبائل والبطون. منها على سبيل المثال «يعقوب إيل» و«يوسف إيل»[١]، وكذلك فقد ظهرت مذ ذاك طوائف من الناس، أو قبائل تحمل اسم (عاپيرو، وخابيرو) وأثار ذكرها من جدل المؤرخين فى نسبتهم إلى

(١) Pritchard, op. cit., p. 242

العبرانيين ما لم ينته بعد إلى قرار يقين، ومع ذلك فقد غفل التاريخ عن بنى إسرائيل فى مصر يومئذ منذ هبوطهم بها، فلم يذكر عنهم من شىء إلا لمعًا عن أحافير الآثار فى الأعوام الأخيرة قد تدل على حسن حالهم أيام الأسرة الثامنة عشرة، إذ كشف فى سقارة عن قبرين لعبريين ـ على الأرجح ـ اسماهما «ريش» و«عپر إيل» كانا بحكم ألقابهما وما توليا من وظائف، وما أتيح لكل منهما من قبر فسيح منقور فى الصخر، من أصحاب المنصب والمنزلة فى المجتمع المصرى الذى اندمجا فيه أيام تلك الأسرة، فأما ريش وقد سمى أمه «تنت يابتة» أى الشرقية فقد تولى فيما تولى تحت تحتمس الرابع وامنحتب الثالث، قيادة السفينتين «النجمة بمنف» و«حبيب آمون»[١]، وأما عپر إيل فقد تولى إمرة مدينة وحمل لقب وزير أيام أخناتون، كما تولى ابنه ذو الاسم المصرى الخالص «حوى» قياة الفرسان[٢]، غير أنهم كانوا على كل حال ـ مما بقى فى الآثار من نقش وحلية ـ مصريين قلبًا ولسانًا، أى عقيدة ولغة، إذ اندمجوا كما فعل عپر إيل وامرأته فى المصريين، واتخذوا لبوسهم وسمتهم، وتكلموا لغتهم، واعتنقوا دينهم، ومارسوا شعائرهم وعاداتهم التى كانوا عليها عاكفين. ومن ثم فقد عاش فيهم من شاء مواطنًا كريمًا له ما لهم وعليه ما عليهم. ومهما يكن من شىء فحسبنا عنهم أنهم أقاموا هناك «فأثمروا وتوالدوا»، وأصبحوا جزءا من رعية فرعون آمنين مع المصريين أو «طائفة منهم» كما وصفهم القرآن فى أول سورة القصص.

وأكبر الظن أنهم عبدوا مع الهكسوس المعبود المصرى المعروف ست

---

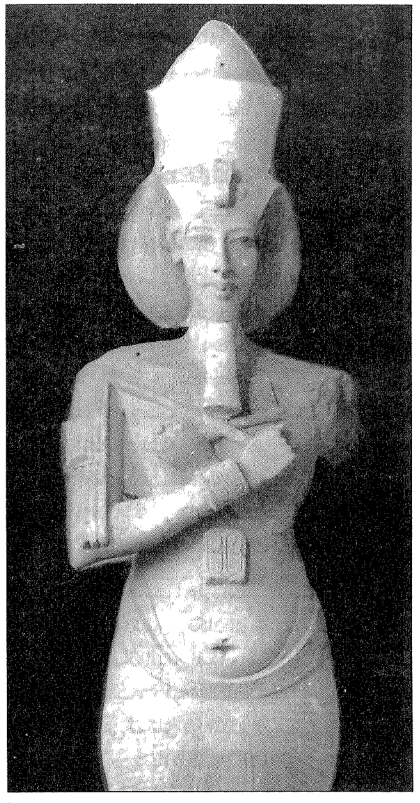
(١) Revue d'Egyptolgie (Paris) Tome 31 pp 135-151

(٢) ASA LXVIII (1982) p. 64

أوسوتخ، إذ قدسه الهكسوس، كما قدسه المصريون، فى صورة آسيوية أحيانا تحت اسم «بعل» . .

ولقد بلغت مصر ما بلغت من سلطة راسخة وإمبراطورية باذخة وقد قر فى إيمان الناس ما أعلن إليهم من أنها إنما حصلته بفضل آمون رب الأرباب ذى الرأى السديد، فبذل له الفراعين عن سخاء بل إسراف ما وسعهم البذل وكان كثيراً، فشيدوا له المعابد ووهبوا له الهبات السابغة، حتى بلغ كهانه من الثروة والسلطان على النفوس والعقول بل على الملوك أصحاب السلطة ما أطمعهم فى المزيد، وأشعر فرعون ومن حوله بما لا بد منه، من رد ذلك التيار المخيف، بل لقد كان ازدياد شأن آمون ورد الفضل إليه فى الفتوح، وامتداد سلطانه إليها أن أوحى مع فكرة الإله الواحد التى لم تكن غريبة عن أذهان المصريين على كل حال، بفكرة الإله العالمى الذى يعبده الناس كافة فى مصر وغير مصر، فكانت من ثم دعوة أمنحتب الرابع أخناتون (شكل٦) إلى دين التوحيد؛ إذ نادى بعبادة الواحد الأحد، الفرد الصمد، الرازق القادر المدبر، ورمز له بقرص الشمس آتون، وصاغ له من ناصع الشعر، أناشيد وترانيم تنم عن أحاسيس عميقة ومشاعر صادقة تعدد آلاءه على العالمين.

ومع ذلك فقد كان عسيرا على الناس أن يتخلوا عما ألفوا من دين وجدوا آباءهم عليه عاكفين، فكان أن اجتمعت على الملك معارضة الشعب، وعداء الكهان الذين أفقدوا مكانتهم وأموالهم، وتذمر منه الجيش الرابض فى منف، وهو يجمجم غيظا بما يهوى على سمعه من أنباء الإمبراطورية التى لم تلق من الملك الفيلسوف السادر إلا الإهمال، وهو فى شغل بدينه عن دنياه، فإذا بها تتداعى ثم تتهاوى إلى السقوط



(شكل ٦) اخناتون

والزوال، وهم يذكرون أياما مجيدة ودماء غالية بذلها آباؤهم أيام بطل مصر الخالد تحتمس الثالث.

ولقد انتهى الأمر بحكم ما ترددت فيه البلاد من صراع واضطراب من بعد اختفاءأخناتون باحتضار الأسرة الثامنة عشرة وميل شمسها إلى مغيب، وكادت مصر يومئذ تفقد استقلالها فيبتلعها الحيثيون بعد ابتلاعهم أملاكها، وذلك فى مؤامرة سفيهة انبعثت من غباء إحدى الأميرات من بيت أخناتون، لعلها، «عنخسن آمون» أرملة توت عنخ أمون، لولا أن تلقف العرشَ رجالٌ صدقوا ما عهدوا الوطن عليه وما بدلوا تبديلا، إذ كتبت إلى ملك الحيثيين تعرض عليه ـ لكرهها الزواج من أحد من رعيتها أو خدمها كما قالت ـ أن يرسل أميرا من بنيه يتزوجها ويتولى عرش مصر. وقد كان بعد تردد منه وإلحاح منها، أن أرسل ابنا له، لم يصل إلى مصر كما لم يعد إلى أبيه.

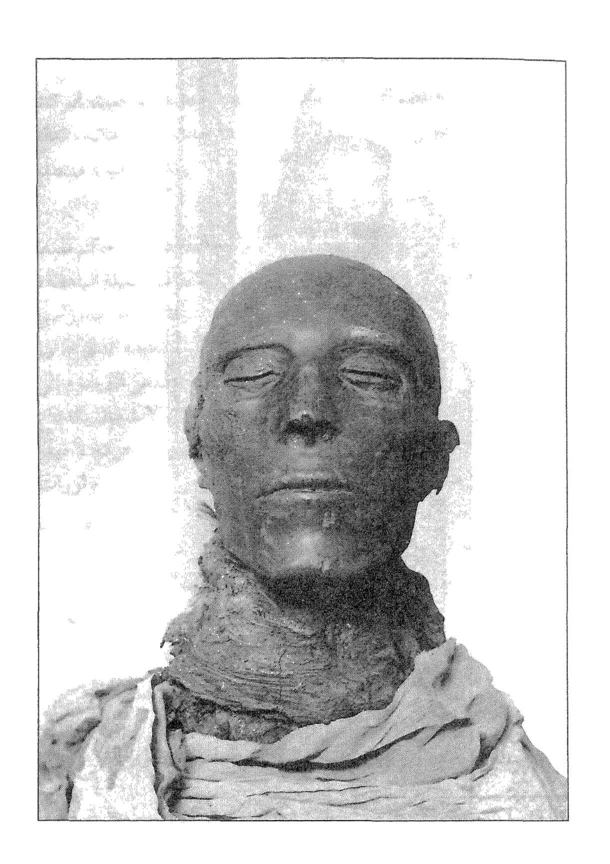
فلقد كان قائد الجيش حور محب يرقب الأمور ويوجهها عن كثب من موقعه فى منف، إذ أعقب أخناتون ختناه سمنخ كارع، وتوت عنخ آمون، ومن بعدهما دفع آى ـ وكان شيخا ـ إلى الملك ريثما يستتب له الأمر ويتهيأ له، ثم استوى على العرش.

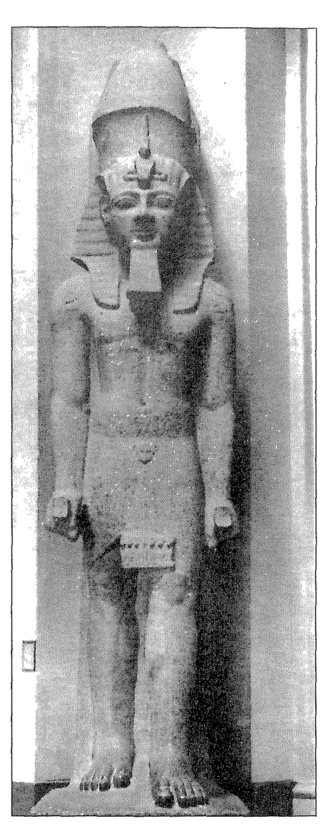
وأقبل حور محب ليقيل مصر من عثرتها، وليردها إلى الأمن والنظام والقانون، ويطهرها مما ترددت فيه من الفساد والرشوة والنهب واستغلال النفوذ، وليرهب من وراءحدودها عدوا يسعى بعد أن تحيف أملاكها إلى ابتلاعها بأسرها إن استطاع.

وإلى حور محب تنسب طائفة من قوانين صارمة أصدرها ضد المرتشين المستغلين، ثم ودع الدنيا بدون أن يعهد بالعرش إلى أحد من

بنيه، أو أولى قرباه، فكان ممهدا لعهد من الاستقرار والقوة جديد، وقيام عصر من القواد العسكريين الذين استردوا لمصر هيبتها وأملاكها فى أفريقيا وآسيا كان على رأسهم رمسيس الأول، فلم يلبث عامًا وبعض عام حتى ترك العرش لولده سيتى الأول (شكل٧)، ثم حفيده رمسيس الثانى بن سيتى (شكل٨)، وكانا من أعظم عواهل مصر بما أقاما من منشآت وأحرزا من انتصارات، فقد دخلا فى صراع عنيف مع الحيثيين على أرض سوريا وفلسطين، فى سبيل استرداد ما تحيفوا منها، وتثبيت سلطانيهما عليها، ثم ختم ذلك الصراع بعقد معاهدات الصلح والسلام الدائم بين العدوين المتحاربين: رمسيس الثانى المصرى، وخاتوسل الحيثى، وكان رمسيس يومئذ قد انتقل إلى عاصمته الجديدة التى أنشأها عظيمة زاهرة شرقى الدلتا، غير بعيد من عاصمة الهكسوس القديمة، لتكون فى مكان واسط بين مملكته فى مصر وأملاكها فى آسيا، وفيها استقبل المندوب الحيثى الذى أقبل يحمل طلب الصلح، حيث عقدت المعاهدة التى أبرمت بينهما عام واحد وعشرين من حكمه، ومع ذلك فقد قامت العلاقات والاتصالات الودية بين الدولتين، حتى رأتا تدعيمها بوشائج المصاهرة فتزوج رمسيس من بنت ملك الحيثيين الذى أقبل على مصر يزفها إليه فى العام الرابع والثلاثين من حكم رمسيس.

على أن مصر قد طفقت تتعرض من بعد رمسيس الثانى لأخطار ظلت تنوشها من كل مكان، حيث كان عهد مرنبتاح بن رمسيس ممثلاً لفترة من الفترات التى جنحت فيها إلى مبتدأ الانحدار من ذروة القوة إلى هوة الضعف، ومن عزة الامتداد إلى هوان الانكماش، ثم انتهى أمرها إلى انهيار فى الداخل وانحلال لإمبراطوريتها فى الخارج، حيث تألبت عليها الشعوب من أقاليمها فى الخارج، وتألبت عليها من الليبيين وشعوب





(شكل ٨) رمسيس الثانى

البحر المتوسط عناصر هائمة عدمت المستقر الخصيب، حيث تحركت الشعوب والأجناس فى آسيا، وأوروبا، فى موجات بشرية عاتية، تدفع أمامها شعوبًا، تبحث عن مستقر دائم تأوى إليه وتستقر فيه، فتتطلع عيونها إلى الوادى الخصيب من حول النيل.

وكذلك فقد ورث مرنپتاح مع العرش تركة مثقلة عن أب حكم سبعة وستين عاما امتلأت بالحروب الطويلة المرهقة، والنفقات الثقيلة الباهظة، على عمائر كثيرة ومنشآت باذخة، وكان مرنپتاح كذلك قد جاوز سن الشباب، بل جاوز الكهولة حين ولى العرش من بعد أبيه الذى جاوز الثمانين، فإذا بشيخ يخلف شيخا، وإذا مصر تتحول من الهجوم إلى الدفاع، ومن التطلع إلى إمبراطوريتها وتوسيعها إلى الانشغال بالدفاع عن أراضيها وسلامتها، ومع ذلك فقد كان عهد مرنپتاح حركة لا تهدأ فيما كان من قمع ثورات الماچوى النوبيين فى أقصى الجنوب، وثورات شعوب آسيا من أملاك مصر فى الشرق، وفيما كان من رد الليبيين عن حدود مصر فى الغرب مرتين، وقعت الأولى فى العام الرابع من حكمه[١]، ووقعت الثانية فى العام الخامس، وكان الغزو الليبى الثانى من أخطر ما تعرضت له مصر من غارات، إذ واجهت جموعا هائلة من شعوب البحر المتوسط، تحالفت مع الليبيين بقيادة ملكهم مر ياى؛ وكان مر ياى هذا بما جاشت به نفسه من آمال عريضة عازمًا على إحراز النصر والاستقرار بمصر، فصحب معه نساءه وبنيه.

واصطدم الجيشان فى معركة هائلة لم تدم أكثر من ساعات انتزع فيها

---

(١) A.A. - H., Youssef, Merenptah's Fourth Year Text at Amada (in ASA LVIII 1964) p.273 ff.

المصريون الغلبة، وأحرزوا النصر الأكبر، فكأنما كانت عين جالوت القديمة.

ولم يكن مرنپتاح وهو يجاهد جهاد اليائس بأقل من أبيه شدة وسطوة بل زاد عليه قسوة وعنفًا، فلقد حفظ فى معبد عمدا بالنوبة من وثائق التاريخ ما يحدث أنه كان يعاقب الخارجين عليه - فضلاً عن الصلب فوق الشجر - بإحراق الجموع وقطع الأيدى واقتلاع العيون وصلم الآذان، وأنه كان يبالغ فى العذاب فينزل عقاب الحريق بالخوارج أمام ذويهم، ويرسل ما اجتمع من الآذان والعيون فتعرض أكوامًا فى بلادهم إرهابًا وتخويفًا(١).

ولقد أيقن المصريون فى أعقاب هذه المعركة، أنهم قضوا على كل خطر يتهددهم وضمنوا سلامًا لا يشوبه خوف، وحق لهم أن يجوسوا خلال الديار فى غير وجل، وأن يجلس بعضهم إلى بعض يتحدثون ويسمرون، ويتغنون بنشيد النصر الأكبر سعداءهانئين.

أما مرنپتاح - وكان أصلع بادنا - فقد قعدت به الشيخوخة والمرض فى أعقاب ذلك قعودا توقع معه الناس - منذ العام الثامن من حكمه - نهايته، فكان أن جدوا مذ ذاك فى إعداد قبره والاستعداد لجنازته، ولكن العمر مع ذلك قد امتد به من بعد ذلك نيفا وعامين، حيث مات ودفن - من وادى الملوك بالأقصر - فى تابوته الجرانيتى بقبره الفسيح، ثم قدر لجثمانه من بعد ذلك خوفًا من اللصوص أن ينقل إلى قبر أمنحتپ الثانى، حيث عثر عليه عالم الآثار ڤكتور لوريه عام ١٨٩٨ من الميلاد.

---

(١) ibid

ثم خلف من بعده ابنه سيتى مرنپتاح، أو سيتى الثانى، كما عرف عند المؤرخين، فلم يجاوز عهده - بحكم ما ورد على بعض كسر الفخار من تاريخ توليه وتاريخ موته - أعوامًا ستة، استغرقها مع الفوضى والاضطراب، وهن السلطة وشلل الأمن، وتدهور فى الأخلاق لم يبرأ منه الوزراء، وهوان للشيم والعقائد، وسقوط هيبة الملك حيا وميتا، وقد كانت طيبة بتاريخها السياسى ومنزلتها الدينية من مواطن الفوضى، ومن مصادر ما نعرف من أحوال مصر يومئذ بما خلفت من وثائق التاريخ، إذ ظلت أرضها ووديان البر الغربى منها، تستقبل رفات الملوك وكبار رجال الدولة حيث يدفنون، وحيث قامت قرية لعمال الجبانة الملكية[1]، يتولون نحت قبور عواهل مصر وزخرفها وإعدادها بآلة الجنازة من توابيت ومحاريب وموائد القربان والتماثيل، فكان أن عرفنا من فيض ما خلفوا فى الوديان من مخربشات، وتركوا من الخاف وكسر الفخار وبردى مكتوب، دقائق أخبارهم، ووقائع حياتهم من أيام الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين خاصة، ولدينا من ذلك بالمتحف البريطانى فيما يعرف باسم بردية سولت ١٢٤ لمحات تصور شوارد مجتمع طيبة الغربية فى ذلك الزمان[2]، إذ نجم بها من عمالها من روع أهلها، وداس مشاعرهم وأقض مضاجعهم، بما قارف من بوائق وارتكب من جرائم القتل والتهديد بالقتل، والزنا بنساء رفاقه من العمال وبناتهم، أو

(١) Cerny., J., A Community of Workmen at Thebes In the Ramesside period (le Caire 1973); Vallbelle. Les Ouvriers de la Tombe, Deir el Medinah á l'Eopque Ramesside (le Cairo 1985).

(٢) Cerny, Papyus Salt 124 (Brit. Mus. 10055); Journal of Egyption Archaeology Vol. XV (1929) p. 243 ff. Pls xlii-xlvi.

اغتصابهن وتسخيرهن للعمل لمنفعته، وذلك فضلا عن انتهاب القبور وانتهاك حرمتها. وحسبه سوءًا أن أحد أبنائه - وإن نشأ له آخر على شاكلته - قد فزع من بوائقه ففارقه ليقيم مع حرس أبواب القرية معلنًا ألا سبيل إلى احتماله. ومع ذلك فلم تستطع العدالة أن تخلص إليه.

غير أن پانب - وكان هذا اسمه -، لم يكن ليقترف ما اقترف بغير حماية أصحاب المناصب الكبرى من الوزراء والطامعين فى العرش بما يمكن له سبيل الإفلات من العقاب، ولم يكن يتورع بداهة، عن حلف الأيمان بالباطل نفيا للتهم عنه، ولا عن رشوة الشهود وضمهم إليه وإلقاء التهم على سواه، حتى لقد عوقب أحد العمال بقطع يده لاتهامه بما اقترف پانب من إحدى سرقاته، وقد كان پانب يتطلع عن غير جدارة ولا استحقاق إلى منصب رئيس العمال نفر حتپ، ويدبر للوثوب عليه رغم ما كان له عليه من فضل التربية والتعليم، فما زال يتعقبه بالإرهاب والتهجم عليه فى داره وتهديده بالقتل وضرب من يتصدى لحمايته، حتى شكاه إلى الوزير أمن موسى، فأوقع به العقاب، هنالك استعدى پانب على الوزير من كان من غير شك ذا نفوذ عظيم فى الدولة، ذكر فى البردية باسم موسى - فعزل موسى الوزير، وأنفذ پانب وعيده فقتل نفرحتپ، ثم عمد إلى رشوة الوزير الجديد، پارع محب، فعينه مكان رئيس العمال القتيل، وما ندرى لعل موسى هذا أن يكون قبض الملك باسم أمن موسى قبيل عهد سيتى الثانى، أو فى أثنائه مد يده لم يقدر لها أن تطول، وهو صاحب القبر الذى عثر عليه باسمه هذا فى وادى الملوك[1].

---

(١) ibid

وكذلك بلغت حال البلاد من السوء أن يتمكن عامل من عمال الجبانة من عزل وزير من منصبه، وأن يزداد تبجحه فيعلن أن الوزير إذا استمع إلى ما يقال عنه فسوف يعزل الوزير، وسوف يظل هو فى مكانه نحاتًا للأحجار، وكذلك أعلن ابنه مثل ذلك متهماً الوزير بنهب الجبانة الملكية فلم يبق على شيء فيها. وظاهر أن پانب وابنه هذا قد كانا عونا لطغمة من الكبار، منهم الوزير، على النهب والإفساد فى الأرض، فهما يستطيعان التشهير بمن أراد بهما منهم سوءاً.

ولعل الصراع على السلطة بين المطالبين بالملك، والمطالبين بالوزارة واللاهثين وراء الثراء الحرام، قد هبط بهم إلى الاستعانة بالسفلة والمجرمين، فذهبت أصوات الشاكين المظلومين المقهورين أدراج الرياح، إذ يقول قائلهم يائسًا، فى پانب هذا: «غير أنه غير جدير بهذا المنصب أبدًا، وها هو ذا برىء، وهو كالمجنون مع أنه قاتل هؤلاء الرجال حتى لا يبلغوا الفرعون، انظروا لقد أعلمت الوزير بشأنه»، وقد كان فرعون مما نرى وسط أولئك الطغام أعجز من أن يبرم أمرًا، أو يحزم شأنًا، أو يتحرى، فيقتص للقتلى، ممن عسى أن يبلغه بأحوال البلاد.

ومهما يكن من شىء، فإن ما ورد إلينا من تلك الأحوال، وما ورد عن مصادر أخرى من إشارة غامضة إلى حرب وقعت تلك السنين[1]، ربما دل على ما كانت طيبة خاصة، والبلاد عامة، تمور به - بما وصف فى النص مجازا بالحرب - من فوضى عارمة واضطراب شديد. غير أن الحرب فى تلك العبارة الغامضة مع استبعاد الحرب الأهلية، أو الحرب الخارجية، قد تدل على حملة فاشلة أنفذت أو انتهت بكارثة مبينة. وغير

(١) A. Gardiner, of the Pharaohs (Oxford 1961) p. 276 f.

بعيد أن تكون صدى لخروج فرعون فى أعقاب بنى إسرائيل وما انتهت إليه من غرق فرعون فى اليم وجنوده.

أما سيتى الثانى فقد ودع الدنيا شابًا، أو كهلاً كما يبدو من جثمانه المحنط الذى عثر عليه مع جثمان أبيه وسائر الفراعين فى قبر أمنحتب الثانى، ولم يكن له من أثر يستحق الذكر إلا معبدا فى فناء الكرنك صغيراً. ثم ترددت مصر فى فترة من الفوضى وسفك الدماء ونفوذ الأجنبى، حتى سقطت الأسرة التاسعة عشرة، فلم ينقذ مصر مما ترددت فيه إلا رمسيس الثالث ثانى ملوك الأسرة العشرين.

فرعون وبنو إسرائيل:

وفى عهد رمسيس الثانى - على الأرجح والمشهور - ولد موسى، وذلك فى ظل الخوف والرعب اللذين فرضهما رمسيس على بنى إسرائيل؛ إذ كان قد تورط فى سياسة من القتل وسفك الدماء كما قال تعالى فى كتابه العزيز:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

[**القصص**: ٤]

وكان رمسيس الثانى حين تولى العرش حوالى عام ١٣٠٠ق.م قد ألفى غير بعيد من موطن أسرته شرقى الدلتا جالية من العبريين كبيرة، سخرها فيما اختط لنفسه واختط له وزراؤه ومهندسوه من العمائر

والمنشآت وكانت كثيرة هائلة لا تكاد تقع تحت حصر، وغير بعيد - بل أرجح الظن - أن يكون المصريون قد شملوا بنى إسرائيل ضمن من عرفوا من البدو باسم الشاسو هناك، فكلهم عند المصريين بدو ساميون، وكلهم من الشاسو والرعاة، وكان رمسيس على كل حال - فيما أثبتت وثائق التاريخ - يسخر الأسرى ومن فى حكمهم فى إقامة ما يريد منها. فلقد حفظ لنا من النصوص عند معبد السبوع بالنوبة المصرية ما يتحدث فيه ستاو نائبه هناك عما كان من استخدامه أسرى من قبائل التمحيو (غربى مصر) فى بناءهذا المعبد[١] وعند معبديه بأبى سنبل ما يتحدث فيه «رمسيس عشا حب» عن مليكه من أنه ملأ بيوت الأرباب بأبناء رتنو[٢]، وكان المصريون يتخذون من لفظ رتنو هذا اسمًا عامًا لسوريا وفلسطين[٣] وقد تقدم ما ورد فى سفر الخروج من استشعار فرعون لخطر بنى إسرائيل فيما تحدث به إلى قومه:

«فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم، ورعمسيس». (١ : ١١)

وقد عثر علماء الآثار منذ القرن الماضى على أطلال هاتين المدينتين، وكشفوا عن آثارهما، وحققوا اسم كل منهما فى التوراة، فردوا الأولى إلى تصحيف فى اسمها الأصيل برتوم بمعنى «دار أتوم» إله الشمس الأكبر، الذى عبد فى عين شمس فى صورة الشمس المكتملة أو التامة،

---

(١) Barsanti et Gauthier, Steles Trouvees à Oudi Es seboúa (Nubie) ASA XI (1911). p.84

(٢) Breasted, Ancient Records III § 498

(٣) ويذكرنا الاسم بموقع الليطانى الآن بلبنان.

وردوا الثانية ، كما هو ظاهر ، إلى اسم رمسيس ، وعثروا على آثار له تحمل اسمه هناك ، وكان قد اتخذها وبنيه من بعده عاصمة لهم باسم بررعمسّى ، بمعنى دار رمسيس .

ولم يكن لرمسيس بداهة أن يفجأ الناس - على غير علة ولا سبب - بتلك السياسة عن مجرد مزاج مال به إليها ، وشهوة إلى الدم عصفت به فى قوم أبرياء ، وظاهر كذلك من نص القرآن أن فرعون لم يصدر فى ذلك عن استبداد برأيه ولا انفراد بذلك بغير نصح مستشاريه .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ [القصص : ٨]

إذ شاركه فى ذلك من عسى أن نسميه الحزب العسكرى بزعامة مستشار ذكر باسم هامان ، وهو اسم لا شك - إذا رد إلى أصله بغير تصحيف - من الأسماء المصرية المألوفة الشائعة فى ذلك الزمان هو حورمين أو حارمين[١] ، وقد عرف بهذا الاسم رجل من عهد سيتى الأول وآخر من عهد ابنه رمسيس الثانى ، كان أولهما كاتب الملك وحامل الأختام ، والمشرف على حريم الملك ، وكان ثانيهما كاتب القصر[٢] أو بلغتنا الحديثة كبير الأمناء أو رئيس الديوان الملكى ، بمعنى أن كلا من الرجلين قد كان من فرعون فى منزلة قريبة تمكن من التوجيه والتأثير ، وقد كنا قدمنا كذلك ما كان لتلك الأسرة من صبغة عسكرية لا شك واضحة فى حياتى سيتى ورمسيس .

وأكبر الظن أن رمسيس إنما حارد بنى إسرائيل بذحل أوغر صدره

---

(١) Ranke, Die Ägyptischen Peronennamen I,S. 248

(٢) سليم حسن : مصر القديمة . الجزء السادس ص ١٦٨ ، ٥٦٠

عليهم وثقة مفقودة افتقدها عندهم فى حروبه التى استغرقته مع الحيثيين خمسة عشر عاما، ولعله وجد فيهم ما لم يتعففوا - ولا هم يتعففون اليوم - عنه من خيانة وتجارة بولائهم للغالب فى ظنهم من المتنازعين، ولعل فيما روت التوراة عن تعذيبهم اعترافًا بخوف فرعون منهم وشكه فى ولائهم:

«هلم نحتال لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض». [الخروج ١ : ١٠]

ولكن النقيصة التى أخذت وتؤخذ على فرعون، إنما كانت اندفاعه فى العذاب وإسرافه فى القتل للمذنب وغير المذنب على سواء.

هناك غير بعيد من برر عمسّى ولد موسى، حيث فزعت أمه إلى الله مما تخشى على ابنها من بطش فرعون. فيقول الله تعالى:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧]

وفى حديثه إلى نبيه يقول:

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٨، ٣٩]

واليم فى اللغة العربية البحر أو النهر، وهو كذلك فى اللغة المصرية القديمة، إذ اليم لفظة سامية عرفت فى المصرية منذ الأسرة الثامنة عشرة

حوالى القرن السادس عشر من قبل مولد المسيح، وكان المصريون يطلقون على البحر والنهر وما اتسع من لج الماء لفظ اليم، ومنه جاء اسم منخفض الفيوم بعد إضافة فاء التعريف فى المصرية إليه. على أن الذى يستوقف النظر هنا أن اللفظ ورد فى القرآن ثمانى مرات لم يذكر فى إحداها فى غير ما يخص مصر ليس غير، حيث ذكر بمفهوم النيل ثلاثا وأطلق على البحر الذى غرق فيه فرعون خمسًا، فكأنما يشير القرآن إلى موضع معلوم كما يدعوه أهله باسمه المعلوم.

أدركت أم موسى أن ليس إلى بقاء ابنها معها من سبيل، وإلا فهو لا محالة مقتول، فلتدفعه إذن خفية إلى من يكفله ويتولاه، وإلى من يمنحه من الحب وكريم الرعاية ما يعوضه عن الأبوين فى غير غمز فى نسبه ولا وضع من شأنه، وقد عرفت حب المصريين للولد وحدبهم على الطفل، واستكثارهم للبنين، وكان المصريون منذ أقدم العصور كذلك ومازالوا كذلك، فلقد حفظ من تراثهم الأدبى ما يحض على التبكير بالزواج والإنجاب، وكانت قلة النسل فى المجتمع المصرى القديم من النكبات والمحن التى يشكو منها الأدباء وأهل الحكمة فيه. شكا من ذلك أيپوور فى عصر الفترة الأولى، وتحدث آنى عن النسل، وتحدث الكتاب بذلك فى رسائلهم بعضهم لبعض، إذ كان عقم الرجل وعجزه عن النسل وصمة، تخرجه عن رجولته وعارًا يرمى به ومذلة يعير بها، وما كان ليغنى عن الرجل ماله الموفور إن لم يكن له ولد، وما كان لبيت أن يخلو من البنين، إذ يقول قائلهم: «وأما الذى ليس له ولد فليتخذ عوضا من اليتامى يربيه»[1] ومما أثر عن رمسيس الثانى أنه كان له ما يزيد على مائة

(١) عبدالعزيز صالح: التربية والتعليم فى مصر القديمة ص: ١٢

من البنين وستين من البنات كانوا قرة عينه و«أحباءه» يصورهم فى معابده فخراً واعتزازاً .

لم يكن لأم موسى إلى أن تعيش مع ابنها من سبيل ، ومع ذلك فكيف تدفع به إلى من يرعاه ، وهى حريصة على أن تخفى عن الناس - إن استطاعت - نسبه إلى بنى إسرائيل . إذن فلتلق به بعيدا عن الحى الذى تعيش فيه ، حيث يلتقطه من يأخذه ويرعاه ، وما كان لابنها أن يضيع فى شعب تلك شيمته وهذه خصاله ، ومع ذلك فكيف لها مع الخوف والرعب أن تُرى وهى تحمله إلى غير حيها دون أن تثير الريب والشكوك ، فلتقذفه إذن فى النيل ولتطمئن عليه نفسا من النيل وقد علمت من أساطير المصريين أن تابوت أوسير قد ألقى فى اليم فألقاه اليم بالساحل بعيدا دون أن يصيبه من اليم مكروه .

﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ١١]

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾ [القصص : ٨]

والذى لا شك فيه كما سوف نفصل فى غير هذا الموضع أن موسى عليه السلام قد ولد فى بر رعمسى عاصمة رمسيس الجديدة التى انتقل إليها ، وأن مولده فى أرجح الظن قد وقع بعد العام العشرين من حكمه ، حين استقر بها فى أعقاب حروبه الطويلة .

وهناك يتعرض الطفل للخطر الذى كانت تفرق منه وتخشاه ، فقد أرسلت ابنتها لتعلم من عسى أن يلتقطه والبيت الذى ينزل فيه ، والأسرة التى تربيه ، ولكنه يقع بين يدى عدوها وعدوه الذى حرصت على أن تباعد بينه وبينه ، ورضيت فى سبيل استنقاذه منه أن يبتعد عنها إلى حين .

ولكن لله حكمة هو مبديها وأمرا هو بالغه، فيحميه ويضمن له الحياة ويكفل له التربية الكريمة الناعمة، والتعليم الناضج الذى يؤهله لقيادة شعب تعوزه القيادة، ويؤهله لتعليم أمة - أعماها الجهل - لحمل رسالة التوحيد، يحميه بالحب الذى يطغى على كوامن الشرور وغوائل الأحقاد.

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه : ٣٩]

فكان أن أفلت الوليد من مصير أترابه من بنى إسرائيل بفضل امرأة فرعون أى امرأة من بيت فرعون هى ابنته كما عينتها التوراة وسماها فى سنته رسول الله[١] ثم مفسرو القرآن «آسية»، وهو اسم لا شك مصحوف عما يكاد يكون أشهر أسماء المصريين الأقدمين هو إيسة وآسة، ومن أشهر ما انتقل إلى الإغريق والرومان ثم إلينا مصحوفا فى إيزيس، وقد كان من كبريات أزواج رمسيس الثانى من تسمت باسم آسة نفرة أى آسة الجميلة أم بكر بنيهى خع م إست، وباسمها تسمت ابنة له تزوجها ابنه وخليفته على العرش مرنپتاح[٢]، فكانت كذلك امرأة فرعون وكانت، هى، على الأرجح، أم ابنه سيتى الثانى ومربية موسى.

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ٩]

---

(١) قال ﷺ «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسيا امرأة فرعون ومريم بنت عمران.. وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام»، رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وابن ماجة وهو حديث صحيح.

(٢) H. Gauthier, Livre des Rois III p. 77 f, 85, 107, 125

ويحمل الطفل اسما مصريا شاع فى مصر فى تلك الأيام هو «موسى»، وهو لفظ مشتق من مصدر الولادة. بمعنى الولد أو الوليد، كان يطلق على المصريين أحيانا مجرداً بهذه الصورة، أو مقرونًا بأسماء آلهتهم فى أسماء مركبة مثل رع موسى، وبتاح موسى، وتحوت موسى، وآمون موسى، ويوعح موسى، بمعنى رع وليد وبتاح وليد وتحوت وليد وآمون وليد والقمر وليد، وغير بعيد أن يكون موسى عليه السلام قد سمى بذلك الاسم المجرد الذى ورد وعرف لبعض من عاش أيام الأسرة التاسعة عشرة أو لعله سمى باسم مركب مع أحد آلهة مصر قد يكون حعبى موسى بمعنى النيل وليد ثم أسقط اسم الإله بعد ذلك، ولقد أجمع علماء المصريات على ذلك التفسير الذى قدمناه، وخالفوا به ما فهم من التوراة فيما ورد بها من أن ابنة فرعون دعت اسمه موسى وقالت إنى انتشلته من الماء، وإن لم نر فى عبارتها ما يقطع بمفهوم التعليل. إذ رده مفسرو التوراة إلى اسم المفعول من الفعل العبرى «مشه» بمعنى المنتشل، أو المستنقذ، وإن رأى آخرون فيه اسم الفاعل بمعنى المنقذ أو المحرر، كأن الذين أسموه كانوا يعلمون أو يأملون ما سوف يصير إليه ذلك الطفل اللقيط، ومهما يكن من شىء، فالذى لا شك فيه ولم يشك فيه كاتب التوراة أن امرأة فرعون إنما كانت مصرية تتكلم المصرية وتفكر بها، وما كان لها أن تتحدث فى حياتها فى وطنها بالعبرية حتى تتخذ للطفل - مع كراهة شائعة للعبريين يومئذ - اسما عبريًا، ولذلك فقد رأى مؤرخ اليهود يوسف أن يرد اللفظ إلى أصل مصرى واشتقاق مصرى مع تقيده بما ورد عن التوراة من احتمال ارتباط الاسم بما كان من التقاط من الماء، فقال: إن المصريين يسمون الماء «مو»، ويقولون للذى يستنقذ من الماء أو سيس.

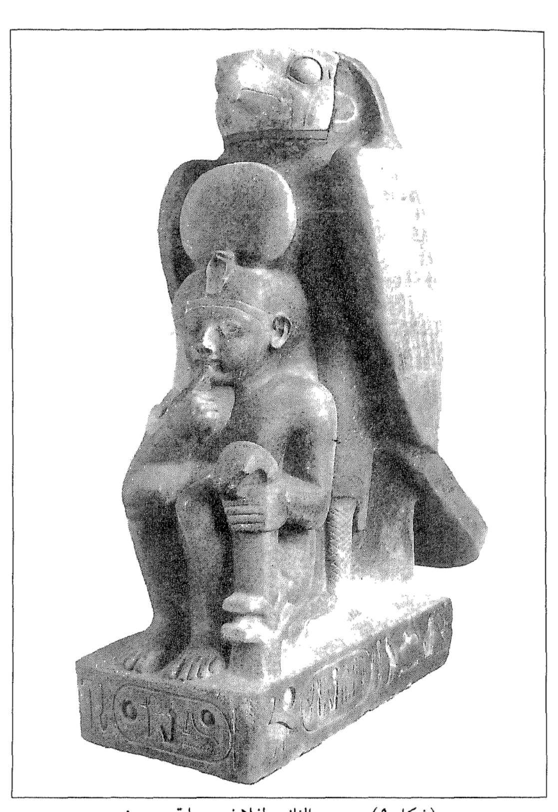
غيـر أن حرص يوسف على تفسيـر يكون مصـدقا لما شـاع ـ وإن لم تدل عبارة ابنة فرعون عليه ـ قد حمله، متعمداً على إغفال معنى أوسيس المصحوف عن لفظ «حسى» المصرى، وهو أصلاً حتى زمان موسى فى الأسرة التاسعة عشرة بمعنى الحميد، ثم أصبح منذ الأسرة الثلاثين يطلق على الموتى من الغـرقى المنتـشلين من النيل للدفن، وإلى ذلك أشـار كليمنت الإسكندرى من بعده، فكأنه بذلك قد اتخذ لفظا بمعنى متأخر عن عصر موسى وطبقه تطبيقًا غير دقيق ولا سليم(١).

أما هارون أخوه فقد كان اختار له أبواه من قبل ـ فى أكبر الظن ـ اسما كنعانيا مصريا، ينطق عن حنينهم ـ حيث نبت جدهم الأعلى ـ إلى أرض كنعان ولا يشكك فى ولائهم لمصر وأرباب مصر حيث يقيـمون. إذ خلعوا عليه اسم «حورون»، وكان معبوداً كنعانيًا استقبله المصريون ضيفا عليهم وعلى أربابهم فقدسوه، واعترف به رمسيس الثانى ـ ونحت طفلا فى حمايته ـ فى جملة ما يعبد ويعبدون (شكل٩) ومن حورون كان هارون.

ومع هذا كله فلم يكن اسم مـوسى بالاسم الوحـيـد الذى أخـذه العبريون ودخل حياتهم من أعلام الأسماء، بل لقد حملوا من الأسماء المصرية ما سار فيهم مسيرة التهويد التى خص اليهود بها أنفسهم دون سواهم من الناس، إذ شـاع بينهم اسم فنحـاص أو بنحـاس وحـفنى

---

(١) J. Cerry. Greek Etymology of the Name of Mosis (ASA t. xli (1942) p. 349 f; see also ASA XL p. 33 ff.



(شكل ٩) رمسيس الثانى طفلا فى حماية حورون

ويوتى إيل (فوطيئيل). بل شاع بينهم كذلك اسما مريم وسوزان. ومهما يكن من شيء، فلقد شاءالله لنبيه أن ينشأ فى آل فرعون.

﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ﴾ [طه : ٤٠]

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾

[القصص : ١٢، ١٣]

المراضع فى مصر:

ولولا كلمة سبقت من ربك لربى موسى بين من دل القرآن على حضورهن فى قصر فرعون من مرضعات ومربيات حاضنات، وكان الفراعين والأثرياء من أهل مصر كما شهدت وثائق التاريخ منذ الدولة القديمة يتخذون المرضعات والحاضنات المربيات. بل لقد اتخذ أحد الأثرياء من الدولة الوسطى للثلاثة من بنيه ثلاثا من المرضعات متعاقبات، وكان للمراضع فى أسرة الرضيع منزلة تكاد ترتفع إلى منازل الأمهات الوالدات، ومن مراضع الملوك من بلغن المنزلة الرفيعة السامية فى القصر، فلقد تزوج تحتمس الثالث ابنة مرضعته فبلغت مصاف الملكات، وبلغ «آى» زوج مرضع نفرتيتى إلى أرفع المناصب فى الدولة ثم آل العرش إليه من بعد توت عنخ آمون. وكانت الأراضى والضياع توقف على المرضعة التى تعرف فى المصرية باسم منعة، وهو الاسم الذى انحدر إلينا علمًا على بعض البقاع مصحوفًا فى لفظ منية والمنيا، وكان

للمرضعة أو الحاضنة من غير شك نصيبها فى تهذيب الطفل وتربيته فيما عبر عنه القرآن الكريم بالنصح فى قوله تعالى :

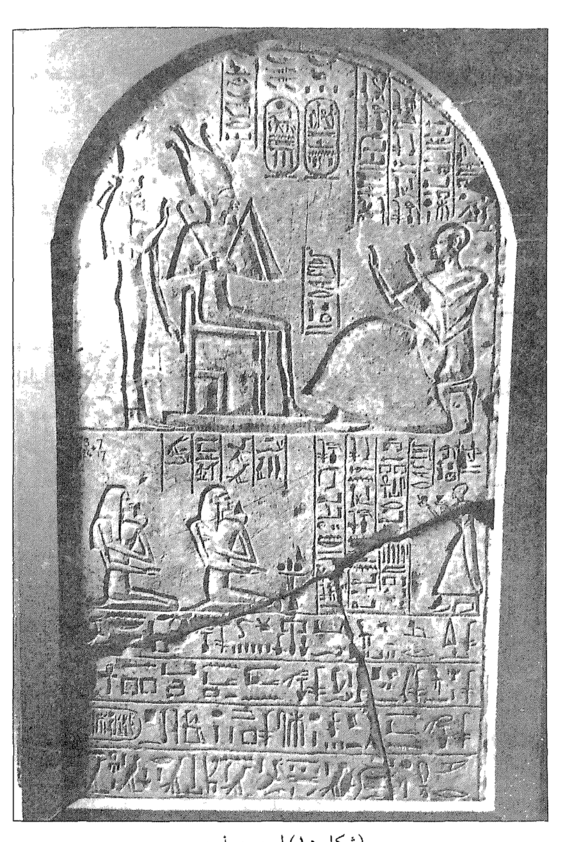
﴿ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ [القصص : ١٢]

ودخلت أم موسى الإسرائيلية - مع علم الكافة بأصلها - قصر فرعون مرضعة لولدهم الجديد، ولعل فى ذلك ما يدل على أن حال بنى إسرائيل فى مصر لم يكن شراً كله ولا نكراً كله، إن أبدوا استعداداً للعيش فى المجتمع والتعاون بين بنيه، وقد كانوا كما قال تعالى : ﴿طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ ، ولم يكونوا بالطائفة المنبوذة التى لا يتعامل معها الناس أو ينفر منها الملوك، فقد اصطنع مرنپتاح لنفسه من الساميين من لا شك بحكم اسمه وصبغته العبرية فى هويته العبرية، إذ أقبل «بن يذين» على مصر فى عهد رمسيس الثانى من چارباسان، فأقام فى بررعمسى ونسب إليها حيث شاء أن يندمج فى المجتمع المصرى، وينتحل الاسمين المصريين «رعمسيس م بررع» و«مرى يونو» وأن يعبد أرباب مصر ويقرب إلى أوسير وإيسة ويتقرب إلى مرنپتاح، فقربه إليه وجعله الحاجب الأول وحامل المروحة عن يمين الملك وساقياً وقيماً على دار قرابين فرعون مع وصفه بأنه طاهر اليدين بين يدى رب الأرضين[1] (شكل ١٠) وغير بعيد أن يكون رمسيس الثانى ومرنپتاح قد اتخذاه عينا على بنى جلدته وسيفا مسلطا عليهم فمحضهما الولاء ثمنا لمنزلته ومناصبه .

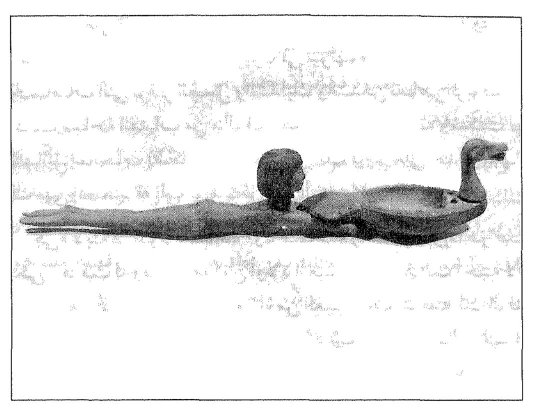
ومهما يكن من شىء فقد روت التوراة من أمر موسى والتقاطه ما يدل

---

(١) Mariette, Abydos pl. 50; ASA XL p.45; cf. Gandiner, The Wilborur, Papyrus II p.12; n.5



(شكل ١٠) لوح بن يذين



(شكل ١١) فتاة تسبح من وراء بطة

على مكان بنى إسرائيل عامة من المصريين، وتسامح المصريين معهم إلا فيما ابتدع فرعون فيهم من عذاب. «فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته». (خروج: ٥)

وأحرى أن يقال إنها نزلت إلى النهر لترتاض بالسباحة فى رعاية وصيفاتها على الضفة وحراستهن، فما كانت فى حاجة إلى الغسل فى النهر وفى بيتها ما اعتاد المصريون فى بيوتهم، والمترفون خاصة من الحمامات التى توفر الغسل والتدليك والتدهن بعاطر الزيوت[١]، وكانت سباحة الفتيات من مألوف المصريين فيما صورته وشكلت لهن التماثيل سابحات (شكل ١١) ولعل فى ذلك قرينة على حداثة سنها إذ ذاك فهى إذن مشوقة إلى الولد ككل فتاة.

جىء لابنة فرعون بالسفط «ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبى يبكى، فرقت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين، فقالت أخته لابنة فرعون هل أذهب وأدعو لك امرأة من العبرانيات لترضع لك الولد، فقالت لها ابنة فرعون اذهبى فذهبت ودعت أم الولد فقالت لها ابنة فرعون، اذهبى بهذا الولد وأرضعيه وأنا أعطيك أجرتك فأخذت المرأة الولد وأرضعته، ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابنا، ودعت اسمه موسى وقالت إنى انتشلته من الماء». (خروج ٢: ٦ ـ ١٠)

فإذا انتهت أشهر الرضاع وطور الطفولة، انتقل الصبى إلى طور التعليم والتثقيف، ولا شك أن موسى قد تلقى من العلم ما كان يتلقى

---

(١) Ch. Nobleceour, Tutankhamon p. 139

المصريون من أبناء الملوك والأشراف فى ذلك الأوان، فتعلم القراءة والكتابة والحساب، ونسخ الصحائف على البردى بالهيروغليفية والهيرطية، واجتهد فى مشقها وتحبيرها وتحسينها، وتعلم شيئًا من الفلك والجغرافيا وأطرافا من التاريخ، ثم قرأ من قصص المصريين وآدابهم وحكمتهم شيئًا كثيراً، فقرأ ونسخ تعاليم پتاح حتپ وكاجمنى وحرددف ونصائح خيتى إلى ابنه مريكارع، وحفظ من أناشيد المصريين فى الشمس والنيل ما قدح قريحته وأخصب خياله، وقرأ مناظرات الكتاب وما كانوا يديرون بينهم من جدل؛ فكان أن حصل من هذا وذاك ما مكن له مناهج من التفكير ومن تأويل الأحاديث.

والذى لا شك فيه أن موسى قد كان مصريا بفكره ولسانه إن لم يكن كذلك بقلبه وولائه، ولا شك أن أمه - وهو فى حجرها ترضعه وتربيه - قد علمته شيئًا من العبرانية أو الآرامية فنطق بها، وتكلم بعباراتها ثم ازداد علما بها حين بلغ أشده واختلط ببنى جلدته من العبريين فصار لهم عونًا وملاذاً بحكم عقله وتربيته أولاً، وبحكم صلته بالقصر واتصاله بعلية المصريين ثانيًا، فكان يتشيع للعبريين ويحميهم مما عسى أن ينزل بهم من الشر والمكروه، وكانوا قد بدءوا يتغلغلون فى المجتمع المصرى ويتسربون إلى مناصبه كما قدمنا أواخر حكم رمسيس الثانى وأوائل حكم مرنپتاح.

﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ [**الجمعة** : ٤]

طائفة ذليلة مستضعفة كانت فى حاجة إلى زعيم.

وأمةٌ كبرى تحتوى تلك الطائفة فهى لا تمكنها من ذلك الزعيم.

ولا تفتح أبواب المناصب لعامة الشعب ولا تتاح منزلة لغير المتعلمين.

فلما تأذن رب العزة لموسى أتاح له العلم فى قصر فرعون من دون العالمين «فتهذب موسى بكل حكمة المصريين وكان مقتدرا فى الأقوال والأعمال» (أعمال الرسل ٧ : ٢٢)

ومهما يكن من شيء فلسنا نعرف من حياة موسى منذ مولده حتى صدر شبابه شيئًا، وأكبر الظن أنه تولى منصبًا، وتبوأ مكانة فى دولة فرعون حيث بدأ كما بدأ أترابه يومئذ كاتبًا، وكانت وظيفة الكاتب فى مصر مدخلا لأرفع المناصب وأسمى الدرجات، وكان المصريون يحضون أبناءهم على ولاية تلك الوظيفة لما ينتظرهم فيها من الترقى، ولين الحياة والسلطان[١]، وغير بعيد أن يكون التحق بعد ذلك مع من التحق من أمراء البيت المالك بالجيش. وكان مرنپتاح خاله بالتبنى وزوج الأميرة التى تبنته - وهو بعد أمير - يتولى لأبيه رمسيس الثانى إمرة الجيش كما كان كاتب الملك ورئيس الخزانة[٢].

ولقد حدثنا مؤرخ اليهود يوسف، على غير سند من التاريخ ولا تأييد من التوراة، أن موسى تولى قيادة الجيش، ولعله أخذ بذلك عن رواية بالسماع. ولكنه زاد فى قصة لا يخفى زيفها، أنه إنما تولى تلك القيادة بعد رجاء من الملك والأميرة التى تبنته[٣]، وأن ذلك إنما وقع فى أعقاب

---

(١) Gardiner, Late Egyption Miscellanies p. 84f., Caminos, Late Egyptian Miscellanies p. 317f.

(٢) L. Christophe, La Carrière du Prince Merenptah et Les Trois Regence Ramessides ASA LI (1951) pp. 335 ff.

(٣) Josephus, Book II chapter XI; see W. Whiston, The Life and Works of Josephus (Philadelphia 1957), p. 77 ff.

غارة شنها أهل النوبة العليا[1] على مصر، فأنزلوا بالمصريين هزيمة نكراء فولوا منهم الأدبار حيث تعقبهم النوبيون إلى منف، بل إلى ساحل البحر. هنالك استلهم المصريون الوحى فأوحى إليهم باستخدام موسى الذى قبل القيادة سعيداً منشرح الصدر، كما سعد بذلك كهان المصريين والإسرائيليون أجمعين. فأما كهان المصريين فقد ظنوا أنهم بذلك إنما يتخلصون من موسى ومن المهاجمين فى وقت واحد، وأما الإسرائيليون فقد ظنوا أنهم يهربون من المصريين بقيادته. ومضى يوسف المؤرخ فروى أن موسى تمكن من صد العدو بشجاعته وحسن تدبيره، إذ تجنب النيل وسار إليهم برا عبر أرض غاصة بالثعابين الطيارة، فعبرها بفضل ما حمل من أعداد من طائر الإيبس وهو أعدى أعداء الثعابين، ثم أهوى موسى على النوبيين، فقضى عليهم وعلى آمالهم فى مصر، وهناك رأته بنت الملك النوبى فأحبته، وأرسلت تعرض عليه الزواج بها فقبل على أن تسلمه المدينة ففعلت وفعل.

على أن ما نزل ببنى إسرائيل من العذاب وقتل البنين قد خفت حدته وانحسرت سورته أواخر حكم رمسيس وحكم مرنپتاح كله فيما يبدو، وآية ذلك ما روى من اقتتال إسرائيلى مع مصرى من بعد مصرى، وما بدا من إلحاحه فى الشجار واللجاجة فيه والتهالك عليه، وظاهر أن بنى إسرائيل يومئذ قد استمرءوا شيئًا من راحة وأمن، وأحسوا بشىء من قوة وعزم فتحولوا إلى مزيد من الإقلاق والشغب، ومزيد من الإغراق فى

---

(١) يخطىء الكتاب المحدثون إذ يخلطون بين اسم أثيوبيا بمفهومها الحديث وأثيوبيا كما وردت فى مصنفات الأقدمين من كتاب الإغريق فيترجمونها كذلك بالحبشة. . إذ لا ينصرف اسم اثيوبيا القديم إلا إلى النوبة العليا وكانت تعرف عند المصريين الأقدمين باسم كاش.

الطائفية والانقسام. وأكبر الظن أنهم ارتدوا إلى ديدنهم من محاولة اقتناص الفرص والاستفادة من مصاعب مصر الخارجية، والتحرر ما استطاعوا مما فرض عليهم من ربقة مصر التى اشتدت منذ رمسيس، وكانت السنون الأولى من حكم مرنپتاح غاصة بالحرب والكفاح كما قدمنا.

أما موسى فقد بلغ من تشيعه لبنى جنسه، وانتصاره لهم أن تورط فى واقعة، انتهت به إلى الخروج من مصر وفراره منها، وذلك فيما ذكره الله تعالى فى قوله من سورة القصص:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ.. ﴾

[القصص: ١٤ – ١٨]

ومع ذلك فقد بلغت حمية موسى نحو بنى جنسه وغضبه لهم ـ مع اعترافه بغواية هذا الإسرائيلى ـ أن طغى غضبه على حلمه وامتلاك نفسه نحو من كان لقومه عدواً، فهو له إذن عدو.

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص: ١٩]

وقع ذلك وقد بلغ موسى أشده واستوى ببلوغه الأربعين، والله تعالى يقدر للرجل أن يستوى عقلاً وحكمًا ببلوغ الأربعين، إذ يبلغ أشده باكتمال قوة الجسم فى نحو الثلاثين، وقد ذكر عن يوسف فى سورة يوسف (آية ٢٢) أنه بلغ أشده حين راودته امرأة العزيز عن نفسه وزاد عنه موسى إذ بلغ أشده واستوى، فكأن الاستواء فى تلك الآية قد وقع موقع بلوغ الأربعين فى قوله تعالى من سورة الأحقاف:

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥]

وعن موسى صرح كذلك سفر أعمال الرسل (٧ : ٢٣):

«ولما كملت له مدة أربعين سنة خطر بباله أن يفتقد إخوته بنى إسرائيل».

فإذا صح ما قدرنا آنفا من تاريخ مقارب لمولد موسى بعد العام العشرين من حكم رمسيس، فإنه يكون عند وفاة رمسيس فى العالم السابع والستين من حكمه قد جاوز الأربعين؛ ويكون مرنپتاح الذى

شارك أباه الحكم وقد بلغ من الكبر عتيًا ـ قد تولى السلطة الفاعلة فى ذلك الأوان. ﴿وَدَخَلَ المدينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾.

وما ندرى ـ عن يقين ـ أين كان موسى خارج المدينة إذ دخلها على حين غفلة من أهلها، ولا ما عسى أن تكون تلك الغفلة التى أخذت أهل العاصمة إذ ذاك.

وقد ذكر المفسرون على غير بينة ولا يقين أن موسى ـ كما يقول النسفى ـ «دخل ما بين العشاءين أو وقت القائلة يعنى انتصاف النهار». وقال «وقيل لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق فأخافوه فلا يدخل المدينة إلا على تغفل»، كما نفى منها، ومع ذلك فظاهر من قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى المدينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾. أنه أنفق الليل فيها حيث كان يقيم فلم يدخلها إذن، مع علم الناس بفعلته على تغفل، وما كان موسى بالذى يخشى الناس بحكم موقعه من فرعون وآله، وما هو سافر معروف عنه من حمية وشجاعة لا يتصف بهما من ضربت عليه ذلة ومسكنه تحولان بينه وبين دخول المدينة، وكيف يخشى هو دخولها وقد بلغ من الجرأة فيها من لم يرتفع إلى منزلته من غمار شيعته الأذلة أن يشتجر، بل يكرر الشجار مع مصريين من أهلها.

ومهما يكن من شىء فقد نجد فيما يتيح علم الآثار المصرية، وما وقعت عليه الأحافير فى نصف القرن الأخير من كشوف ودلائل عند عاصمة الأسرة التاسعة عشرة شرقى الدلتا، ما عسى أن يوحى إلينا أين كان موسى فى غير مسكنه خارج المدينة قبل وقعة الاقتتال والقتل حين دخلها، إذ تبين أن الفراعين هناك منذ أيام سيتى الأول قد كانوا ـ شأن كثير من الملوك والرؤساء فى كل عصر ومصر ـ ينشئون القصور الصيفية

فى ضواحى المدن وخارجها، حيث ينفقون من أيامهم أكثر مما كانوا ينفقون منها فى العاصمة[1]، وكان لرمسيس الثانى خاصة فى قنتير قصر عثر فى آثاره على بعض زخرفه من تماثيل الحيوان وشذور مما كان يكسوه، أرضا وحوائط ودرجا وأبوابا ونوافذ وشرفات، من قيشانى تحليه التصاوير الملونة للأسرى من أجناس الشعوب ومناظر الطبيعة من غدران وسمك وطير ونبات[2]، وغير بعيد أن يكون موسى قد ألمّ بقصر فرعون فى ضاحية قنتير هذه لبعض شأنه أو شأن شيعته، ولعله كان يتنطس أخبار فرعون فى أيامه الأخيرة إذ جاوز من عمره الثمانين، بل لعله عرف فى تلك الزورة بعينها بموته أو وشك انطواء عهده على أقل تقدير، كذلك فما أظن - كما قال النسفى - أن تخلو العاصمة من الناس وقت القائلة، ولا ما بين العشاءين وقد «وجد فيها رجلين يقتتلان» على أمر لهما، وأكبر الظن أن المقصود بأهل المدينة كبارها، وأصحاب الحل والعقد والسلطان فيها، أولئك يستطيعون حساب موسى، والقبض عليه وإنزال العقاب - إن شاءوا - به بعد محاكمته، وقد بدا أن مقتل المصرى قد ذاع فى الناس صباح اليوم التالى، وأن موسى إنما أصبح خائفًا يترقب فعل الشرطة والحاكمين عن أمر مرنپتاح.

وما ندرى لعل الغفلة التى جرأت الإسرائيلى، وأخذت الناس فصرفتهم حينا عن فعلة موسى، إنما كان ما شغلهم من وفاة رمسيس من حداد عليه، ومسير خبره فى الناس، وما أخذوا أنفسهم به من إعداده للدفن بالتحنيط والدعاء، وما يعدون لجنازته من مناسك الحج إلى المدائن

---

(١) Kees, Ancient Egypt (London 1961) p. 201

(٢) Ibid; Heyes, W.C., The Scepter of Egypt vol. II (New York 1968) p. 334 ff.

المقدسة قبل السفر بها إلى مدفنه بوادى الملوك فى البر الغربى من الأقصر فى أقصى الصعيد، وكان ذلك يشغل الكثرة من الناس، ويستغرقهم أيامًا تبلغ السبعين.

ومهما يكن من شيء فقد انتصر موسى للإسرائيلى الذى ألفاه يقاتل مصريا روى النسفى أن اسمه فاتون، ولا أدرى كيف استقام لمفسرى الإسلام هذا الاسم الذى تدل صبغته المصرية الصحيحة على سند فى الرواية والتواتر موصول، ذلك أنه اسم مصرى خالص، وهو مؤلف من اسم الشمس آتون مع فاء التعريف. ولعله مجزوء با أتُن م حب[1]، ولن يغيب عن القارئ ما بينه وبين اسم أخناتون من شبه وثيق.

على أن موسى بانتصاره للإسرائيلى قد تورط فى قتل المصرى عن غير عمد، ولكنه مع ذلك عاد فأوشك تارة أخرى أن يتورط فى خلاف جديد بين مصرى آخر وبين ذلك الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس ويستصرخه اليوم ولم يجد موسى بدا من وصفه مؤكدا. بأنه ﴿غَوِيٌّ مُبِينٌ﴾.

هنالك شاع الخبر، وأنبئت السلطات المصرية التى ارتاعت كما ارتاع الناس لما وقع من مقتل مصرى والشروع فى قتل آخر، إثر شجار يلوح تجدده بين بنى إسرائيل والمصريين، ولما تبين من أن موسى بما له من قدر ومنزلة هو قاتل الأول والشارع فى قتل الثانى، وربما ارتاعت السلطات من ثم لما أظهر من عصبية توشك أن تثير الفتنة وتنذر بشر مستطير، فكان أن قر الرأى على محاكمته بما ارتكب، والقصاص منه بما جنت يداه، وإن كان موسى قد رأى فى ذلك ظلما صارخًا وافتئاتًا عنيفًا أن يطلب بقتل خطأ لم يتعمده ولم يرغب فيه أو أن يتهم بعصبية وعنصرية أو طائفية لم

(١) Ranke, Personenennamen I S. 102.

يقصد إلى إثارتها؛ ولكن الذى لا شك فيه أن قتل، وأن الظواهر وما وقع منه فى اليوم التالى لا تميل إلى جانبه، ولا تبرئه أو تشفع له فى أى محاكمة يقدم إليها أو تحقيق يتعرض له، ولن يجد فى مصر يومئذ من يحميه أو يحول بينه وبين القصاص، ومع ذلك فقد كان المصريون أحرص الناس على عدالة وأشدهم استمساكا بحق، وحسبهم فى ذلك أنهم جعلوا للعدالة ربة سميت ماعت، وأنهم كانوا يؤمنون بالمحاكمة إيمانا رسخ فى مجتمعهم وعقيدتهم حتى آمنوا بالحساب والمحاكمة فى الآخرة بين يدى رب الموتى أو سير على رأس قضاة عدول يبلغون اثنين وأربعين قاضيًا، لا يقضون بمصير المرء حتى يتاح له الخطاب والدفاع عن نفسه وإبراؤها من الإثم، ثم يوزن قلبه على يد رب الحكمة لاختبار صدق قوله، فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية، إذ يصدرون حكمهم بأنه «ماع خرو» أى صادق الصوت، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية، وكان الملوك يحبون العدل ويحبون الانتساب إليه، إذ تسمى رمسيس بلقب «مرى ماعت» أى حبيب الحق، كما تسمى مرنپتاح بلقب «حتب حرماعت»، أى «الراضى بالحق».

وكان المصريون قد أسسوا المحاكم، وعينوا منذ مطالع تاريخهم فى الدولة القديمة القضاة الذين كانوا يتخذون من رمز العدل حلية يلبسونها فى أعناقهم، ويحفظون الأحكام مكتوبة فى الأضابير، ولم تكن الجريمة مهما بلغت وفى من وقعت - ولو على الملك - ليصدر فيها قرار أو حكم بغير تحقيق دقيق، وحكم جهد الطاقة سليم ومن أنباء المحاكمات أن الريب والشكوك قد كانت حومت حول الملكة إيمتس، زوجة عاهل الأسرة السادسة پيپى الأول، فلم يشأ أخذها بما اتهمت به بغير تحقيق عادل يجرى طى الكتمان، فعهد بذلك إلى وزيره أونى الذى صدع بما

أمر ، وقام به خير قيام ، وذلك مع حفاظه على السرية ، إذ روى هو لنا أنباء التحقيق دون رواية الموضوع(١) ، كما وصلت إلينا محاكمة المتآمرين على حياة رمسيس الثالث عاهل الأسرة العشرين ، فإذا هى مثال من أمثلة الحياد الحق والعدل الدقيق ، إذ أصدر الملك وهو جريح على فراش الموت مرسوما بتشكيل المحكمة ، وأوصى أعضاءها بالعناية حذرا أن ينزل بغير مذنب قصاص جائر(٢) وكذلك جرت المحاكمات التى مثل بين يديها لصوص القبور من عهد رمسيس التاسع(٣) ، فكانت - رغم فساد العصر يومئذ وفساد الضمائر والذمم - نموذجا من حيث الدقة فى استجواب اللصوص ، وتمثيل الجريمة فى مواقعها وسماع الشهود .

ومهما يكن من شىء فقد تحقق موسى أنه مطلوب بدم القتيل ، وأدرك أن لا مظنة فى القصاص ، حيث أقبل عليه مصداق ذلك على لسان بعض المخلصين من المتصلين بولى الأمر :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٠]

ولم يكن لموسى من مناص إلا أن يهرب من مصر حيث لا تناله هراوات الشرطة تحت قائدهم امنمأونة(٤) .

---

(١) Urk I 100; BAR I § 310.

(٢) BAR IV § 423-424.

(٣) E. Peet, The great Tomb Robberies of the Twentieth Egyptian Dynasty; Capart, Gardiner & Van de valle, New Light on the Remesside Tomb Robberies JEA XXII pp. 168 - 193 pls. X-XVI.

(٤) Gardiner LEM. P. 136; ibidem, Onomastica I 86.

ولعل الملأ من دهاقين القصر قد استعجلوا التخلص منه، وما يثير بزعامته من متاعب فى بنى إسرائيل فتآمروا على قتله، وأكبر الظن أن الرجل قد جاء ناصحًا كذلك بما يسلك من طريق ويقصد من أرض وما يتحرى من موعد ويركب من قافلة، وقد كانت المشورة بالشخوص إلى مدين بعيدًا فى البادية، حيث لا تناله العيون ولا تصل إليه أيدى الطالبين، وقد كانت القوافل إلى مدين - فيما يبدو - تتخذ طريقًا لا تختلف أو لا تكاد تختلف فى جزءمنها على الأقل عن طريق بعثات التعدين المصرية فى سيناء، إذ توغل بعد عبورها البرزخ إلى الجنوب، فتمر بسهل المرخا، ومنه إلى سيح بعبع، أو سيح سدر[1]، ولعل الرجل قد أقبل يسعى ناصحًا بافتناص فرصة مواتية وميقات طيب أن يندس متنكرًا فى إحدى قوافل التجارة أو التعدين التى كانت تستعد يومئذ للرحيل إلى سيناء، وكانت بعثات التعدين بما تضم من جماهير غفيرة من العمال والجنود لا تعمل هناك - لقسوة الصيف - إلا فى الشتاء[2]، فإذا كان مقتل المصرى بيد موسى وما اقتضاه من فرار قد وقع - فيما افترضنا - مع موت رمسيس الثانى، فقد وقع إذن فى مطالع الشتاء إذ تستعد قوافل التعدين خاصة، والقوافل عامة للرحيل إلى سيناء وعبر سيناء. وذلك أن آخر تاريخ مثبت فى حياة رمسيس الثانى، إنما كان فى الخامس من شهر هاتور من عام حكمه السادس والستين[3]، ولعله مات بعد ذلك بشهر أو شهرين من مطلع عام حكمه السابع والستين، أى فى كيهك أو طوبة ويقابلان ديسمبر ويناير من شهور تقويمنا الإفرنجى.

---

(١) Cerny, The Inscriptions of Sinai IIpp 11 ff.

(٢) BAR I § 735

(٣) Gauthier, Livre des Rois III p 48.

الفــــرار:

لم يكن لموسى من مناص إلا أن يهــرب من مــصــر حــيث لا تناله هراوات الشــرطة من رجــال المازوى الأشــداء، أو تصل إليــه أيدى السلطان، وكانت فى مصر شرطة منظمة يجند رجالها من قبائل الماچوى (أو المازوى) فى أقصى جنوب مصر، ويستطيعون الإتيان به.

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾
[القصص: ٢١، ٢٢]

خرج موسى من مصر هاربًا إلى ما نصح بقصده من البادية فى أقصى الشرق من مخرج مصر والمدخل الطبيعى إليها من سيناء، وكان عليه أن يختار ما يسلك إلى مدين من سبيل. كان طريق حور الملكى ينبعث من ثارو - بموضع القنطرة من برزخ السويس - شمالاً إلى غزة جنوبى فلسطين مارًا بالعريش، حيث احتل مكانة خطيرة فى الحركات العسكرية التى وجهها الفراعين، أو تعرضت لها مصر من قبل أعدائها، وكانت له مكانته فيما كان جاريا من تجارة وسفارة بينها وبين الممالك من جيرانها وما تحت سلطانها من أقاليم سوريا وفلسطين والنهرين، ولذلك فقد اشتد حرص الفراعين على تأمين تلك التخوم التى كانت عرضة منذ القدم، لغارات البدو على شرق الدلتا، وكانت تدابير الدفاع قد اقتضت فى الأسرة الخامسة منصبًا خاصًا، يتولى الإشراف على الأسوار والصحارى والقلاع الملكية فى منطقة عين شمس، وذلك لتأمين الطرق وحماية القلة القليلة من الآبار التى يعتمد عليها فى سفرهم المسافرون،

ولقد تحدثت قصة سنوهة عما كان عليه أن يتجنب فى فراره من مواقع المراقبة والدفاع التى كانت تغطى التخوم الشرقية بأسرها، حيث قامت كذلك أسوار قوية باسم أسوار الحاكم فى موضع الإسماعيلية الآن، وقلعة ثوكوت إلى القرب منها فى موقع تل المسخوطة، وذلك فضلاً عن أبراج المراقبة عند الآبار فى الجنوب، وكان على المسافر أن يخضع للتفتيش عند مخافر الحدود، كما كان على كل داخل إلى مصر أن ينتظر حتى يأتيه الإذن بالدخول، ولذلك فقد اضطر سنوهة فى فراره ـ وكانت فلسطين قصده ـ أن يوغل حيث تقل المخافر إلى جنوبى بحيرة التمساح عند البحيرات المرة، حتى وجد سبيل الإفلات، وكذلك فعل موسى من غير شك حين هرب من مصر إلى مدين، وكما فعل من بعده وقبيل خروجه ببنى إسرائيل عبدان آبقان، أرسل فى أثرهما ضابط حفظ لنا تقريره عن تعقبهما. فقد كتب «كاكم ور» قائد قوات ثوكوت إلى زميليه إينى وباكن پتاح، يحيطهما خبراً بذلك، ويروى لهما ما تنطس من أخبار الآبقين، إذ ذكر أنهما مرا بمخفر ثوكوت قبيل وصوله إليه بساعات وأنهما سبقاه، فاجتازا الحصون الشمالية من مجدل أو قلعة سيتى مرنپتاح، قبل أن يدركهما، ثم يقول الضابط صاحب الرسالة «فإذا بلغكما كتابى هذا فاكتبا إلىّ بكل ما وقع لهما وعمن استدل على أثرهما، والمخفر الذى استدل عليه، والرجال الذين جدوا فى أعقابهما والعدد الذى أرسلتماه فى طلبهما»[1].

كان على موسى أن يسلك إلى مدين طريقا تواريه وتقيه، ولم يكن

---

(١) Gardiner, Late Egyptian Miscellanies (Bruxelles 1932) p. 66 - 67; Pritchard op. cit, p. 259.

طريق حور وسط السهل المنبطح، والحركة الدائبة والقوافل المتصلة والرقابة الحادة، بسبيل إلى مهرب ولا إباق، ولذلك فقد يمم إلى الجنوب من سيناء حيث النطاق الوعر من شواهق جبالها، وتعرج وديانها، وتشابك شعابها.

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٣]

وقد أقبل على بئر مدين فإذا الناس عليه مزدحمون بأغنامهم يسقون، ونظر موسى فإذا فتاتان قد تنحتا عن الناس رقة وضعفا أن تجاهدا فى الزحام، وقد طفقتا تذودان مالهما من أغنام أن تختلط بأغنام المتدافعين المتزاحمين، وتروق الفتاتان موسى وتأخذه الرحمة بهما، بل لعله أعجب بإحداهما حيث تقدم إليها متحدثًا مستفسرًا مستأنسًا، فإذا هما فتاتان لشيخ كبير لا ولد له، ولا هو يستطيع الخروج لسنه، أو استئجار رجل يرعى غنمه لعسره، فهما - من غير شك - إنما خرجتا إذن تحت وطأة الحاجة والعوز والاضطرار، لذلك فقد أخذته الشهامة ودفعته الرحمة إلى بذل العون لهما.

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤]

وتعود الفتاتان فتحدثان أباهما بما وقع لهما منذ قليل، وقد عادتا هذه المرة مسرعتين، وظاهر أن إحداهما، وقد كانت ألحن حجة وأبلغ مقالة، قد أفاضت فى وصف ذلك الغريب الساغب الذى دفعته النخوة وحرضته

الشهامة دون سائر الناس على السقيا لهما، حتى أغرت أباها بالإرسال إليه داعيًا إلى طعام وداعيًا إلى قسط من راحة بعد وعثاء السفر وسغبه، وأكبر الظن أن الأب المأخوذ بمقالتها لم يجد إلا أن يرسلها فى طلبه، وهى أكثرهما حماسة وحرصًا على دعوته.

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٢٥]

الحمد لله الذى عجل الاستجابة، فقد أتاه ما هو إليه من خير فقير وجنى جزاء ما قدمت يداه للفتاتين من معروف، ثم أتاه البشير مؤكدا أنه هنا فى مدين ناج من بطش فرعون وملئه، فلن تصل إليه أيديهم وأن النفوذ المصرى منحسر عن تلك البقاع.

وقد جلس موسى إلى مضيفه يتحدث إليه ويروى قصته، ولكن الفتاة أدركت أن الضيف بعد أن طعم وأنس إلى أبيها قد أوشك أن يختم زيارته، ويهم بالانصراف لشأنه، وقد وجدت فى نفسها ميلاً إلى بقائه بل استبقائه، فكان أن اهتدت إلى مسوغ عرضته على أبيها وتقدمت إليه فيه.

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦]

وأدرك الأب بثاقب فكره ما قد كان يدور فى خلد ابنته وما كان يثور فى نفسها من المشاعر والأحاسيس، وأنها مالت إلى ذلك الرجل العبرى المصرى الغريب الذى أقبل من مصر لاجئًا طريدًا شريدًا.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]

ولم يكن لموسى من بلد يعرفه ولا وطن يهفو إليه، ويتطلع إلى رؤيته بعد ذلك النفى الذى فرض أو قدر عليه سوى مسقط رأسه وموطن أهله فى مصر، ولعل الرجل قد رأى منه لهفة على وطنه وحنينًا إليه فلم يشأ إلا أن يرفق فى الطلب، ويرفق فى الإيحاء بالاستزادة. أما موسى فلم يكن لديه إلى غير القبول من سبيل، ولكنه لم يقطع على نفسه أطول الأجلين حين العهد، فأعطى الأمل تلطفًا عن الرفض وتحسبًا لخبايا الأيام، وخص نفسه بالخيار أو ترك لها على هواها الخيار.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨]

وأقام موسى فى مدين مع زوجه وحميه عاما بعد عام، وكأنى به وقد كان يستعجل الأيام كى يعود إلى ذلك البلد الذى ولد فيه ونشأ فى ربوعه، وتنسم هواءه وسعد به، حتى أتمهن ثمانى حجج، ومع ذلك فقد آثر التريث حتى تأتيه الأنباء مطمئنة بأحوال مصر على عهد مرنپتاح وأخبار مرنبتاح وكان فيما يبدو فى أواخر أيامه، فما زالت جريمة موسى وخوفه من فرعون وملئه يراودان فؤاده، وإن ظل الناس فى مصر - لضعف مرنپتاح وشيخوخته - يتوقعون منذ عامه الثامن نهايته حتى قضى

نحبه بانقضاء فصل الفيضان بشهوره الأربعة من عامه العاشر، وحلول فصل البذر مع مطلع الشتاء[1]:

«وحدث فى تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات». [خروج ٢ : ٢٩]

مات مرنپتاح فى مصر، وانبعث الأمل بالعودة إليها فى صدره، وخلفه على العرش ابنه الشاب سيتى الثانى مرنپتاح، ولعل فيه أملاً يطمع فيه، وسماحة ترتجى وقد راود بنى إسرائيل الأمل فيه كذلك إذ تقول التوراة:

«وتنهد بنو إسرائيل من العبودية». [خروج ٢ : ٢٩]

إنه المعاد إذن إلى مصر، وسيكون فيه الميعاد مع الله.

خرج موسى معاده إلى مصر، فلحق مع زوجه - من غير شك - بقافلة من تلك القوافل، التى كانت لا تنفك تذرع البوادى فيما بين مصر وجيرانها من بلاد المشرق بائعة ومبتاعة من عروض التجارة ما تشاء، فلما جن عليهم الليل فى سيناء، وعرّس القوم يطلبون الراحة وقسطا من نوم يتأهبون بعده إذا أصبحوا بالميرة والسقيا لمرحلتهم التالية، إذا بموسى يلمح عند الأفق نارا شدت أجفانه إليها وجذبت نفسه نحوها واستطلاعه لشأنها، وكان موسى من غير شك، على شوقه لقومه وحنينه إلى مصر يستشعر من العودة، ويتحسب من أهلها ومن فرعونها الجديد. وقد كان من غير شك فى حاجة إلى جلية ما جَدّ من خبرها ودقيق أحوالها بعد

---

(١) Gautheir, Livre des Rois III p. 421; Caminos. Late Egyptian Miscellanies p. 303; Gardiner, Egypt of the pharaohs (1961) p. 276.

تلك العشر الطوال التى هجرها فيها ونأى على مداها عنها، وعمن تعاقب من عواهلها عليها، وما لهم من بطانة وأنصار، وقد نظر فأطال النظر إلى تلك النار لا يكاد يقوى على كبح جماح نفسه عن إتيانها والإلمام بها، فما ينبغى أن يفجأ بأهل مصر بعد تلك السنين.

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

[القصص: ٢٩، ٣٠]

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ٩ - ١٦]

هناك فى ذلك الموقف المشهود الذى وقفه موسى فى تلك البقعة المباركة من سيناء عهد إليه ربه برسالته إلى فرعون وملئه:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا

وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ [طه : ١٧ - ٢٤]

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [القصص : ٣١، ٣٢]

ولقد أحس موسى حينئذ بثقل العبء الذى وقع على كاهله، وقد كان وهو عائد إلى وطنه يقدر الأمن بعد الخوف، والقرار بعد الفرار، وقد كان حريصًا على ألا يثير عليه السلطان وقد قتل نفسا ما زال يحمل ـ ولم ينس ـ وزرها فى ضميره.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [القصص : ٣٣]

ومع ذلك فما كان ليعود إلى مصر لو لم يكن به اطمئنان، أو بعض اطمئنان، إلى أنه لن يطلب بدم ذلك القتيل، إذا حسنت سيرته فيهم، واستأنف حياة جديدة خالصة من العداء والعدوان، وذلك فى عهد الملك الجديد الشاب سيتى مرنپتاح بن مرنپتاح بن رمسيس الثانى.

أترى إلى أن العقوبة، أو الدعوى الجنائية كما يقول أهل القانون قد

سقطت بالتقادم أو مضى المدة، وإن ظلت ماثلة فى الأذهان؟! فقد ذكره فرعون بذلك حين لقيه فمن عليه أن ربّاه جده وأحسن مثواه أبوه.

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨ - ٢١]

فقد فر موسى لما خاف، ثم عاد حين أمن، فإن كان ذلك كذلك فمتى تسقط الدعوى الجنائية فى مصر فى ذلك الأوان البعيد؟! فلقد خرج موسى فى أعقاب جريمته فرارًا من العقاب إلى مدين، وهناك استقبله والد الفتاتين فعرض عليه إحدى ابنتيه على أن يأجره أعواما كان حريصا على استطالتها ما استطاع، ولكنه إنما عرض عليه الأجل الذى لامراء يقبل موسى قضاءه لاجئًا بعيدًا عن مصر، وهى السنون الثمانى مستوهبا منه - إن شاء - أن يتمها من عنده عشرا، وفى سفر التكوين من التوراة (٢٩ : ١٨) أن يعقوب تقدم إلى خاله لابان خاطبا ابنته راحيل زوجا، فقال: «أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى»، وقد كان لرقم السبعة فيما يبدو منزلة خاصة فى عادات المشرق وتقاليده منذ القدم، ولعله الأجل المعروف فى كنعان أجرا أو مهرا على من يتقدم لا يتقدم إلا به خاطبًا، ولكن صاحب موسى وحماه - فيما بعد - إنما عرض ثمانيا ولم يعرض سبعا، كأنما تقدم - مع طمعه فى عشر - بما لابد أن يقضيه موسى بعيدًا عن مصر، فيقبله اضطرارا حتى تسقط العقوبة، وحتى يستطيع العودة إلى بلده العزيز الذى لم يعرف بلدا سواه.

ثم كان ذلك الموقف المشهود، حيث نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة، وحيث أدرك موسى أنه بذلك مقبل على جليل من الأمر خطير:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء: ١٢ - ١٤]

وقد شرح ذلك مبينا شيئا من قلة الثقة بالنفس، والشك فى احترام فرعون وملئه تقاليد بلدهم وأعرافها:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص: ٣٣، ٣٤]

ثم توجه إلى ربه بالدعاء:

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٢٥ - ٣٦]

وصدع موسى بما أمر، وانطلق إلى فرعون يتوكأ على آية ربه الكبرى.

عصا موسى:

وقد بدا لبعض المستطلعين التساؤل فى عصا موسى ما نوعها وخشبها؟ فقيل: إنها كانت من العبال، وهو كما فى المعجمات العربية «الجبلى من الورد، وهو يغلظ ويعظم حتى تقطع منه العصى، حكاه أبو حنيفة قال: ويزعمون أن عصا موسى عليه السلام كانت منه».

ومع ذلك فما كنا لنخوض فى مثل تلك الأخبار لولا ذلك الخبر الوارد وما يفرض من وقفة ويثير من تساؤل فى تعيين العبال دون سواه، ثم ما يوحى به ذلك من دلائل على أصداء تواتر تاريخى انحدر عن أعماق القرون، فقد كانت العصىّ والصوالجة من علائم الشرف وإماراته عند علية القوم من أهل مصر أيام الفراعين، وكانت من أنواع وأشكال وأسماء شتى، وكان منها ما يسمى عبا[1] (أو عباء)، ولا أكاد أشك فى أن بعض تلك الأحاديث قد تواترت عن مصر حتى أدركت مفسرى الإسلام وأدركها مفسرو الإسلام فكان أن استندوا - فيما عسى أن ألقى إليهم من خبر موسى، واتخاذه من الصوالجة أو العصى «عبا» - إلى أنها - بحكم الجناس وتداعى المعانى فى الأذهان - من الورد الجبلى المعروف بالعَبَال.



وبعد فلعلنا بدراستنا للحياة المصرية والأدب المصرى أن ندرك الحكمة من نزول الآية والمعجزة بالصورة، التى شاءالله أن تنزل بها. فما كانت

(١) Wörterbuch der Ägyptischen Sprache I 176; A. Hassan Stöcke und Stäbe im Pharaonischen Ägypten bis zum Ende des Neuen Reiches (München Berlin 1976) passim.

لتنزل إلا فى أمر من واقع حياة الناس وما يدور بأذهانهم فتكون محققة فى أعينهم - على غير قاعدة ولا قياس - لخارق من الأعمال طالما فكروا فيه، وسمروا به، وضربوا به فى أغوار الوهم وتخيلوه، ولعلنا كذلك ندرك نحيزة المصريين وسبقهم إلى الإيمان بكل من يبعث فى الناس من الأنبياء والمرسلين.

وقد ورد لنا عن الحياة المصرية القديمة من أحاديث السحر والسحارين، وما كان الناس يخرجون به إلى عالم الغيب من عالم الشهادة، ومن دنيا الواقع إلى آفاق الخيال، وكان المصريون - فيما تشهد به تلك الأقاصيص - يحبون أحاديث السحر وخوارق الأعمال. وفيما نسبوه إلى خوفو - فى بردية وستكار[1] - من حبه السحر وإقباله عليه، وما يصور لنا كذلك ما تعلقت به أوهام الناس فى العصور القديمة، من خيالات يردونها إلى السحر ويستعينونه عليها.

وقد كنا قدمنا ما روى من أن خوفو، جلس إلى بنيه يتحدثون إليه ويسمرون معه، حيث طفق كل و احد يروى قصة من غرائب ما روى عن أسلافه من الملوك والكهان، وهو يستمع إليهم قرير العين منشرح الصدر. إذ وقف خعفرع فحدثه عن كاهن يدعى أوبا أونر بلغه أن امرأته تعلقت بفتى فى المدينة كان يقبل فينفق معها سحابة النهار فى جوسق منعزل فى الحديقة عند بحيرة الدار، فإذا قضى منها وطرا نزل إلى البحيرة يغتسل؛ فعمد الكاهن فخلق من الشمع كهيئة التمساح، ثم ألقاه فى البحيرة بعد أن قرأ عليه من عزائم السحر ما حوله إلى تمساح مفترس عظيم قضى على الفتى حين نزل إليها، ثم دعا مليكه ليشهد ذلك فما

(١) Lefebvre, op. cit. p. 70-90

رأى الملك التمساح حتى ارتاع وفزع لمرآه، ولكن الكاهن ما كاد ينحنى ليلتقطه حتى عاد سيرته الأولى دمية من الشمع. ثم وقف باوفرع، فروى عن سنفرو أن كاهنه چاچام عنخ أشار عليه فيما يحس به من كآبة وضيق لم يجد إلى التخلص منهما من سبيل، بالنزول إلى بحيرة القصر مع عشرين فتاة من الغيد الحسان من فتيات قصره يجدفن ويغنين، وقد فعل الملك فتسربت إليه البهجة وسرى إلى نفسه السرور بما شهد من فتيات، ليس عليهن من اللباس إلا ثياب من شباك لا تستر شيئا، أو لا تكاد تستر شيئا، وبما سمع من غنائهن وهن يسرين به فى مياه البحيرة وسط الخمائل والأغصان، لولا ما رأى من توقفهن عن التجديف، لما شكت إحداهن من سقوط حلية لها فى الماء وإصرارها على حليتها لا ترضى عنها بديلاً ولا تقبل فيها عوضا وعد الملك به، هنالك دعا سنفرو كاهنه الذى قرأ من عزائم السحر ما انشقت به مياه البحيرة، حيث انطوى نصف على نصف حتى ظهر القاع ورأى الحلية فالتقطها وردها إلى صاحبتها.

فلما كان دور چدفرع إذا به يحدث جلالته عن ساحر يحيا فى عهده يقال له: چدى، بلغت به القدرة أن يلحم الرأس المقطوع ويذلل الأسد لإرادته، وقد دعى الساحر بين يدى خوفو، حيث عرض سحره عليه - معتذرا عن إيقاعه بإنسان - فأوقعه بأوزة، ثم ثور فصل رأس كل منهما، ثم مازال يقرأ من عزائمه والرأس يقترب من الجسد حتى التحما وعادت الحياة إلى كل منهما.

ولا شك أن ما استعرضنا من تلك الخوارق التى سمر بها المصريون إنما تذكرنا بما نزل على النبيين من معجزات، فدمية التمساح التى استحالت

إلى تمساح عظيم أرهب الملك، فلما التقطه أوبا أونر عاد سيرته الأولى، إنما تشبه عصا موسى:

﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ ﴾ [طه: ٢٠، ٢١]

وتشبه كذلك ما قيل على لسان المسيح:

﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٩]

ثم نجد في القصة الثانية شبها بما كان عند خروج بنى إسرائيل:

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣]

ولا شك تذكرنا قدرة چدى على وصل المفصول من رأس الحيوان بقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

صدق الله العظيم، وجلت حكمته فيما يختار لأنبيائه من القول والفعل إنه على كل شيء قدير.

لقاء فرعون:

وقد عاد موسى إلى مصر، فلم يلق من أهلها إلا خيرًا، ووجد - رغم فساد العهد يومئذ - أن للقانون والأعراف حرمةً وذمامًا، فلم يؤخذ - لسقوط الدعوى الجنائية فى غيبته - بذنبه، وقد صدع موسى بما أمر، وولى وجهه مع أخيه شطر فرعون يدعوه

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [**الأعراف**: ١٠٤، ١٠٥]

ولكن فرعون لم يسمع له ولم يؤمن به.

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾

[**يونس**: ٨٣]

بل لقد عمد فرعون إلى السخرية بما سمع من دعوة إلى الله.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [**القصص**: ٣٨]

ولعل موسى كان من قبل - بل لا شك - قد بادر، وفاءً منه وشوقًا إلى رؤية البيت الذى شهد مطلع حياته وقضى صباه فيه حريصًا على لقاء تلك التى تبنته وتولته منذ طفولته الأولى بالتربية والرعاية، ولعله أقبل عليها معزيا فى وفاة أخيها وزوجها مرنپتاح الذى نشأ فى كنفه معها واستمد من انتسابه إليه فى المجتمع قوة وأيدا أولا، متلمسًا منها اتصال الأيد والمشورة فيما هو مقبل عليه عند لقاء فرعون الجديد ثانيا. أقبل موسى على «آسة نفرة» فلم يجد منها إلا ما يجد من الأم حنانًا وبرًّا ومودّةً وحبًا، ثم استعدادًا للسمع وتصديق ما جاءبه والإيمان برسالته، بل واحتمال ما عسى أن يصيبها - وقد صارت يومئذ الأم الوالدة - من عصيان ابنها الفرعون بل وعقوقه، وتنكر الملأ من حوله لها، حتى فزعت منه إلى الله:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١]

ثم كان بين موسى وفرعون جدَل شق واستطال، وتساءل فرعون:

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾

قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ ؟

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى (٥٢) الَّذِي

جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ٤٩ - ٥٥]

ويتصل الجدل والحوار وتزداد شدتهما وحدتهما :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ .

قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ .

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ .

قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ .

قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ،

قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ،

قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ،

قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ،

قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ،

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ .

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا

لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢ – ٣٥]

ويردد الملأ من حول فرعون قوله للناس:

﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾

[الأعراف: ١٠٩ – ١١٢]

واستأنف فرعون حديثه مع موسى وقد اطمأن إلى رأى أصحاب الرأى عنده.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى.

قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى،

فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ،

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ،

فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ

يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾ [طه: ٥٧ - ٦٤]

﴿ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٧٧، ٧٨]

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ،

قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٣ - ١١٦]

ونظر موسى:

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٦ - ٦٩]

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا

صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١١٧ - ١٢٤]

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١]

ذلك وعيد أى وعيد، وهو وعيد ذكره وانفرد بذكره القرآن من دون التوراة، وهو خبر خليق بالمؤمنين قبوله والإيمان به، لأنه تنزيل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من رب العالمين، ومع ذلك فقد شاء الله أن نجد مصدقا لما بين أيدينا من القرآن، وأن ينحدر إلينا من وثائق التاريخ نص يصور التعذيب فى زمان «فرعون»، وقال النسفى: إنه أول من قطع من خلاف وصلب، وقد ورد النص عن مرنبتاح[1] الذى شاع فى الناس أنه فرعون الخروج. وعندى - وسوف أذكر الأسباب - أن فرعون الخروج إنما كان سيتى بن مرنپتاح بن رمسيس، وأنه إنما هدد بما كان استن أبوه فيمن كانوا عليه خارجين.

* * *

وقد تداعى الناس بعد ذلك اللقاء بين السحرة وبين موسى إلى بيوتهم

(١) Youssef, op. cit.

أن يستأنفوا حياتهم مع دينهم الجديد، حتى يأذن برحمته وينعم بالخلاص.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٨٧]

ولكن البطانة من حول الملك وكل الملوك والرؤساء، لا تخلد إلى سكون، فهى دائمة القول دائمة التحريض.

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ.

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.

قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ

وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾
[**الأعراف**: ١٢٧ - ١٣٦]

غير أن الكوارث فيما ذكر القرآن وروت التوراة قد لحقت بمصر يومئذ سنين، فأصيبت بالقحط والعلل والآفات، ولم تكن مصر على كل حال بمنجاة كما قدمنا مما قد ينزل بها من ذلك على مدى التاريخ، فربما انحبس النيل فصوح الزرع أو زاد فأغرق البلاد بطوفان عظيم، وهو فى الحالين كما قدمنا نذير النوازل ونقص من الثمرات، فإذا وقعت الواقعة انتشرت بها الأدواء والأوبئة فحصدت الناس حصداً قد يعجزهم عن تشييع موتاهم إلى القبور. وقع بها ذلك مثلاً فى أعقاب الدولة القديمة حيث روى حكيم ذلك الزمان إيپوور أن الناس كانوا يلقون بموتاهم في النيل حتى صار مدفنا؛ ووقع أواخر الأسرة العشرين حتى اشتد بالناس الجوع عاما سموه لشدته عام الضباع، ولقد كان المصريون يتخيلون بلادهم بما قد يندلع فيها أيام المحن من الأوبئة ويستشرى من الموت كأن ربتهم اللبؤة الضارية، سخمت قد انطلقت فى الناس عاصفة قَرِمةً، تنهش لحومهم وتلغ فى دمائهم، حتى لقد انطبع خيالهم هذا فى تَصوير معارك الملك ومذابحه الحربية فيشبهونه «كأنه سخمت العاصفة حين المجاعة»(١).

(١) K.A.Kitchen, Ramesside Inscriptions (Oxford 1971) Vol. II (fasc.6) p. 318 line 4.5;

ولذلك فغير بعيد ولا شاذ أن تشحب الوجوه وتعقم النساء، ويحل بالناس الضعف والهزال وأن يصابوا - كما ذكر المفسرون - بالنزف والرعاف فيسيل الدم من أنوفهم لسوء التغذية، وعوز الجسم إلى ما يقيم عليه حيويته، وقد يكون ذلك لعلة غامضة وداء مجهول، وكذلك فغير بعيد - مع الصورة التى أنشأها أيپوور أن تقعد بالناس الصحة والهمة عن بذل الجهد للحرث والزرع برغم فيض النيل، فكيف بالزرع وقد أرسل عليهم الطوفان - وأن تترك الأرض مزرعة للضفادع - وكانت معروفة فى لغة المصريين القدامى بمثل اسمها العربى قرة - حتى يضيق الناس بها، وكانت مصر عرضة لكوارث الجراد الذى يأتى على كل شىء فلا يبقى ولا يذر، وكفى بالمصريين نقصا فى الثمرات أن يرسل عليهم الجراد، وكان لكثرته الهائلة إذا أقبل مضرب المثل للجيوش الكثيرة الساحقة، إذ كان ينزل بمصر منذ أقدم العصور سحبا تكاد تحجب الشمس عن العيون كما وصفته نصوص الأهرام[1] وكان الجراد فى مصر القديمة معروفًا باسم سنحم، كما كان القمل معروفًا باسم كتت، ومازال فى بعض صعيد مصر يسمى الغتغات[2]. على أن مفسرى القرآن يرون فى لفظ القمل بالقرآن مفهومات شتى، فقالوا: هى الدبى، وهى أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها، أو البراغيث وكبار القردان، وذكرت التوراة فى ترجمتيها العربية والألمانية البعوض، وفى ترجمتيها الإنجليزية والفرنسية القمل، وهى على كل حال من الحشرات المألوفة فى مصر، والتى قد تنتشر وتكثر فى وقت واحد، ولذلك فقد نفسر اللفظ القرآنى بالحشرات عامة، وهو فى أكبر الظن مفهوم الآية الكريمة والله وحده علام الغيوب.

---

(١) Pyramid Texts § 891, 1772

(٢) أحمد بدوى وهرمان كيس: المعجم الصغير فى مفردات اللغة المصرية القديمة ص٢٦٤.

ومهما يكن من شيء، فلم تكن أحوال مصر من بعد مرنپتاح مستقرة ولا هادئة، ولا نكاد نعرف عن تلك الحقبة من تاريخها إلا لمعًا تدل على اضطراب في الحكم، ونزاع على العرش، وفساد في المجتمع. ولا شك - إيمانًا بالله وكتاب الله - فيما كان من تعرض مصر لما جاء في الذكر من سورة الأعراف، وهو غير بعيد عقلاً واستدلالاً من شواهد التاريخ، وغير بعيد أن تكون السنون الست من عهد سيتي الثاني قد امتلأت بالفصل الأخير من قصة بني إسرائيل في مصر، حيث أخذ آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات، بما أرسل عليهم من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات منجمات عامًا من بعد عام، وأن يكون ذلك من عوامل انهيار الأسرة التاسعة عشرة وسقوطها بعد ذلك، إذ خَلَف سيتي الثاني ابنُه سپتاح، ولكنه أوتي الحكم صبيا حيث أقامه على العرش سوري كان صاحب النفوذ في الدولة اسمه باي، ومع ذلك فلم يجاوز حكم سپتاح أعوامًا ستة لم تخل من نزاع واضطراب ازدادا من بعده حدة وضراما، إذ انفرد بالسلطان مع خلو العرش سوري لعله باي نفسه[(١)]، ودخل حكام الأقاليم فيما بينهم في حروب دامية وصراع طويل، وأهمل القانون حتى حرم كل إنسان حقه كما جاء في بردية هاريس، فيما صورت من أحوال تلك الفترة على لسان رمسيس الثالث الذي قبض بعد ذلك على السلطة حيث يقول:

«قال الملك أوسرماعت رع عاش موفقًا سليمًا، الإله العظيم للأمراء وقادة البلاد وللمشاة والفرسان والشرادنة وجموع الرماة وسائر مواطني أرض مصر: «ألا فانصتوا حتى أنبئكم بفضائلي التي فعلت حين كنت

(١) Gardiner, Egypt of the Pharaohs. p. 277 f.

ملكا للشعب. لقد كانت سقطت مصر، وحرم كل امرىء من حقه ولم يكن متحدث باسمهم منذ أعوام كثار. . ، كانت أرض مصر موظفين وحكامًا يقتل أحدهم أخاه كبيراً وصغيراً. . ، ثم حل عهد آخر فى أعوام خاوية حيث نصب نفسه صانع نفسه[1] السورى أميرًا، ففرض على البلاد كلها الجزية له، وجمع رفاقه ونهب أموالهم، فعاملوا الآلهة كما يعاملون الناس، ولم تقدم قرابين فى المعابد، فلما أن ارتدت الآلهة بالرحمة لتقيم البلاد على الحق، كما كانت أحوالها الطبيعية، أقامت ابنها الذى خرج من جسدها ليكون عاهلاً[2].

الخـــروج

ولم يعد لبنى إسرائيل ومن تبعهم من المصريين المتهودين إلى البقاءفى مصر من سبيل، وقد ضاق موسى والذين هادوا بتلك الحياة التى فرضها فرعون فلم يجد إلا أن يستعدى الله عليه:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (88) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾

[يونس: ٨٨، ٨٩]

---

(١) كناية عن غصبه للسلطة بغير حق ولا سند.

(٢) Erichsen, Papyrus Harris I 75, 1-6; Breasted, op. cit. IV § 398; Pritchard, op. cit., p. 260.

وقد كان موسى وهارون قد حاولا - عن أمر الله - استئذان فرعون فى الخروج.

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٧]

ولم يفلح موسى فى استرضاء فرعون ولا إقناعه، بل لقد وقع بينهما جدل عنيف بلغ حد التراشق باللفظ، وبلغا حد اللاعودة كما نقول اليوم.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠١، ١٠٢]

ولم يعد لبنى إسرائيل إلا الخروج من مصر هاربين، فكان أن أذن لهم، بل أمرهم، رب العرش بالخروج والسرى بليل ناجين.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٢ - ٥٦]

وكان موسى قد خبر الطرق من مصر وإليها يوم اضطر إلى الخروج منها ـ بعد قتله المصرى ـ خائفًا يترقب على طريق حرص من غير شك على أن يكون بعيدًا عن العيون والرقباء، فكان أن أوغل مبتعدًا إلى الجنوب فى سيناء، وقد كان عليه هذه المرة كذلك أن يجتنب ـ بمن معه ـ الطريق السوى الذى اعتاده المسافرون، وذلك كما وقع للأمير سنوهى بما يقرب من القرون السبعة من قبل موسى، وما كان من أمر العبدين الآبقين فى أيامه.

وقد تحدثت التوراة عن خروج بنى إسرائيل أنهم وقد بيتوا النية على الفرار، قد «طلبوا من المصريين أمتعة فضة، وأمتعة ذهب وثيابًا، وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم، فسلبوا المصريين، فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد، وصعد معهم لفيف كثير أيضًا مع غنم وبقر ومواش وافرة جدًا». [خروج ١٢ : ٣٥ـ٣٨]

أجل سلبوا المصريين الطيبين بما جبل المصريون عليه، رغم سياسة الحاكم، من قلوب نقية ومودة خالصة وجوار سخى وكرم فياض، فكانوا ضحية لما طبع بنو اسرائيل عليه من الحقد وروح المؤامرة والغدر منذ ألقى يوسف فى الجب بيد اخوته وبنى أبيه.

ولا حاجة بنا بعد الذى بينا من قبل إلى الوقوف هنا عند تعداد بنى إسرائيل عند الخروج، وأكبر الظن أن لفظ الألف قد زيد فى الترجمة على الرقم الأصيل، أو لعله صرف إلى معنى العدد فترجم على غير مقصده ومرماه، فقد يؤدى لفظ الألف فى العبرية فضلا عن المئين العشر معنى السبط أو الإلف بكسر الهمزة والأليف، فكأن العبارة فى مصدرها الأصيل عن المرتحلين من رعمسيس إلى سكوت أنهم كانوا ـ مع المبالغة ـ ستمائة سبط ماش من الرجال.

ومضت التوراة فى حديثها عن خروج بنى إسرائيل فتقول :

«وارتحلوا من سكوت ونزلوا فى ايثام فى طرف البرية» . . ثم أمروا تضليلا لعيون فرعون أن «ينزلوا أمام فم الحيروت بين مجدل والبحر أمام بعل صفون» . . . فيقول فرعون عن بنى إسرائيل هم مرتبكون فى الأرض» . [خروج ١٣ : ٢٠ ، ١٤ : ١-٣]

ولقد جهد علماء الآثار ما استطاعوا فى تحقيق أسماء تلك المواقع فى شرقى مصر ، وفى مقابلتها ، مع ما انحدر إلينا فى الآثار ، من أسماء المواضع المصرية القديمة ، حيث تعرضت كما وردت فى التوراة للتحريف والتصحيف ، فقربوا لفظ سكوت بشبيهه ثوكوت ، وبين مجدل بمجدل ستى مرنپتاح ، وهما الموضعان اللذان شهدناهما فى رسالة الضابط عن العبدين الآبقين ، وإن ظل بعض هذه الأسماء موضع جدل كثير [(١)] .

ومهما يكن من شىء ، فلقد اتجه بنو إسرائيل إلى الشرق حتى وقفوا بساحل الماء ، إذ بدءوا رحلتهم بالسير إلى الجنوب كما فعل سنوهى والعبدان الآبقان ، وكما عسى أن يكون فعل موسى فى مستهل فراره إلى مدين . ثم استأنفوا المسير إلى الشمال حتى وقفوا ، حيث وقعت المعجزة الكبرى عند بحيرة البلاح التى تخرج من بحيرة المنزلة فى أكبر الظن . وعلم بذلك فرعون وجنوده .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦٠ ، ٦١]

وتحدثت التوراة فى ذلك فقالت :

---

(١) Pritchard, op. cit., p. 259; Montet op. cit., p. 49 ff

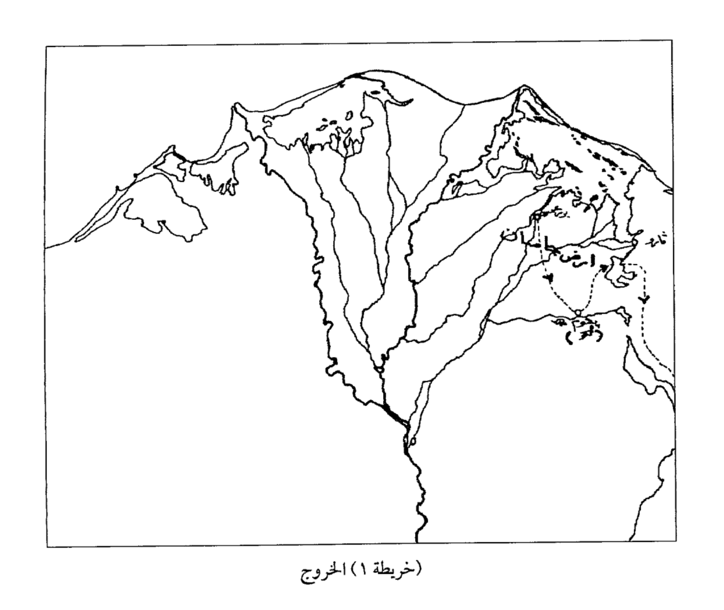
«فلما أخبر ملك مصر أن الشعب قد هرب تغير قلب فرعون وعبيده على الشعب فقالوا ماذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا، فشد مركبته وأخذ قومه معه، وأخذ ستمائة مركبة منتخبة وسائر مركبات مصر وجنودا مركبية على جميعها، وشدد الرب قلب فرعون ملك مصر حتى سعى وراء بنى إسرائيل، وبنو إسرائيل خارجون بيد رفيعة، فسعى المصريون وراءهم وأدركوهم جميع مركبات فرعون وفرسانه وجيشه وهم نازلون عند البحر عند فم الحيروت أمام بعل صفون.

فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم، وإذا المصريون راحلون وراءهم ففزعوا جدا، وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب، وقالوا لموسى: هل لأنه ليست قبور فى مصر أخذتنا لنموت فى البرية، ماذا صنعت لنا حتى أخرجتنا من مصر، أليس هذا هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر قائلين: كف عنا فنخدم المصريين. لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية». [الخروج ١٤: ٥-١٢]

أما موسى فإنه

﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٦٢ - ٦٧]

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١]



(خريطة ١) الخروج

كان خروجهم بأمره تعالى - رحمة بهم من المسير فى حر سيناء فى فصل الشتاء، إذ وقفوا بساحل الماء ليلة التاسع عشر من شهر طوبة أو السابع والعشرين من يناير وفى مكنون علمه ما كتب يومئذ على فرعون من الغرق وعلى عهده بالإنقضاء[١].

* * *

غرق فرعون كما ذكر القرآن والتوراة، ولذلك فربما اتخذت طائفة من الناس من غرقه دليلاً، ينكرون به على خروج بنى إسرائيل أن يكون وقع فى عهد ملك وجدت فى طيبة جثته محنطة، ومع ذلك فليس الغرق على ما يقولون بدليل، فلقد كانت عادة المصريين وعقيدتهم التى رسخت منذ فجر تاريخهم فى الأعماق قد جعلتا إقرار الميت فى قبره، وإجراء الشعائر عليه، أهم ما يقدر المصرى ويحرص عليه، وإلا حرم الحياة الأخرى ونعمة الخلود، ولقد تجلت آية ذلك وتتجلى فيما خلف المصريون من الأضرحة والقبور، وفيما كانوا يبذلون من الجهد - ولو اضطروا إلى القتال - فى سبيل استخلاص جثة رجل مات أو قتل فى الغربة لدفنها فى بلده. ولقد كان ذلك واجبا يرعاه الملوك وترعاه الدولة، وتتحمل نفقته فى كثير من الأحيان[٢] ولئن كان ذلك لأواسط الناس فى مصر، فماذا عسى أن يكون للفراعين من سلالة الأرباب؟!، فلا شك بحكم طبيعة الأشياء، ونحيزة المصريين أن تكون جثة الفرعون الغريق قد طفت إذ ألقيت بالساحل فانتشلت من الماء حيث حنطت ودفنت بما تعود المصريون

---

(١) إذ سجل تاريخ موته فى ذلك التاريخ على شقفة بالمتحف المصرى الآن
انظر: Gauthier, op. cit III p. 132

(٢) Urk I 134 f, 135f.; Breasted op cit I § 360, 363 ff.

من دفن كريم، ولقد مر بنا أن المصريين قد خصوا الغريق المنتشل فيما بعد بعبارة الحميد «حسى».

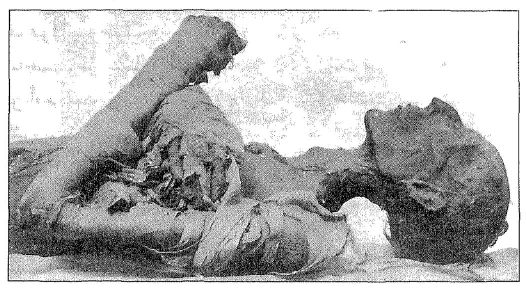
ولقد ذكر الله في محكم آياته غرق فرعون في سورة يونس، وذكر تعالى نجاته ببدنه من الهلاك لتكون آية للناس:

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٢]

غرق فرعون ونجا ببدنه ليكون لمن خلفه آية.

ولم تكن الآية لمن خلفه جيلاً أو جيلين، بل بقيت آية للعشرات الكثيرة من الأجيال والمئات الكثيرة من السنين، وهى إنما صارت كذلك بما مكن رب العرش لأهل هذا المصر من حصين القبور، وسلطان العلم، وأسرار التحنيط.

وإلى القاهرة يأتى اليوم الحجيج السائحون إلى مصر، وسيأتون من كل فج عميق ليعبروا فى خطوة واحدة ولحظة عابرة تلك العشرات والآلاف من السنين، وليشهدوا فراعين مصر فى رقدتهم التى كتبت على



(شكل ١٢) جثمان رمسيس الثانى

العالمين، فهذا رمسيس الثانى بشعره الأشيب ومازال به أثر الخضاب بالحناء. (شكل١٢)، ثم هذا مرنپتاح شيخا أصلع وقد كان بادنا (شكل١٣)، ثم هذا ستى مرنپتاح أو ستى الثانى (شكل١٤).

ذلك من آيات الله.

وهى آية تتمثل فى كل هؤلاء وفى غيرهم من الفراعين ممن نراهم راقدين. واحد من هؤلاء كان يعذب بنى إسرائيل فيذبح أبناءهم ويستحى نساءهم، ثم واحد من هؤلاء رفض ملة موسى وكان صاحب خروجهم من مصر. ومع ذلك فمازال اليقين عند صاحب اليقين، ومازال العلم عند رب العلم يؤتيه من عباده من يشاء وهو وحده علام الغيوب.

ما بعد العبور:

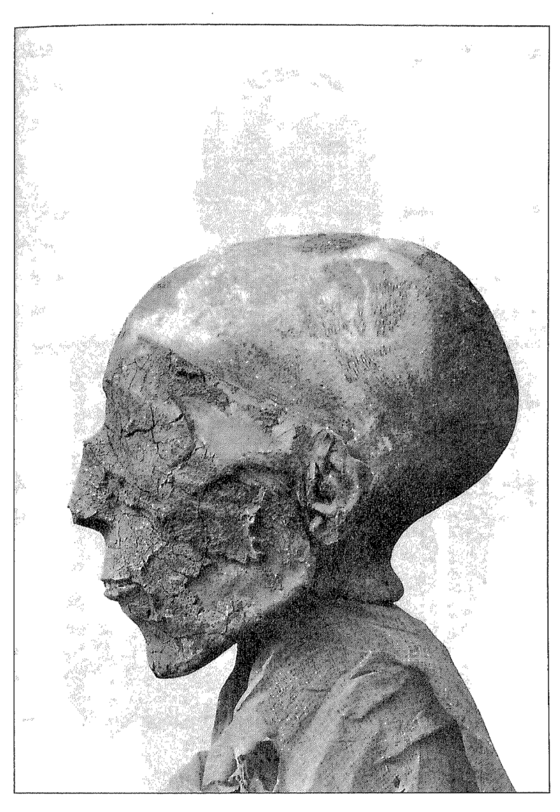
وبعد، فلقد أفلت بنو إسرائيل من فرعون وجنوده، وانطلقوا إلى سيناء، وشغل المصريون عنهم بمصيبتهم فى جيشهم وفى مليكهم الغريق وتتويج خليفته الجديد. ولعل المصريين قد كفوا عن تعقبهم هناك وقد عرفوا أنهم طائفة هاربة لا تبغى سوى النجاة، ولن يكون منهم على مناجمهم فى سيناء من خطر يحذرون، وكانت سيناءمنذ أقدم العصور من أوفر مصادر مصر بالفيروزج والنحاس، حيث تركت بعثات التعدين كثيرا من النقوش فى وادى مغارة، وصرابيط الخادم[1]، وكان المهندسون والعمال ممن يرسلون إلى سيناء يتعبدون الإلهة حتحور، ربة تلال الفيروزج، طالبين إليها الحماية والأمن ويقربون إليها الحمد والثناء على ما تقدم إليهم - فى عقيدتهم - من خير.

---

(١) A.Gardiner & E. Peet & J. Ceny The Inscriptions of Sinai I (I 1952), II (1955).



(شكل ١٣) جثمان مرنپتاح



(شكل ١٤) جثمان سيتى الثاني

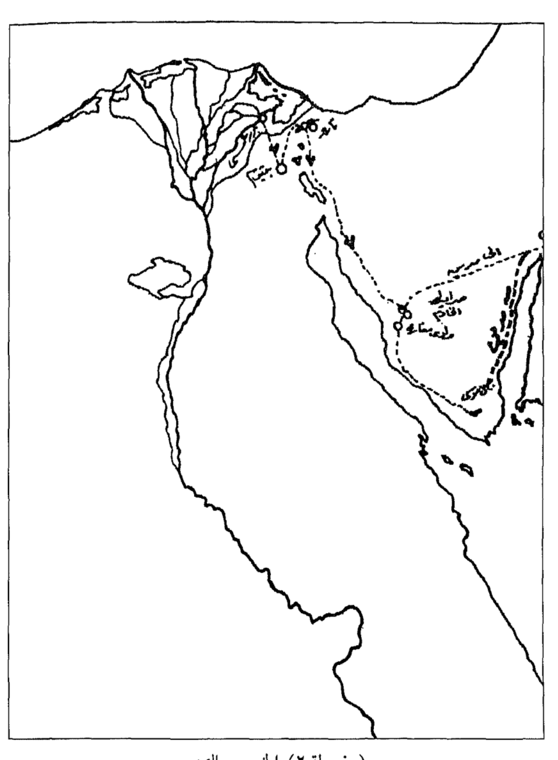
وقد اقتضى استغلال المناجم المنتظم، وقيام مجتمعات العمال فيها قيام معبد منذ الدولة الوسطى للإلهة حتحور فى صرابيط الخادم ترى أطلاله اليوم (مصورة فى شكل ١٥)، والذى لا شك فيه أن بنى إسرائيل قد اتبعوا الدرب الذى كانت قوافل التعدين تسلكه إلى تلك المناجم فى سيناء، وأنهم مروا بتلك المناجم فى تجوالهم هناك. حيث أشار القرآن - وحده - إلى مجتمع مقيم حول عبادة له فى تلك البقاع. ولقد أحس بنو إسرائيل بحكم مقامهم فى مصر، واختلاطهم بالمصريين واتخاذهم حضارتهم بالحنين إلى حياتهم الأولى، وتعلق قلوبهم بأرباب المصريين التى كانوا - معهم - يعبدون.

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾
[**الأعراف**: ١٣٨]

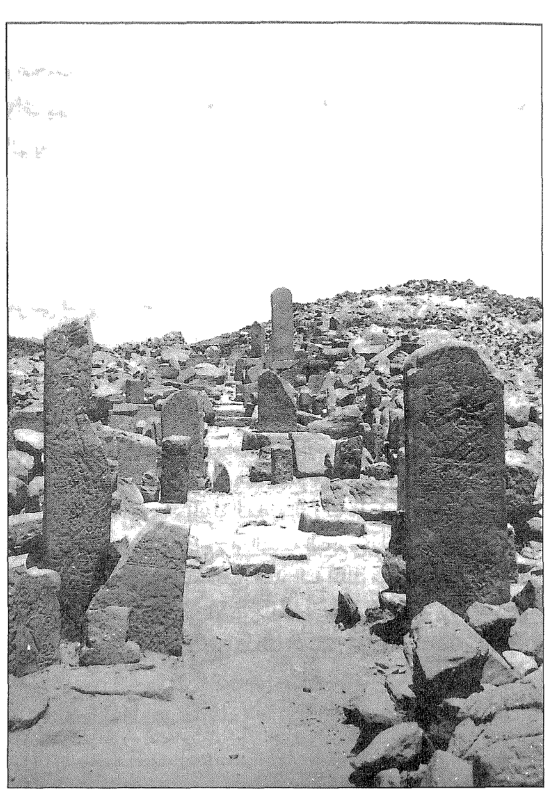
لذلك فلم يكد موسى يتركهم لميقات ربه، حتى تداعوا إلى عبادة العجل، واتخاذ التماثيل.

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ... ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [**الأعراف**: ١٤٢ - ١٤٨]

وأخبر الله موسى بضلال قومه.



(خريطة ٢) الخروج والتيه



(شكل ١٥) أطلال معبد صرابيط الخادم

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ [طه : ٨٣ – ٨٨][1].

وكانت عبادة العجل فى مصر قديمة امتدت منذ أقدم عصور التاريخ حتى دخلت المسيحية وغلبتها فيها[2]، وقد عرف أشهر تلك العبادات باسم «مرور» و«حپى» (منيفس وأپيس[3] فى تصحيف اليونان)، حيث عبد الأول فى عين شمس رمزاً لإله الشمس، والثانى فى منف مدينة پتاح، رمزا لپتاح، وكان پتاح هذا يتمتع على عهد ملوك الأسرة التاسعة عشرة بالدرجة الرفيعة والمنزلة السامية التى تتجلى فيما اتخذوا من أسماء وألقاب تعبر عن حب پتاح، أو النسبة إليه، وكذلك حرص أمراء تلك الأسرة من أمثال مرنپتاح الذى صار إليه الملك من بعد رمسيس الثانى على تولى منصب الكاهن الأكبر للعجل حپى (أبيس)، ومن قبله كان أخوه خعمواس كاهنه الأكبر كذلك، وذلك فضلا عن عبادات أخرى، اتخذت صورة العجل فى مصر مثل مين ومنتو.

(١) انظر سفر الخروج إصحاح ٣٢.

(٢) H.Bonnet, Reallexikon der Agyptischen Religionsgeschicte p. 614

(٣) op. cit. 46, 468

وكذلك عبدت حتحور فى صورة البقرة، وكانت فى عقيدتهم مرضعة ربهم حور بن أوسير، ثم ربة الحب والحنان والألحان، ثم صارت ربة للجبانة ترعى الموتى وترأمهم، وكانت صاحبة ألقاب ونعوت كثيرة منها «الذهبية» أو ربة الذهب، و«صاحبة القلادة البراقة كالسماء بنجومها»، كما كانت لها تماثيل مموهة بالذهب حفظت بمتحف القاهرة مثل منها[١].

ومن المحقق أن بنى إسرائيل باتخاذهم العجل من بعد موسى إنما كانوا إلى ما اعتادوا فى مصر من الآلهة مرتدين، وأنهم اتخذوه من حليهم من الذهب فتنة بحتحور الذهبية، وما كان لها من منزلة فى النفوس، وذلك فضلاً عما تأثروا به من حب المصريين للذهب، وصنع تماثيلهم الثمينة منه، وما ندرى لعل لله حكمة فيما كان من أمره بنى إسرائيل أن يذبحوا بقرة، وأنها ﴿ **بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ** ﴾ ولقد كان البقر فى مصر من أنواع وألوان، حيث كان فيها كذلك الأحمر والأبيض والأسود ونوع آخر لا يكثر، ونستورده اليوم يجمع بين البياض والسواد ويشبه ما هو معروف فى أوروبا اليوم، ولعل فيما أبدى بنو إسرائيل من تلكؤ ومراوغة فى ذبح البقرة، وما كان من تنطعهم فى التساؤل عنها، وعن لونها من أثر ما كان وقر فى نفوسهم من تقديس حتحور.

﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ**

(١) Bonnet, op. cit. p. 277 ff

يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾
[البقرة: ٦٧ - ٧١]

ولئن كان خرج بنو إسرائيل من مصر، فقد ظلوا منها على تذكر وحنين، فلقد ضربوا فى سيناء، حيث وجدوا حياة فيها مع البساطة الحرية والأمن، وفيها الخلاص مما كان يؤرقهم من الذلة والخوف، وفيها من الرزق ما يأتيهم حلالاً سائغًا بغير مشقة ولا جهد.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]

كانوا يجدون المنّ يشتارونه فى غير مشقة ولا جهد، وكان فيما ذكر النسفى، ينزل عليهم مثل الثلج من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، «وهو كبزر الكزبرة أبيض وطعمه كرقاق بعسل» (خروج ١٦: ٣١)، وكانوا يجدون السلوى أى السمانى أو نوعا من الأوز المهاجر[١] - وفيرا يسيرا صيده، وكانت سيناء ومازالت قبلة للأفواج الكثيرة من طيور الهجرة، تقبل فى الخريف متعبة مرهقة بعد عبور البحر، فما إن تجد

(١) من أنواع الأوز ما كان المصريون يسمونه سرو (سلوى).

الأرض حتى تحط، فلا تكاد حتى تستريح تريم، فإذا لاحت تباشير الربيع عادت إلى اجتياز سيناء في طريقها إلى البحر تعبره إلى حيث تقيم[1].

ومع ذلك فلم يرض اليهود بما نزل عليهم من رزق الله، إذ كان الذل الذى احتملوه فى مصر أحب إليهم من الحرية فى الصحراء، وقد تبعوا موسى في الخروج مكرهين، ألم يذكروه عند شاطىء البحر بقولهم:

«كف عنا فنخدم المصريين لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية» (خروج ١٤ : ١٢)... «فتذمر كل جماعة بنى إسرائيل على موسى وهارون في البرية، وقال بنو إسرائيل ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع» (خروج ١٦ : ٢-٣).

ثم طفقوا يعددون ما كانوا يجدون فى مصر من الخير وألوان الطعام:

«فعاد بنو إسرائيل أيضا وبكوا، وقالوا من يطعمنا لحما، قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجانا، والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم، والآن قد يبست أنفسنا، ليس شيء غير أن أعيننا إلى هذا المن» (عدد ١١ : ٤-٦).

وفى إعجاز قرآنه العظيم أخبر الله بذلك بما أوحى إلى نبيه فى سورة البقرة قال:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ

(١) Meinertztagen, Nicoll,s Birids of Egypt, p. 41, 648-649

أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٦١]

كانت وجهة موسى بعد الخروج أرض كنعان، فيقول كاتب التوراة:

«وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم فى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربا ويرجعوا إلى مصر» (خروج ١٣ : ١٧).

على أن موسى قد طفق يوالى رسالته، فيتحمل ما حمل من قيادة هؤلاء الناس وقد جعلهم الله أحرارا، ملوكا لأنفسهم، ملوكا لأرزاقهم وآتاهم من ظلال الغمام والرزق ما لم يؤت أحدا من العالمين، فهو يريد الخروج بهم من سيناء إلى أرض كنعان، ولكنهم بما ضرب عليهم من الذلة والمسكنة، وما رسخ فى أعماقهم لذلك من الجبن والخوف ومن ثم إلى الالتواء والعناد، إذا هم يتقاعسون، وكذلك استشعروا من دخول كنعان.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا

دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٠ - ٢٦]

وما كان لموسى إلا أن يرفع شكاته إلى الله فى أمر أتباعه الفاسقين، فكان أن حقت عليهم كلمة الله وحكمه بتحريمها عليهم وبتيههم فى الأرض إلى ما شاء الله.

* * *

وبعد، فأما وقد خرجوا من مصر إلى بعض أطرافها يهيمون فى الأرض فقد خرجوا كذلك عن نطاق ذلك الكتاب، ولذلك فلنذرهم حتى يقضى الله أمرا هائمين، ولنعد إلى ما كسبت مصر من منزلة وما شرفت به من صفة فى كتاب الله وسنة رسول الله وما أوتيت فى ذلكم من حظ عظيم.

موطن بنى إسرائيل فى مصر وفرعون من القرآن:

دل القرآن على مقام بنى إسرائيل فى مصر من جملة آيات من كتابه العزيز، فلقد ولد موسى ونشأ، حيث كان أبواه وشيعته يعيشون فى عاصمة مصر، أو عندها غير بعيد من مقر فرعون، وآية ذلك أن أم موسى قد ألقته فى اليم ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ

لاَ يَشْعُرُون﴾ ، ولم يبتعد تابوت موسى إلا بمقدار مسرى النيل الهادئ ضحوة من نهار ، وبمقدار طاقة الفتاة أو الصبية على المسير من ورائه ، حتى ألقاه اليم بالساحل فالتقطه آل فرعون ، وبمقدار طاقتها على العودة إلى أمه بخبره ونجاته من بطش فرعون ، ثم مرتدة ـ وقد أصبح فؤاد أم موسى فارغًا ـ مندسة فى أهل القصر ، محتالة على استرضاعهم أمها بعد ليلة أعرض فيها عن المراضع جميعا .

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ﴾ [طه : ٤٠]

ثم دل على مقام بنى إسرائيل ـ حين تقرر خروجهم بليل وتلقى موسى أمر ربه :

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الدخان : ٢٣]

ولم يبتعد بنو إسرائيل عن العاصمة إلا بمقدار مسيرهم بين انتصاف الليل ومشرق الشمس ، إذ خرج فرعون وجنوده فى طلبهم مشرفين على البحر ، حيث أدركوهم حين تنفس الصبح مع مطلع الشمس أو داخلين وقت شروق الشمس ، كما يقول المفسرون فى قوله تعالى :

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦٠ ، ٦١]

كان بنو إسرائيل إذن يسكنون إلى الشمال الغربى من البحر الأحمر وخليج السويس ، وكان مقامهم هذا فى وادى طميلات غير بعيد من عاصمة مصر آنذاك ، وذلك فى البقعة التى سميت فى التوراة أرض

جاسان مصحوفا عن لفظ جسم أو جاسام، حيث فرضت على بنى إسرائيل السخرة «فبنوا لفرعون مدينتى فيثوم ورعمسيس».

كانت عاصمة مصر إذن على عهد يوسف أيام احتلال الهكسوس كما كانت على عهد موسى تقع شرقى الدلتا. ولذلك فما ينبغى فى فرعون موسى إلا أن يكون ممن كانت عاصمتهم هناك، ولا سبيل إلى الأخذ بغير ذلك من قول، فلقد ظلت طيبة فى صعيد مصر عاصمة مصر من بعد الهكسوس حتى عهد رمسيس الثانى الذى نقل مقر حكمه منها إلى مدينة أنشأها على أنقاض مدينة الهكسوس سماها «بررعمسّى مرى آمون عانختو» بمعنى «دار رمسيس حبيب آمون عظيم الانتصارات» وكان المصريون كثيرا ما يكتفون بصدر الاسم دون نعوته، فيقولون بر رعمسى كما كانوا يسقطون من أسماء مدنهم ومواقعهم الجغرافية ما صدر منها بلفظ «حوت» و«بر» - بمعنى الدار - فيصير - كما جاء فى التوراة - رمسيس ليس غير، وربما كان فى قرب أرض جاسان من العاصمة على عهد رمسيس ما دعا كاتب سفر الخروج من بعد مدة من الزمان إلى تسميتها أرض رمسيس، بدلا من أرض جاسان، وكانت تمتد من غير شك حتى برتوم - فيثوم - كما تمتد إلى الغرب، حتى المدينة التى أضفت اسمها على هذه البقعة كلها وهى جاسام، ويبدو أن هذا الاسم إنما عرف أول مرة فى أنشودة تصف سنوسرت الثالث بأنه درع نحاس من جاسام، حيث ينصرف المعنى إلى صلابة القلاع فى جاسام كأنها النحاس ولم تكن هذه القلاع سوى قلاع امنمحات الأول التى كان أقامها على حواف الحقول[1]، ولقد استقر القول فى تحديد موقع جاسان حيث عثر على

(١) Montet, ibid

زون لعاهل الأسرة الثلاثين نخت نبف (نكتانيبو الأول)، فى صفت الحنة إذ ورد فيه أن الملك تكريما لأبيه سوپد رب المشرق، قد ذهب إلى «جسمه» عن مشورة ربه الأقدس فى هذا المكان فأقام فى هذا الزون تمثال هذا الإله.

فرعـــون:

عرف عاهل مصر فى عصورها القديمة باسم فرعون، وهو لقب اختص به، كما اختص كسرى عند الفرس، والنجاشى عند الأحباش من ملوك العالم القديم، وعن فرعون تحدثت التوراة وبه نطق القرآن، فجاء فى العبرانية بلفظ «فرعو»، وفى العربية فرعون، ولم يكن هذا اللفظ سوى تصحيف للفظين المصريين پرعو بمعنى البيت العالى أو العظيم، وكان يكنى بتلك العبارة منذ الدولة القديمة عن قصر الملك دون شخصه، أو يكنى بها أحيانا عما يتصل به من شئون القصر والحاشية، فكان المصريون إذا ذكر اسم الملك اتبعوه بالدعاء له بالحياة والصحة والسلامة، وكذلك صاروا يفعلون إذا ذكر پرعو، وإن ظل القصد راجحًا إلى معنى البيت العظيم.

على أن دلالة اللفظ على شخص الملك نفسه لم تثبت إلا منذ الأسرة الثامنة عشرة على عهد أخناتون، إذ لقب بذلك على بعض آثاره كما خوطب به فى بعض ما وجه إليه من كتب. فلما كانت الأسرة التاسعة عشرة - وهى أسرة رمسيس الثانى وبنيه - ذاع اللقب فيما ورد عن الملك من الخبر والخطاب، وحل فى أحيان كثيرة محل لقب الجلالة فقيل خرج «جلالته» أو خرج پرعو على سواء[1].

---

(١) Gardiner, Egyptiian Grammar p. 71.

ومهما يكن من شيء، فإن القرآن لم يذكر «فرعون» إلا فيما روى من نبأ موسى، ولم يذكره مرة واحدة فيما أورد من سيرة يوسف عليهما السلام، وتلك دقة الإعجاز التى قد لا تتوفر لأحرص الناس من العلماء والمؤرخين، فلم يكن لقب فرعون بدلالته على ملوك مصر ذائعًا فى ذلك الزمان من عهد يوسف، ولم يكن الملك الذى دخل يوسف فى خدمته مصريًا فيستحق لقبًا، اختص به الملوك من المصريين، بل كان أجنبيا يناصبهم ويناصبونه العداء، وكذلك لم يكن الملك هو بطل القصة كى يخصه القرآن بلقب يفرده وينبه إليه، ولكنه آثر فرعون موسى بذلك اللقب الذى أطلقه اسمًا له، وأجراه علمًا عليه تمييزًا من سائر الملوك، وقصرًا عليه وحده لما وصفه به من المروق والطغيان، ذلك الطغيان الذى صار اسم فرعون - بغير الحق - فى نظر الناس علمًا عليه، ولقد قدر الله - وإن شاء ألا يسمى فرعونًا بذاته - أن يعينه، ويختص واحدا من سائر الفراعين، ذلكم هو الفرعون الذى صحبه وخدمه رجل من خاصته هو هامان، أو حورمين، وذلك حين الحديث عمن أرسل إليه موسى بالدعوة، وجهر بالتحدى والتكذيب فحقت عليه الكلمة، إلا أن يكون مفهوما متعينًا من سياق الآيات.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤]

﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ

وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾
[العنكبوت: ٣٩، ٤٠]

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ [القصص: ٨]

﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾
[القصص: ٦]

وفى غير ذلك يتعين فرعون بداهة فيما يوجه الله من حديث عنه إلى موسى وقومه، أو فيما يجرى بين موسى وفرعون من حوار، أما التعميم فى أول القصص فينصرف الخبر فيه إلى ما وقع لموسى مع من عاصر من فرعون حكم مصر، وذلك فى قوله تعالى:

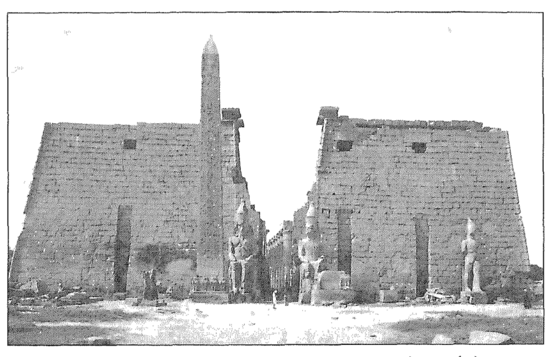
﴿ طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ١ - ٤]

وذلك فضلا عن الحديث عن آل فرعون.

كان فرعون مصر ملكا قوى النفوذ واسع السلطان، وصفه الله فى قرآنه العظيم بأنه «فرعون ذو الأوتاد». وهو وصف جمع فى إعجاز معجز، روعة البلاغة وغزارة البيان، وذلك فى تصوير قرآنى محكم يوحى فى النفس بإحساس الهول والشموخ، حين نستحضر صورة الجبل الباذخ فى قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ : ٦، ٧]

ولقد تمكن فرعون فكانت له فيها أوتاد أى أوتاد، ولئن صح - وهو الأرجح - أنه رمسيس الثانى وبنوه، فلقد كانت له من الآثار والمعابد فى أنحاء مصر كلها ما يهول بكثرته وعظمته وشموخه العقول ويحير الأوهام، وهو دليل ناصع على قوته وسطوته، وبيان ساطع على سلطانه فى جيوش من العمال وفيالق من المفنين وكتائب من المهندسين، كانوا كأنهم جن سليمان يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وصروح راسيات، ولعل فى تلك الآية من سورة ص، وأختها فى الفجر، تنبيها إلى ملك مصر وما انقاد له فيها من آيات العظمة والشموخ، ولو قد تناولنا فرعون بما يملك من أرض مصر وما عليها، وما أقام فيها كذلك مَنْ قبله لأدخلنا الأهرام وهى كالجبال فيما يوصف على الأسلوب القرآنى بالأوتاد.



(شكل ١٦) من صروح رمسيس الثانى ومسلاته - معبد الأقصر

على أن صورة الوتد من الخيمة قد سيطرت على فكر عرب المفسرين فقدروا الأوتاد مضارب كثيرة لأجناد له كثيرين، أو كانت له أوتاد يعذب بها الناس، وفسروا كذلك الآية بأنه ذو الملك الثابت، وذلك من ثبات البيت المطنب بالأوتاد، وذلك من قول العرب لمن تمكن فى أرض إنه ضرب بها أوتادا من الخيام.

كان لرمسيس - حقًا - أجناد كثيرون خاض بهم مع المشرق حروبا بل حروبا عوانا وحافظ بفضلهم على إمبراطورية عظيمة، امتدت من الفرات فى أقصى الشمال إلى الشلال الرابع على النيل فى أقصى الجنوب، ومع ذلك فما بال المفسرين يقولون إنه كانت له أوتاد يعذب بها؟! وماذا عسى أن تكون منزلة هذه الأوتاد التى يعذب بها فرعون وذكرها الله مرتين دليلا على التجبر بين المتجبرين، وإن أثبتت وثائق ذلك الزمان أن التعليق على رءوس الأوتاد قد كان من وسائل الإعدام[1].

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴾ [الفجر: ٦ - ١٠]

أفلم ينظروا إلى المسلات باسقات لها طرف حديد (شكل ١٦)، فإن كان لفرعون من أوتاد يذكرها له القرآن، فلتكن تلك المسلات تنطلق فَارعَة فى السماء من كتلة واحدة صقيلة من الجرانيت، وقد تعلو فتجاوز قامتها عشرين قامة من ذلك الصخر الشديد، أو تكن تلك الأعمدة والأساطين صافات، كأنها كثيف الغابات من أروقة المعابد وأبهائها.

(١) Youssef op. cit., Kitchen. op. cit III 1 1.73

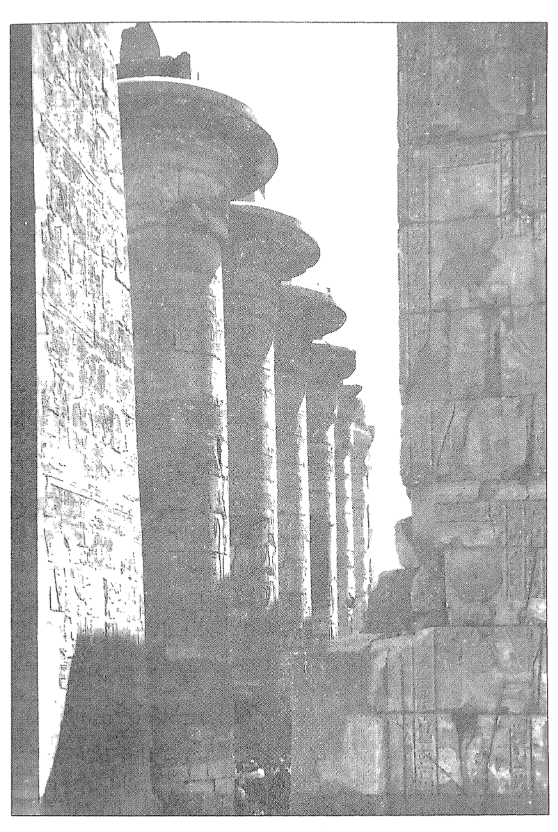
ومنها ـ كما فى الكرنك ـ ما نتق فى ارتفاعه فاستغلظ فاستوى على سوقه حتى لتقصر العصبة أولو البسطة فى الجسم باعًا أن تحدق بواحدها . (شكلا ١٧ ، ١٨) أو تكن الصروح التى تقوم بين أيدى المعابد قوية راسخة كالجبال ، بل لقد عبر القرآن عما اعتاد الفراعين من بناء شامخ الصروح فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [القصص : ٣٨]

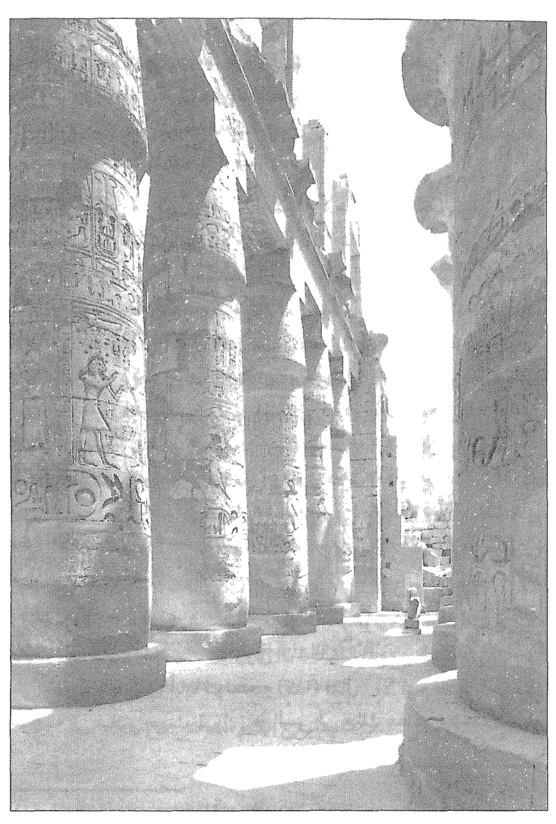
فأوقد لى يا هامان على الطين !!!

على أن ما عرف عن فراعين مصر ، وما تشهد به اليوم آثارهم ، أنهم كانوا ينشئون ما شاءوا من الحجر ، وهو مع تعدد أنواعه وألوانه كثير وافر يغنيهم عما سواه ـ إن أرادوا لما ينشئون الدوام والخلود . فكانوا يتخذون منه المعابد والمسلات والقبور ، ولم يصطنعوا الطين المحروق . ولغير ذلك كانوا يتخذون اللبن من طين غير محروق ، فكانوا يتخذون منه بيوتهم سواء كانت للعلية والملوك ، أم للعامة وغمار الناس ، وينشئون مخازنهم وأهراءهم بل وما كان منها ملحقا بالمعابد والمحاريب .

وربما تردد القارئ فيما يسمع من قول الله فى أمر فرعون ، أن يوقد له على الطين وقد عرف أن المصريين فيما خلفوا من آثارهم ، لم يتخذوا الآجر المحروق فى البناء قبل عصر الرومان ، ولكن المفسرين يذكرون فى تفسير أمر فرعون إلى هامان أنه أول من عمل الآجر فهو يعلمه الصنعة



(شكل ١٧) من أساطين رمسيس الثانى بالكرنك



(شكل ١٨) من بهو الأساطين بالكرنك من منشآت رمسيس الثانى

بهذه العبارة، وقد نقول بعبارة أخرى إن البناء بالآجر المحروق، قد كان يومئذ فى طلائع استعماله. وأكبر الظن أن المفسرين - كما بدا لنا من قبل - قد كانوا يستندون إلى طائفة كانت بين أيديهم من الخبر الصحيح عن مصر، وإن اختلط كذلك بما لا قيمة له من الأوهام.

ومهما يكن من شيء، فلقد أعثرتنا الأحافير على ما يوافق أقوال المفسرين، من حيث البناء بالآجر. إذ عثر عالم الآثار الإنجليزى پترى على طائفة من غير مألوف المصريين من الآجر المحروق، بنيت به قبور، كما أقيمت به بعض أسس المنشئات، وقد كانت هذه الأمثلة التى عثر عليها من عصر الأسرة التاسعة عشرة، عصر رمسيس الثانى، ومرنپتاح، وسيتى الثانى، وكان عثوره عليها فى نبيشة ودفنه غبر بعيد من عاصمتهم شرقى الدلتا، وقال پترى فى ذلك: إن حرق اللبن قد ظل نادرا حتى عصر الرومان[1]. وهو قول لا يكاد يخالف قول المفسرين من بدء اتخاذ الآجر المحروق على عهد فرعون موسى. وهو كذلك من قرائن القرآن التى نتخذها مطمئنين فى تحديد عصر الخروج، وبأنه إذن إنما كان على عصر الأسرة التاسعة عشرة التى بدأت - كما أثبتت الحفائر وألمع القرآن - تصطنع فى بنائها شيئا من طين محروق.

وبعد فلعل الذى ذكر القرآن فى دمار آثار فرعون، أن يدل بقوة التعبير عن قوة ما تناول التدمير . . ، روى أن الخليفة المأمون العباسى لما أقبل على مصر، فأقام فيها أياما لم تعجبه (كذا) فقال: ألا قبح الله فرعون ماذا أعجبه فى مصر حيث يقول: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ

(١) Petrie; Nebesheh and Defenneh. pp. 18-19, 47

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾(*)، فقال له أحد جلسائه: «يا أمير المؤمنين ولقد قال الله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾(*)، فإذا كان هذا هو ما بقى مما دمر الله فكيف كانت مصر قبل ذلك؟

فرعون الخروج:

على أن عذاب بنى إسرائيل - كما ذكرت التوراة - إنما وقع فى عهد فرعون، ووقع خروجهم فى عهد فرعون من بعده سواه، ولئن دلت القرائن على أن رمسيس الثانى قد كان فرعون العذاب، فقد شاع بين المؤرخين والكتاب، وأقروا على ابنه مرنپتاح بواقعة الخروج، وذلك بحكم خلافته أولا، ثم بحكم ما عثر عليه من نص يوشك أن يكون أشهر النصوص المصرية، وأوفرها حظا من عناية المؤرخين ثانيا. ذلكم هو نشيد النصر الذى نقش على لوح يحمل تاريخ العام الخامس من عهد مرنپتاح ويعرف بلوح إسرائيل، إذ ورد اسم إسرائيل عليه لأول مرة فى التاريخ فكان مرنپتاح بتلك الوثيقة الخطيرة فى رأى الكثيرين، وإيمانهم الراسخ صاحب الخروج، وغريق اليم من وراءموسى وقومه، ومع ذلك فقد أثار ذلك النص من الشكوك والجدل وانشعاب الآراء ما لم ينته إلى قرار يقين.

نقش ذلك النص - كما قدمنا - فى العام الخامس من حكم مرنپتاح،

(*) الزخرف: ٥١.

(*) الأعراف: ١٣٧.

وذلك فى أعقاب النصر الأكبر الذى أحرزه على شعوب البحر المتوسط، وقبائل الليبيين، وكان نصره آنئذ خاتمة لما أحدق بمصر فى عهده من أخطار فى الشرق والغرب، حيث أحس الناس أن قد آن لهم أن يتمتعوا بالسلم بعد الحرب، وبالأمن بعد الخوف، وقد أزيح عن كاهلهم بذلك عبء كأنه جبل من نحاس، كما يصف النص فى بعض مواضعه، وهو يشيد لذلك بقوة مرنبتاح وشدة بأسه وشجاعته بما أحرز من ظفر بالأعداء والعصاة والثائرين، وهو فى أثناء ذلك يحصى من غلبهم من القبائل والشعوب ومن بينهم إسرائيل فيقول:

الشمس قشّعت غيما كان على مصر

ومكنت مصر أن ترى شعاع الشمس

فأزاحت جبلا من نحاس عن كاهل الناس

فمنحت الأنفاس للشعب الحبيس

إنه الوحيد الذى ثبت أفئدة المئات من الألوف

إذ تدخل الأنفاس إلى أنوفهم

الفرح العظيم حل بمصر

والحبور انطلق فى مدائن مصر

إذ يتحدثون عن النصر الذى أحرزه

مرنبتاح الراضى بالعدل

فى تحنو

أحبب بالحاكم المنتصر
وما أعظم الملك فى الأرباب
وما أسعده سيدا للحكم
وما أحلى الجلوس والناس يتسامرون
إذ يمشى وسيع الخطى
فلا خوف أبدا فى قلوب الناس
إذ هجرت القلاع لنفسها
وفتحت الآبار للرسل
ومتاريس القلاع آمنة فى الشمس
حتى ينهض الحراس
والمازوى[1] ممدون نائمون
والنياو والتكتن فى المروج كما يشاءون
وأنعام الحقول تركت بغير راع
بل تعبر لج الجعفر
ولا تنطلق صرخة ما فى الليل أن قف
إذ أتى آت بلغة أجنبى
بل يغدو الناس ويروحون بالغناء

---

(١) أى الشرطة.

فلا صياح للناس كما يكون فى الأحزان

وأسست المدائن من جديد

فحارث حصده سوف يأكله

فلقد عاد رع إلى مصر

ذلك الذى نشأ مقدرا عليه حمايتها

الأمراء جاثون يقولون سلام

ما من أحد يرفع رأسه

من بين الأقواس التسعة

القضاءعلى تحنو

وختا آمنة

ونهبت كنعان بكل سوء

وأخذت عسقلان وقبضت جازر

وجعلت يانوعام كأن لم تكن

وكانت إسرائيل عقيما لا بذرة لها

وصارت سوريا أرملة[1] لمصر

البلاد كلها مجتمعة فى سلام

وكل من كان فى ثورة جعل فى الأغلال

---

(١) فى المصرية جناس لفظى بين الكلمتين سوريا (خارو) وأرملة (خارة).

بيد ملك الصعيد والدلتا بان رع حبيب آمون

مرنپتاح الراضى بالحق

* * *

وقد رأت طائفة من المؤرخين من هذا اللوح أن إسرائيل إن كانت قد تعرضت فى فلسطين لهزيمة مرنپتاح، فقد انبغى بالضرورة أن يكونوا خرجوا من مصر واستقروا - بعد أربعين عامًا من التيه - فى فلسطين فى عهد سلف من أسلاف مرنپتاح، لذلك فقد افترضوا تحتمس الثالث، وامنحتب الثالث، وآخرون ردوا خروجهم إلى عهد يوعح موسى مع الهكسوس، ولكن طائفة أخرى لا تجد عما ذكر فى التوراة من حديث عن مدينتى رعمسيس وبيثوم حولا، وتجد فى ذلك ركيزة مكينة فى نسبة العذاب إلى رعمسيس منشىء مدينة رعمسيس ونسبة الخروج إلى ابنه مرنپتاح، ولذلك فهم يحاولون الخروج من ذلك النص إلى أن مرنپتاح وقد طارد بنى إسرائيل خارجين من مصر، فقد افترض أنه أهلكهم، أو أنهم هالكون لا محالة فى الصحراء حيث يتعرضون لمذابح الشاسو.

ومع ذلك فكيف يتعرضون لمذابح الشاسو ولا تتعرض للخطر قوافل التعدين المصرية؟!

على أن هناك أمورًا فاتت المؤرخين فيما استندوا إليه من نسبة الخروج إلى مرنپتاح، ذلك أن خروج بنى إسرائيل قد شهد نهاية فرعون بغرقه وراءهم على حين عاش مرنپتاح خمس سنين أخر بعد مواقعه التى سجلها على ذلك اللوح، وفضلا عن ذلك فقد قرر هؤلاء المؤرخون

وسلموا فى أمر بنى إسرائيل - على غير طبيعة الأشياء - أن يكونوا احتملوا الذل والاضطهاد لا يريمون ولا يتحركون أجمعين، وأقروا بغير جدل أنهم أقاموا برمتهم ما شاء الله فى أرض جاسان، ثم ارتحلوا برمتهم إلى حيث شاء الله من أرض سيناء ثم فلسطين، وكانوا فيما ذكر سفر الخروج «نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد»، وذلك فضلا عن «لفيف كثير أيضا» لم تذكر هويتهم «مع غنم وبقر ومواش وافرة جدا».

وما أظن أو يظن معى مفكر أن يخرج بنو إسرائيل سرا بليل بهذا العدد الضخم، من بين المصريين وهم لا يشعرون، بل يخرجون من العاصمة كما ذكر سفر الخروج، فلا يتصل بفرعون فرارهم إلا وقد رحلوا من رعمسيس، إلى سكوت، إلى ايتام فى طرف البرية، ثم إلى فم الحيروت بين مجدل والبحر أمام بعل صفون، وقد قدمنا من قبل تهافت ذلك التقرير، وما كان لهم أن يشعروا بذلك الرعب حيال فرعون وجنوده وهم بهذه الكثرة. فإذا رجعنا إلى كتابه تعالى - ونحن دائمًا إليه راجعون - فقد وصفهم بالقلة فى سورة الشعراء فيما روى عن فرعون:

﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤]

وأكبر الظن - وتلك طبيعة الأشياء بل طبيعة بنى إسرائيل خاصة - أنهم كانوا حيث هم على تخوم مصر الشرقية، يتسللون منها كلما اشتدت وطأة الحياة فيها عليهم، وأنهم ازدادوا تسللاً وفرارًا منذ استن فيهم فرعون سنته تلك الرهيبة، إذ يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم، وقد كان موسى نفسه ممن خرج منها فرارًا مما قد ينزل به من عقاب، وفيما روينا من واقعة العبدين الآبقين مثل ناطق على ذلك التسلل الذى حمل السلطات المصرية يومئذ على استنفار شرطتها عليهما وتعقبهما فى جد

وإصرار، ولعل السلطات المصرية لم تجدّ هذا الجد إلا بعد ازدياد أحداث التسلل والفرار على عهد سيتى الثانى.

وقد كان بنو إسرائيل كما ذكرت التوراة وقرر القرآن حريصين - لولا رفض فرعون - على التحول عن مصر والتحرر مما هم فيه، خليقين - ما دام فرعون مصراً على إمساكهم واستعبادهم - بالتفكير فى الخلاص سراً ما سنحت فرص التسلل والفرار، ولنا فى المسلمين الأولين فى هجرتهم الأولى إلى الحبشة وتسللهم من مكة إليها مثال وبيان.

وأكبر الظن إذن أن أفواجا من بنى إسرائيل، قد تسللت من مصر حيث انساحوا فى البوادى من بقاع فلسطين، فأقامت طوائف منهم حيث طابت لهم الإقامة قلة لا يقام لها وزن، وطائفة لا يحسب لها حساب، وقد عاشوا هناك مع أبناء جلدتهم من الساميين لا يختصون بأرض ولا يمتازون، أو لا يكادون يمتازون عنهم فى خلق ولا خليقة، ولكنهم كانوا على كل حال يذكرون جدهم الأعلى ويردون نسبهم إلى إسرائيل، ولعلهم بدأوا تسربهم هذا أواخر عهد أخناتون منذ حال وجه الحياة فى مصر فى أعقاب الصراع الدينى العنيف، وأنهم أقاموا على هذا التسرب الذى بلغ أقصى مداه فى عهد رمسيس الثانى، وصدر من عهد مرنپتاح، حتى عرف لهم فى فلسطين عدد يحمل اسم إسرائيل، ولكنه لم يعل على أسماء القبائل هناك، إذ كانوا يومئذ قلة مستضعفة لا خطر لها ولا خطر منها إلا ما تثيره الأقليات والطوائف المنعزلة بنفسها من صدوفها عن أن تختلط بالشعب الذى تعايشه وتحيا فيه. بل لعل فى عبارة الشاعر بما وصفهم به من العقم وانقطاع البذرة أى الذرية اشارة إلى ما تعرضوا له فى مصر من ذبح البنين.

فلما اندلعت الثورة فى أملاك مصر غربى آسيا، وقمعها مرنپتاح إذا

بالشعراء من المصريين يتغنون بانتصاره وظفره، وإذا ببعض هؤلاء الشعراء حرصا منه على إجلال فرعون يعدد ما اتصل بعلمه ـ قل أو جل ـ من أسماء المدن والقبائل والشعوب ممن خضع لمليكه المظفر المغوار، وكان اسم إسرائيل مما عرف أو سمع هناك فظهر فى قصيدته، فكان ذلك أول ذكر لإسرائيل فى التاريخ، وقد تناغم مع إنشاد هذا الشاعر المصرى أن من هؤلاء الناس طائفة فى وطنه فى أرض جاسان.

غير أن الذى لا شك فيه أن الشاعر قد كان على يقين من أن بنى إسرائيل لم يكن لهم يومئذ فى الأرض مكان، ومن ثم فى التاريخ، فلقد درج المصريون فيما يخطون من هيروغليفية وهيراطية أنهم كانوا يلحقون بهجاء اللفظ صورة، أو علامة تدل على المعنى وتخصصه، وكانوا فى ذكر المواضع والشعوب يلحقون بأسمائها رسما يدل على الأرض السهلة إن كانت مصرية، أو رسما يدل على الأرض الجبلية الوعرة ـ ورمزا آخر للأجنبى ـ لغير المصرى، وفى تلك القصيدة ورد ذكر تحنو، وختا، وورد ذكر كنعان، وعسقلان، وجازر، وينوعام، ثم اسم خارو (سوريا) وألحق بكل منها رسم الأرض الأجنبية الوعرة بغير استثناء، أما اسم إسرائيل فقد كان الاسم الوحيد الذى استثنى من رسم الأرض، حيث لا أرض يومئذ لها فى فلسطين، ولا فى غير فلسطين، بل ألحق باسمها رسم رجل وامرأة دلالة على الجمع من الناس ليس غير، ولا سبيل فى هذه القصيدة إلى التشكيك بما قد يقال من احتمال خطأ الكاتب المصرى وسهوه[1]، ولا جرم يأتى هذا التشكيك من أستاذ أمريكى جليل يعيش وسط كثرة من يهود، فهو يستشعر الحرج بين الحق الأبلج، والتعصب

---

(١) Pritchard, op. cit., p. 378, note 18

الأخرق، وعندى أن الكاتب المصرى قد كان موفقا واعيًا، فلقد وردت أسماء الشعوب والبلاد الأجنبية فى ذلك النص تسع عشرة مرة، لم يغفل رسم الأرض الأجنبية فيما ذكر، فى واحدة منها مما سبق اسم إسرائيل أو لحق به، بل كان من دقته أنه فى ذكر اسم الشرطة المصرية ـ وقد كان رجالها يتخذون من مازوى النوبة ـ قد اقتصر مع رسم رمز الناس على رمز يدل على الأجنبى دون رسم الأرض لأنهم فى غير أرض لهم[1] (شكل١٩).

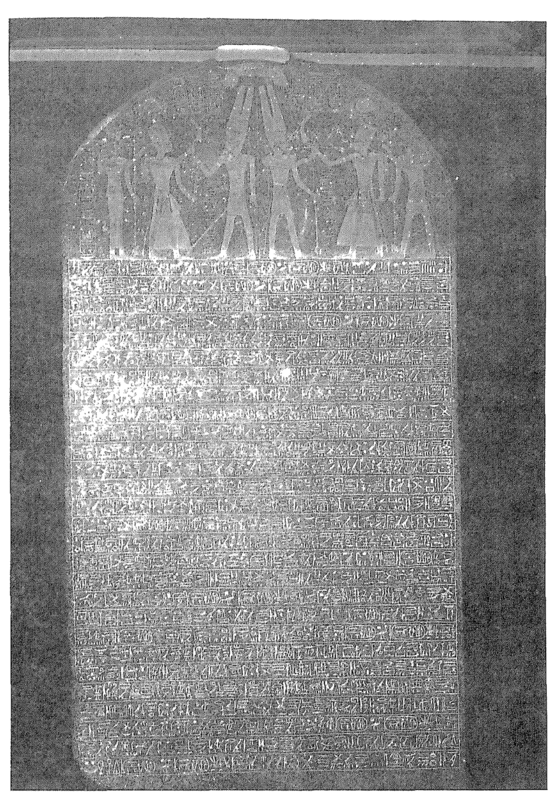
نخلص من ذلك كله إلى أن لوح إسرائيل، إنما دل على طائفة من بنى إسرائيل قد كانت فى بعض بقاع فلسطين أو عند تخومها، حين خروج مرنپتاح ـ إن كان خرج ـ لقمع الثورة هناك، وأن هؤلاء قد كانوا خرجوا من مصر عن طريق الهجرة أو التسلل، وأن مرنپتاح لم يكن إذن صاحب الخروج، وقد عاش بعد قمع تلك الثورة التى شملت ذلك البطن من إسرائيل أعواما خمسة، حيث نعمت مصر على مدى تلك الأعوام بسلام ورخاء تغنى بهما الشعراء، وحيث بلغ من استتباب الأمن على التخوم أن القلاع قد تركت حيث قامت متاريسها فى ضوء الشمس، ورجال الشرطة ممددون نائمون.

وتدل كذلك على انتهاء حركات التسلل ـ أو قلتها ـ فلا حاجة بالعسس إلى الصياح بليل آمرين أن «قف» مبلغين عن أجنبى قادم يدير لسانه بلغة أو لهجة أجنبية.

ثم يتأيد ذلك كذلك بوثيقة من أواخر عهد مرنبتاح تدل على سواد الهدوء والنظام على التخوم الشرقية وتدل على ما كان لسلطات الأمن

---

(١) Kitchen, Ramesside Inscriptions IV 19



(شكل ١٩) نشيد النصر (لوح إسرائيل)

فى حكومته من سيطرة كاملة على حركات الناس والبدو فى تلك البقاع، فلا حلّ ولا ترحال إلا بإشرافها وتحت عيونها، وذلك فى تقرير رفعه إلى كاتب الخزانة قاجابو كاتب من مرءوسيه اسمه انينى يقول:

«لقد انتهينا من تمكين قبائل الشاسو (البدو) من أدوم من اجتياز قلعة «مرنپتاح حتپ حرماعت» التى فى ثكو إلى برِكَ پيتوم مرنپتاح حتپ حرماعت التى فى ثكو، وذلك لإعاشتهم وإعاشة قطعانهم بفضل فرعون الشمس الوضاءة لكل أرض، فى العام الثامن فى أيام النسىء يوم مولد ست»[1].

ولا أكاد أشك فى أن يكون المصريون قد شملوا بنى إسرائيل ضمن من عرفوهم بالشاسو فى تلك البقعة من شرقى مصر، فكلهم عند المصريين بدو ساميون، وكلهم من الشاسو الرعاة. وغير بعيد أن تكون جلتهم يومئذ هناك من بنى إسرائيل.

وقد امتد العمر بمرنپتاح حتى اكتمل حكمه عشر سنين، وقد طعن فى السن وتقدمت به الأيام، إذ بدا من فحص مومياثه[2] تصلب الغضاريف من حنجرته فإذا هى عظام كلها، وفى ذلك ما يدل - فى رأى الطب والأطباء مع صلعة وما تبقى من بياض شعره الأشيب - على أنه بلغ من الكبر ما يقعد به، أو يوشك أن يقعد به عن الخروج فى حملات الحرب والقتال، ولئن كان لا يخرج فى الحملات الخطيرة التى تتعرض فيها مصر

---

(١) ثالث أيام النسىء. انظر:

Gardiner, Late Egyp. Misc. p. 76-77; Caminos, Late Egypt. Misc. p. 293; Pritchard, op. cit. 259

(٢) Elliot Smith, Royal Mummies p. 69

للعدوان والفتح الاستيطانى من قبَل الغرب، فلم يخرج عند هجوم الليبيين فى العام الرابع، ولا ثبتَ خروجه فى الزحف الأكبر الذى وجهوه على مصر فى العام التالى، فأحرى به لو وقع الخروج أواخر حكمه ألا يخرج لإدراك هؤلاء الهاربين، وهم كما وصف القرآن شرذمة قليلون، ولذلك فأحرى بحكم السن أن تكون نهايته وفاة بحكم الشيخوخة فى ختام العمر.

وكذلك فالراجح أن يكون فرعون الخروج شابًّا أو رجلاً مكتمل الصحة موفور النشاط، وهو ما يتبين من جثة سيتى بمتحف القاهرة[١] (شكل ١٤) حيث الموت المفاجىء بغرق أدنى إلى العقل والاقتناع.

وقد نجد فيما أورد القرآن بين موسى وفرعون من جدل كان يعنف حتى يبلغ حد التراشق، قرينة أخرى على شخص فرعون الخروج. فما كان موسى بأدبه الربانى ليتحدث بهذا العنف إلى رمسيس الأكبر الذى تربى فى كنفه إذ كان أبا الأميرة التى ربته وأنبتته نباتًا حسنًا، ولا إلى زوجها مرنپتاح وكان منه بمنزلة الأب والخال، وحسبنا تذكر ما كان لزوج مرضعة نفرتيتى «آى» من المنزلة فى قصر أخناتون حتى تولى العرش من بعد توت عنخ آمون.

وظاهر إذن أن موسى إنما كان يتحدث إلى ترب أصغر من أترابه - من بنى رمسيس أو أحفاده تربى معه فى أكبر الظن[٢]، وارتفعت بينهما من قبل الكلفة وزالت الرهبة بحيث يقول له موسى: ﴿ **وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا**

---

(١) op. cit., p73

(٢) ولعله ابن الأميرة التى احتضنت موسى إذ ولدته من بعد ذلك.

﴿فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ (*) أى مغلوبًا على أمرك ممنوعًا من الخير، ولم يكن رمسيس الثانى ولا كان مرنپتاح باللذين يوصفان بالمثبور، ولعل فى اقتران اسم فرعون فى القرآن باسم هامان إشارة إلى بطانة وحاشية كان لها عليه من النفوذ ما أضله وما هدى فحقت عليه كلمة المثبور، وذلك فضلا عن زوجته تاأوسرة بما عرف لها فى التاريخ من شخصية ونفوذ، وشتان كما تثبت شواهد التاريخ بين شخصية الأوالى من فراعين الأسرة التاسعة عشرة وشخصية أواخرهم. شتان ما بين سيتى الأول ورمسيس الثانى، وما بين مرنبتاح، ثم ما بين مرنپتاح وابنه سيتى الثانى.

وفضلا عن ذلك فإن ما تبين من نشيد النصر الأكبر من تمتع الناس أيام مرنپتاح - من بعد خوف واضطراب - بأمن ورخاء، وما تحدثت به أخباره يومئذ عن سعة وفيض من رزق مكناه من غَوث الحيثيين فى مجاعتهم بأوساق من قمح[1]، وما عرف وقدمنا عن عهد سيتى الثانى من فوضى واضطراب، وما ورد عن عهد صاحب الخروج من نوازل الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم في قوله تعالى فى سورة الأعراف (آية ١٣٠) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ ليحمل على تضييق الدائرة على سيتى الثانى، ويكون هو دون سواه، فى أكبر الظن، صاحب الخروج.

ومهما يكن من شيء، فظاهر من القرآن - والله أعلم - أن مرنپتاح قد كان أرحم من أبيه ببنى إسرائيل، وأن سيتى الثانى حين ولى العرش قد تابع ما اتبع أبوه من سياسة السماحة واللين، وآية ذلك أن موسى حين

(*) سورة الإسراء (١٠٢).

(١) Kitchen, op. cit IV p. 5 line 24; Breasted op. cit. III § 580.

جاءه بالبينات إذا بالملأ من حوله يحرضونه على استئناف سياسة جده فيهم من القتل والتعذيب، وأنه أوعد بها على التحديد.

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٧]

حيث نخرج من ذلك أن حياة موسى قد شهدت أطوارا ثلاثة :

١ - كان الأول حين مولده تحت فرعون يضطهد بنى إسرائيل ويعذبهم، يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم فدفعً ذلك بأمه - بإلهام من الله - إلى إلقائه فى اليم.

٢ - وكان الثانى حين بلغ أشده واستوى على عهد بَطُلَ فيه ذبح البنين وخف العذاب، وتمتع فيه بنو إسرائيل بقدر من سماحة ولين أغرياهم بشىء من جرأة وتبجح، فلم يكن لإسرائيلى أن يقتتل مع مصرى فيستنصر عليه موسى فيقتله، ثم يعود إلى قتال آخر بعد مقتل الأول إلا فى ظل سماحة تمتعت بها طائفته وأمن استمرأته شيعته، وقد كان محتملا أن تتعرض الطائفة كلها لنقمة فرعون والناس بعد قتل مصرى، والشروع فى قتل آخر. ومع ذلك فقد بلغت السماحة يومئذ بحيث لم يطلب غير موسى بدم ذلك القتيل، وبما عسى أن يكون فتنة وفسادا فى الأرض.

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٠]

وحسبنا تلك الآية دليلاً عمن كان فى مصر يومئذ من قوم- لا شك من أولى القربى من السلطة والمطلعين- يعطفون على موسى ويرجون له النجاة، وفيهم من ألمع القرآن إليه فى قوله عز وجل:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ [غافر: ٢٨]

٣- وكان الثالث حين عاد موسى إلى مصر بالرسالة فإذا به يثير فى قوم فرعون مكامن العداوة والبغضاء، فيحرضون مليكهم كما قدمنا على استئناف ما كان قد انقطع فى بنى إسرائيل من التعذيب.

على أن هناك مسألة تعرض لنا قبيل ختام ذلك الحديث فى أمر تعذيب بنى إسرائيل وتسخيرهم، وما نفترض من شدته على عهد رمسيس الثانى، وخفته من بعده، أكان ذلك مرتبطا بكثرة ما أقام رمسيس من معابد ومنشآت وقلة ما أقام أخلافه؟ فإن ما ملأ به رمسيس مصر من أقصاها إلى أقصاها من معابد وقبور ومدن وقصور، ليجل عن الحصر والتقدير، حيث وجد كما نفهم من سفر الخروج (٥: ٦-١٨) فى بنى إسرائيل يدا عاملة وقوة بشرية، تحتمل عن المصريين الأعمال الدنيا والأعباء الثقيلة من اقتطاع الحجر، وضرب اللبن ونقله إلى موضعه من البناء.

وعن بردية بتحف ليدن اليوم من عهد رمسيس الثانى أنه استخدم- بإشراف الشرطة- فى جر الحجر لبناءصرح ضخم فى معبد له طائفة سميت «عپرو» لا شك يذكِّرون بالعبرانيين وإن تردد بعض العلماء فى القطع بانتساب أولئك إلى هؤلاء[1].

(١) Gardiner, Late Egyptian Misc. p. 134; ibid em., Onomastica I., Caminos, Late Egypt. Misc. pp 491-494.

- ٥ -
موسى والخضر

ذكر القرآن موضعا يلتقى فيه بوعد من الله - موسى والخضر (عليهما السلام) وصفه بأنه مجمع البحرين فى قوله تعالى من سورة [الكهف : آية ٦٠]:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾

وقد ذكر النسفى والبيضاوى فى مجمع البحرين أنه ملتقى بحرى فارس والروم، وأضاف أبو السعود افتراض طنجة، أو مواضع أخرى من أفريقية، غير أن المأثور من سيرة موسى أنه لم يغادر مصر إلا إلى مدين أولا، ثم غادرها مع بنى إسرائيل فى خروجهم الذى أعقبه التيه فى سيناء حيث مات موسى من بعد هارون قبيل دخول فلسطين. وأكبر الظن أن موسى إنما تلقى ذلك الوعد فى أعقاب الوحى فى جنوبى سيناء، وأنه تلقاه وهو فى طريقه مع فتاه إلى موطنه من مصر مساحلا شاطىء خليج السويس الشرقى حيث تصيداً حوتا يقتاتان به، غير أن موسى فيما تلقى من وحى لم يُسَمّ له بقعة بعينها إلا أنها مجمع البحرين. وقد تحير،

بحكم خبرته بأرض مصر، فى مجمع البحرين هذا المقدور، فقد يكون الذى بين رأس خليج السويس - وكان حينئذ أبعد امتداداً إلى الشمال - وبين البحيرات المرة وبحيرة التمساح، أو عند اتصالها بالقناة التى تخرج من النيل إليها، وقد يكون فيما بين بحيرة التمساح وبحيرة البلاح، أو بين هذه وبحيرة المنزلة عند قلعة ثارو محط المسافرين. ومن ثم كان عزمه وإصراره - إذ قال لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا - على المسير إلى ماشاء الله حتى تتجلى آية الله، فيكون اللقاء بالمعلم الموعود، ولو ارتاد كل ما يعرف من بقاع تكون مجمعا لبحرين. وكأنما كان دعا موسى ربه حين الوعد بذلك اللقاء، قال رب اجعل لى آية قال آيتك أن يضيع الحوت سربا.

وقد كان الوعد - على كل حال - سراً بين الله ونبيه أخفاه موسى فلم ينبىء فتاه عما يبحث، وحسب الفتى أنهما إنما يقصدان مجمع البحرين.

وقد كان إلى الشمال من رأس الخليج عند الطرف الجنوبى من البحيرات المرة - في أكبر الظن - أن هبط موسى وفتاه عند صخرة يستريحان وذلك عند أول مجمع بحرين يلقيان.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ [الكهف: ٦١]

ولم يكن لموسى من هم غير ما تلقى من وعد ربه، وما يتوقع من لقاء أخفاه عن فتاه، كما لم يكن للفتى من هم سوى الحوت، وما أسرّ فى نفسه من ذهابه فى البحر سربا خوفا من بطش مولاه، ثم ما لبث موسى - وقد افتقد ما يبغى من لقاء حيث عاجَ هناك - أن نهض يستأنف إلى مجمع آخر الرحيل.

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف : ٦٢ - ٦٤]

وقد عاد موسى وفتاه إلى حيث كانا قد هبطا من شاطىء البحر

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف : ٦٥، ٦٦]

وقد كان لابد - فى أول دروس التربية - أن يصدم موسى بإجابة ترده إلى نفسه، وتنبهه إلى أن فى علم الله ما لم يحط به خبرا، وأن الله قد يؤتيه غيره ويزداد به عليه.

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) ﴾ [الكهف : ٦٧ - ٧١]

كانت رحلة موسى كما هو بيّن من القرآن برًا، وكان موسى فى طريقه إنما يقصد مجمع البحرين هذا، حيث بلغه مشيًا حتى نسيا حوتهما، ثم عادا سيرا إليه حيث افتقد الحوت وعرف بضياعه فى البحر ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ لما خلفت أقدامها فى الأرض، هناك وجد الخضر عليه

السلام، وهناك انعقد بينهما العهد على الصحبة فى سبيل العلم والرشد اللذين يأخذهما موسى عنه، فانطلقا حيث خلفا مجمع البحرين وراءهما إلى حيث يريدان.

ولا أكاد أشك فى أنهما دخلا بعد ذلك إلى سواد مصر، حيث الملاحة فى النيل عماد الحياة فيها، وحيث ينتقل الناس والأنعام والحصيد بالسفائن، فلا غناء عنها للملك ولا لشريف ولا لمالك أرض، أو فلاح أجير. بل لقد كانت حيازة السفن هى الفيصل أحيانا بين الحياة والموت أيام المجاعة، حيث تدعو الحاجة إلى نقل الغلال إلى بلد جائع من بلد بعيد، ولذلك فقد كان احتياج البلاد إلى السفن عظيمًا، وكانت الدولة فى بعض الأحيان تفرض على الناس إمدادها بما كانت فى حاجة إليه من السفن إذا خرج الملك فى موكب، أو رحلة إلى بعض بقاع ملكه، فكان على السلطات المحلية تدبير كل شىء لتلك الرحلة، بل كان عليها تدبير الرحلة لرسول الملك لا للملك نفسه، وكان الوزير منذ الأسرة الثامنة عشرة مسئولا عن نظام النقل بأسره فى مصر، حيث ورد عن رخميرع وزير تحتمس الثالث ما نصه: «إنه الذى يمد بالسفن كل من ينبغى إمداده بها»[1] ولقد كان نقص السفن فى مصر، أو الاضطراب فى مسيرها مدعاة إلى ضعف الرقابة على البلاد، وقد أدرك حورمحب ذلك حين تولى السلطة وقد هوت البلاد فى حضيض من الفوضى والفساد، فرد الاضطراب وضعف السلطة فيها إلى الإسراف فى الاستيلاء على السفن، فكان أن أصدر فيما أصدر من قوانين صارمة قانونا بعقاب المستغلين لنفوذهم من المتهمين بأخذ السفن لأنفسهم غصبًا[1]. بل لقد

(١) Sethe, Urkunden der 18. Dynastie 1116.

كانت هذه الآفات الخلقية عميقة الجذور فى مصر، بحيث اضطر بطلميوس الأول من بعد حورمحب بألف سنة إلى إصدار قرار بمنع الموظفين من أخذ السفن لأنفسهم غصباً(٢).

دخل الخضر وموسى مصر فى ظل تلك النظم والعادات ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ [الكهف: ٧١]

ولم تكن رحلة موسى والخضر بالسفينة إلى بعيد، فلم تكن سوى رحلة نيلية، ينزلان بعدها فى بعض بقاع مصر حين يواصلان المسير، ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ [الكهف: ٧٤ - ٧٦]

وكان مسيرهما فى بلاد عامرة بالقرى والناس ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ

---

(١) Helck, Urkunden der 18. Dynastie 2240 ff; Breasted, Ancient Records III §§ 45-66.

(٢) Kees, Ancient Egypt, A Cultural Tapography (London 1960 pp. 102-104).

لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف : ٧٧ - ٧٩]

وقد بينا ما كانت تلجأ إليه السلطات فى مصر من استيلاء على السفن أحيانا، فهى واقعة أشبه بمصر وأقرب إلى أحوالها، ولعل فرعون يومئذ قد كان فى إحدى جولاته فاقتضى لذلك جمع السفن مما كان يجرى فى النيل.

﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٨٠ - ٨٢]

وبعد فلقد كان للغلامين كنز من تحت الجدار، ونؤثر أن نترك الحديث عن الكنوز فى مصر إلى حين.

-٦-
عيسى

وقدر الله لعبده ونبيه عيسى بن مريم أن يهبط مصر حين كان فى المهد صبيًا. قال تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾
[المؤمنون : ٥٠]

أوى عيسى وأمه إلى ربوة ذات قرار ومعين، وهى فى تفسير البيضاوى وأبى السعود أرض مرتفعة ذات مستقر من أرض سهلة، يستقر عليها ساكنوها، أو ذات ثمار وماءوزرع ليخلدوا إلى ذلك القرار، بمعنى أن ساكنيها إنما يستقرون عليها لما فيها من ثمار، أما المعين فهو الماء الجارى الظاهر، ولكنهم فى تعيين الربوة قد افترضوا جملة فروض لم يغفلوا مصر فى أى افتراض مما أخرجوا، فقالوا: هى بيت المقدس أو دمشق، أو الرملة، أو مصر، ومع ذلك فما نعلم أن عيسى بن مريم وأمه قد أويا إلى دمشق، أو الرملة، أما جلال الدين السيوطى، فقد نقل عن السلف ما يفسر تلك الآية، ويؤول الربوة أنها مصر[1] قال: «أخرج ابن

---

(١) فى حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة «المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٧» ص ٣.

أبى حاتم عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم فى الآية هى مصر، قال وليس الربى إلا بمصر والماء حين يرسل يكون الربى عليها أى القرى، ولولا الربى لغرقت القرى، وأخرج ابن المنذر فى تفسيره عن وهب بن منبه فى قوله إلى ربوة ذات قرار ومعين قال مصر، وأخرج ابن عساكر فى تاريخ دمشق من طريق جرير الضحاك بن عباس، أن عيسى كان يرى العجائب في صباه إلهامًا من الله، ففشا ذلك فى اليهود، وترعرع عيسى فهمت به بنو إسرائيل، فخافت أمه عليه فأوحى الله إليها أن تنطلق به إلى أرض مصر، فذلك قوله تعالى وآويناهما إلى ربوة قال يعنى أرض مصر»[1].

ولعل فيما ذكر من وصف الربوة بكونها ذات قرار ومعين ما يوحى بامتيازها بالمياه الجارية، وهو ما يرجح مصر فى ذلك المقام، وكان الماء حين يرسل أوان الفيضان، يكون الربا عليها أى القرى وذلك في الزمان القديم.

وفي ذلك حديث نفصله من بعد ذلك تفصيلاً.

---

(١) انظر ص ١٠.

ـ ٧ ـ
الأرض

لم تحظ أرض من القرآن بوصف ولا تكريم بمثل ما حظيت به مصر، إذ أنزل الله على نبيه من محكم آياته صورة رائعة مشرقة بما حبيت به من فضل الله وما أوتيت من حظ عظيم، ويصور مع ذلك وصفها وسماتها التى برأها عليها، وما وطن فى أرضها من كنوز، وما أخرج فيها من نبات شتى، وما أفاض عليها من رزق يمير أهلها، ومن يطرأ عليهم من طاعمين ونازحين؛ إذ يهبطون ـ بفضل ما عمر نفوس أهلها من السماحة واللين ـ آمنين. وقد جاءهذا التصوير صريحًا مباشراً من كلام الله عز وجل، أو جاريا على لسان يوسف، أو لسان فرعون.

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٥١]

وقد دل القرآن بتلك الآية، وما تشابه منها، على ما أضل فرعون وأغواه، فلم ير فيما وعده موسى من فردوس الآخرة مزيداً على ما لديه من ملك، فأرسل نداءه متعجبًا مستنكرًا عما يبشر به من جنات تجرى من تحتها الأنهار، وعنده مصر جنات تجرى من تحتها الأنهار، ومن روائع

الإعـجـاز فى تلك الآية مـا تنطوى عليـه وتكنى عنه من إيمان فـرعـون والمصـريين معـه، بأن وطنهم صـورة مثلى للفردوس لا يفوقـه فردوس سواه، وهو واقع تاريخى ثابت فى عقائدهم تبرهنه آثارهم وما تركوا من متون ونصوص ورسوم، فلقد كان المصرى يقدر أنه فى الآخرة من بعد الحساب والبراءة أو «صدق الصوت» فى تعبيره - متمتع فى جنان يارو بمثل أرض مصر، التى أحبها، وشغف بها، وأنه مرتد هناك إلى مثل ما اطمأن إليه وسعد به من حياته فى الدنيا، بما فيها من حرث وبذر وحصاد.

وكأنما نظر فرعون وهو فى مقره فى بررعمسى، فرأى النيل ينطلق من منابعه البعيدة حتى إذ شارف البحر إذا به يتفرع سبعة أفرع - لم يبق منها اليوم إلا فرعان - تجرى من تحته حيث يقيم.

ثم يرجع البصر كرتين فيشهد - أينما حل - من ملكه جنات ألفافًا، ويرى فيها حبا وعنبا وقضبًا، وزيتونًا ونخلاً وحدائق غلبًا، وفاكهة وأبًا، أجل: جنات تجرى من تحتها الأنهار.

وهى كذلك كما وصفها الله فى محكم آياته وكريم قرآنه، بل حسبها من وصف الله أن يكون المقام فيها نعمة للمقيمين، والخروج منها نقمة على الخارجين، ألم يعاقب الله فرعون وملأه أن أخرجهم منها فى قوله تعالى:

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾

[الشعراء: ٥٧، ٥٨]

وفى قوله عز وجل مؤكدا:

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٧]

وقد ذكر السيوطى - فى حسن المحاضرة - عن الكندى قوله فى هاتين الآيتين: لا يعلم بلد فى أقطار الأرض أثنى الله عليه فى القرآن بمثل هذا الثناء، ولا وصفه بمثل هذا الوصف، ولا شهد له بالكرم غير مصر، ولا غرو تكون بما وصفها الخلاق العليم مثابة للناس وأمنا، وتكون الحاضرة وما سواها بدوا، ألم يعلن ذلك فى قرآنه على لسان يوسف فيما روى عن يعقوب وبنيه:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ [يوسف: ٩٩، ١٠٠]

حيث أووا عند جنات وعيون وزروع ومقام كريم، أو ربوة ذات قرار ومعين، وذلك وصف لما كانت عليه مصر حتى عهد غير بعيد قبل إنشاء السدود، إذ كان النيل إذا أقبل بفيضه فى الصيف امتد فغمر الأرض بمائه فظلت تحت الغمر أمدا يمتد ربع العام؛ ولذلك فقد عمد المصريون إلى إقامة بيوتهم من فوق رواب تعلو على الماء، ولقد شهدها عمرو بن العاص حين فتحها فوصفها قال:

«مصر تربة غبراء، وشجرة خضراء، يكنفها جبل أغبر، ورمل أعفر، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات، يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر، له أوان يدر حلابه ويكثر فيه ذبابه،

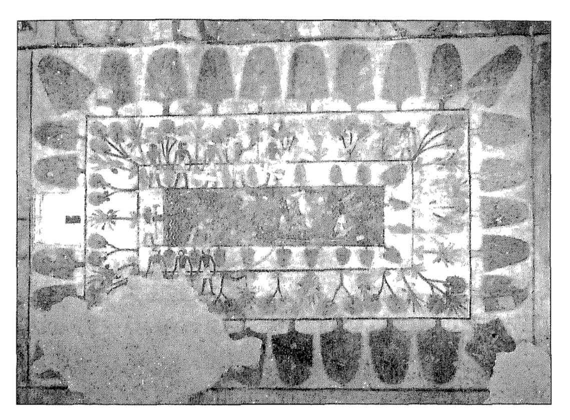
تمده عيون الأرض وينابيعها، حتى إذا اصلخم عجاجه وتعظمت أمواجه فاض على جانبيه، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب وخفاف القوارب، وزوارق النهر كأنهن فى المخايل ورق الأصائل، فإذا تكامل فى زيادته، نكص على عقبيه كأول ما بدأ فى جريته، وطما فى درته فعند ذلك . . . ، يحرثون بطون الأرض ويبذرون فيها الحب، ويرجون بذلك الثمار من الرب . . . ، فإذا أحدق الرزق وأشرق، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى، فبينما مصر يا أمير المؤمنين درة بيضاء، إذا هى زبرجدة خضراء، ثم إذا هى ديباجة رقشاء، ثم إذا هى عنبرة سوداء، فتبارك الله الفعال لما يشاء . »

وفيما عدد القرآن من خصال مصر ما يستحق النظر بشىء من تفصيل .

جَنّـــات :

كانت حياة المصرى منذ مطلع الصبح من تاريخه صراعًا مريرًا وكفاحًا متصلاً بين الرى والجفاف وبين الخصب والجدب، وبين الأرض المثمرة والمفاوز القاحلة، أو بين ما كان يسميه السوداء والحمراء، كان يبذل الضنى والعرق فى سبيل استخلاص الأرض من الصحراء وكان يعزق أراضى الغمر حيث يترسب الطمى الدسم، لينقله إلى حيث يستنبت ما يشاء، إذ كان الحزن يبلغ أقصاه من نفسه أن يرى عدوان الصحراء على أرضه، وزحف الرمال عليها، وكانت الحدائق والجنان أثيرة لديه محببة إليه، اختلطت بحسه وفكره وشعوره منذ نشأ على ضفاف النيل، وكان عامرًا يومئذ من آثار فيضه كل عام بالمناقع والغياض والغدران، حيث

تنبت الآجام والأحراج من البردى والسوسن والبوص واليراع ، وحيث تعيش ألوان من الأسماك ، وتؤمها طوائف من الحيوان وأمم من الطير ، وكان المصريون يؤمون تلك الأصقاع طلبًا للصيد والقنص ؛ كان عند الأدنين من الناس رزقًا يطلبونه ويسعون إليه ، وكان لأهل الترف واليسار ، رياضة وتسلية يؤثرونهما ويقبلون عليهما ، فكان الرجل يخرج فى أسرته من زوجه وبنيه يطلبون النزهة والمتعة فى زورق خفيف من البردى يسرى بهم على صفحة الماء الهادىء الرقراق ، بين سيقان البردى وأوراق البشنين وزهور السوسن ، ولقد بلغت هذه الطبيعة الحلوة الجميلة من نفسه أن تخيل الفردوس فى الآخرة صورة من البيئة التى عاش فيها وأحبها ونعم بها ، كما حرص على تصويرها فى بيته وقبره (شكل ٢٠) .



(شكل ٢٠) جنة فى بيت شريف مصرى

كذلك وقر فى نفسه حب الزهر والإحساس بجماله وفتنته، فكان لهم زينة فى الموائد والأعياد، ويتخذون منه حلية يلبسونها وهدية يقدمها بعضهم إلى بعض، وقربانا يقربون منه إلى الأرباب والأعزة من الأموات.

ولذلك فقد حرص المصرى القديم فضلاً عن ذلك على غرس الأشجار، ورعاية الحدائق أينما حلّ وحيثما أقام، فقد تعهدها فى المقابر حيث يتجه إلى ربه مصليًا متعبدًا، وتعهدها فى سكنه مستروحًا مستمتعًا، وتعهدها فى الجبانة مهيئًا لروحه السعادة والنعيم، ولقد انتهى إلينا من الخبر عن حاتشبسوت أنها حرصت على إقامة بستان للإله بين يدى معبدها فى الدير البحرى بالأقصر. ولكنها لم تشأ أن تغرس فى ساحته من أشجار مصر التى عهد الناس، وإنما بعثت إلى بلاد پونت، أو بلاد الآلهة كما سمتها فى بعض حديثها، تنقل أشجار المر العبق إليه، وذلك حتى تقيم فى معبده أرضا كأرض پونت[١].

ولم يكن حرص المصرى على إقامة الحدائق فى داره بأقل من حرصه على إقامتها فى دور الآلهة، فلا تكاد تخلو لشريف أو أمير دار من حديقة فسيحة تتوسطها بحيرة صغيرة يقيم من حولها الشجر الباسق والأيك الوارف، وكان الشريف يجد فى حديقته تلك الراحة والروح والأمن والسكن فى ظل الدوح، أو فى ظل عريشة يقيمها عند بحيرته.

كانت الحديقة فى المنزل عنصرًا اعتاده المصريون فى حياتهم، بحيث أصبحت الحدائق فى آدابهم وقصصهم من المألوف المذكور فى كل أثر

---

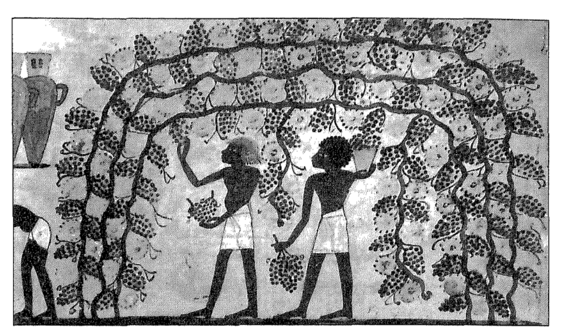
(١) Urk IV 352 f.

أدبى من قصة وأغنية، حيث حفلت قصائد الغزل بذكر الحدائق والغدران، ولقد حرص الملوك إذا أنشأوا مدينة أو عاصمة جديدة على أن يجعلوا للحدائق فيها النصيب الأوفى حيث البحيرات والزهور. كذلك فعل أخناتون فى عاصمته الجديدة أختاتون عند تل العمارنة، وكذلك فعل رمسيس فى بررعمسى عاصمته الجديدة التى أنشأها شرقى الدلتا حيث ربى موسى وليداً ولبث فيها من عمره سنين. ومنها خرج فرعون وراءه وكان من المغرقين، ولذلك فخليق بنا أن نقرأ ما حفظ لنا من وصفها الذى بعث به أحد كتاب فرعون إلى زميل له فيقول:

«لقد بلغت بررعمسى حبيب آمون فوجدتها أروع ما تكون ازدهاراً، وهى عاصمة أنيقة لا مثيل لها على نمط طيبة، إن بساتينها حافلة بكل شىء، وتتدفق عليها الأطعمة كل يوم كما تمتلىء مياهها بالأسماك وبركها بالطيور، وإن أهراءها لمليئة بالشعير والقمح الذى يكاد يبلغ السماء، وفيها حدائق الرمان والتفاح والزيتون والتين، أما النبيذ فهو أحلى من العسل، وفيها السمك الأحمر فى القنوات.. إن شباب عظيمة الانتصارات فى عيد كل يوم، والزيت والطيب على رءوسهم، وهم يقفون بأبوابهم وأيديهم مثقلة بالزهور[1].

ولقد كانت الجنان والبساتين كذلك عامرة بالفاكهة والثمار من النخيل والأعناب ومن الخروب والنبق والتين والجميز والشمام والبطيخ، وكانوا يسمونه بَدُّوك، ثم استنبتوا من بعد ذلك ما عرفوه منذ أيام الهكسوس من الرمان والتفاح والزيتون، وقد أشار القرآن إلى العنب فيما ورد عن صاحب سجن يوسف فى قوله: ﴿إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ ولقد نبتت

(١) Gardiner, Miscellanies p. 40-41.



(شكل ٢١) كروم مصر

الكروم وفيرة فى أنحاء كثيرة من مصر ، (شكل ٢١) كما جاءنا من الأنباء خاصة عن كروم الواحات منذ طلائع التاريخ المصرى ، وقد بلغ من وفرتها ومنزلتها من إنتاج الواحة الخارجة على عهد تحتمس الثالث أن النبيذ كان من جملة ما يؤدى أمراؤها من ضريبة إلى الملك .

أما الزيتون الذى عرفه المصريون باسمه هذا فله فى القرآن حديث أى حديث ، فهو الشجرة التى بارك الله فيها وضرب بها لنوره الأمثال .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٣٥]

شجرة مباركة زيتونة أين تكون؟

لا شرقية ولا غربية فلا هى إذن فى الشرق البعيد ولا فى الغرب البعيد، ولقد نبت الزيتون وينبت فى بقاع كثيرة من أرض الله .

ولكن هناك شجرة أخرى تجود فى بقعة خصها الله بذاتها من أرض الله ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ .

وما حاجتنا إلى الأحجية والاستقصاء، وقد أعلنها الله صريحة فى قسمه العظيم. ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ١، ٢]

وقال:

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٨ - ٢٠]

ولعلنا نعجل منذ اليوم بتلمس ما أسكن الله من ماء السماء فى أرض سيناء، وأن نذرع ونزرع منها كل ما نستطيع من باع وذراع، مستزرعين مستعدنين مستوطنين، ولقد أتت التجربة - بأيدى غيرنا وياللحزن - أُكُلَها فى زمن يسير بعد الهزيمة النكراء عام ١٩٦٧، يوم انكفأنا نبكى إذ اكتشفنا فجأة أن سيناء بعد ضياعها أرض حبيبة، فأما وقد ارتدت إلينا فلعلها لا ترتد بعد غمار الأحزان إلى غياهب النسيان أو ما يشبه النسيان، وأخشى ما يخشى أن يزدهينا وشل لن يكفى طموحنا من سيناء، يصل من ماء النيل إلى سيناء، وأن نستنيم بمائه إلى استزراع رقاع قليلة قد تزود

بالأخبار وسائل الإعلان والإعلام، ولا تغنى عن حاجات الناس إلى مزيد من الأمن والطعام، وليتنا منذ عام ١٩٥٢ بدأنا بها، وقدمناها على مديرية التحرير وما أدراك ما مديرية التحرير، فتولينا سيناء ـ وكانت فيها دراسات معروفة(١) ـ بالتأهيل والتعمير، إذن لكنا حشدنا فيها مذ ذاك كثافة سكانية ثابتة، حارسة محروسة، يقظة قادرة على أن تَهُبَّ فى وجه المعتدين الطامعين، ولما ذهبت عنا يوما نويبع ودهب، بل صارتا من قبل نبعا من بهجة وذهب. ولطابت لنا فلم ينتجعها غيرنا إلا بإذننا طابا. تلكم هى طور سينين أو طور سيناء، باب مصر ومدخلها الشرقى منذ العصور أقدم العصور. هى بقعة من مصر وجزءمنها، وهى كذلك جزء من بقعة كانت منزل الوحى، ومهبط الرسالات، وتضمها مصر مرابع العلم وقبلة الأنبياء.

وزروع:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة: ٦١]

ولو قد نظرنا فى تلك الحاصلات لأدركنا أنها من زروع الشتاء تبذر فى أعقاب انحسار فيض النيل، فى شهر هاتور المصرى، أو نوفمبر

(١) عباس عمار: المدخل الشرقى إلى مصر.

الإفرنجى. وقد جاد فى مصر يومئذ من البقل الفول و الحمص، والبازلاء واللوبية والكراث والكزبرة، وذلك فضلاً عن الخس الذى كان من أحب الطعام إلى المصريين وإلى ا لآلهة أجمعين، وجعلوه رمزًا لرب الخصوبة والإخصاب. وعن الفول فى مصر حدث ولا حرج، فهو فيها طعام عريق بعينه عريق باسمه الذى لم يكد يتغير. إذ كانوا ومازالوا يأكلونه أطباقًا وألوانًا شتى مما هو معروف حتى يومنا هذا. كالمدمس والبصارة، كما اتخذوا من عجائنه طعامًا لعله يشبه الطعمية[1]. فمن نافلة القول إذن ـ وقد تأصل من نفوس المصريين تلك القرون. أن نتحدث عن مدى حبهم له، وإقبالهم عليه وعن انتقال ذلك الحب مع ما يصحبه من الكراث إلى بنى إسرائيل.

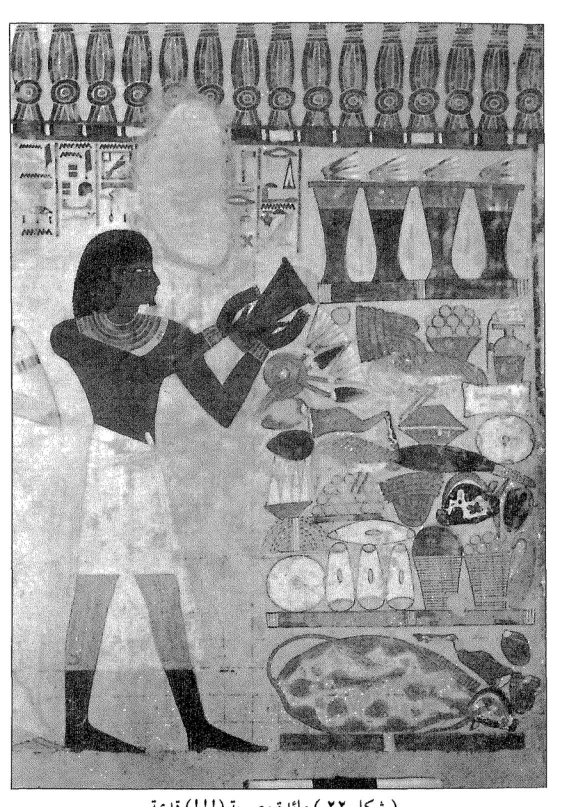
وكذلك كانت القثاء أو الخيار إليهم، وكانوا يقربونها على موائد الأعياد ويقدمونها قربانًا للأعزة من الأقرباءالمتوفين (شكلا ٢٢، ٢٣) وفى قصة من عيون الأدب المصرى روى بحار حطمت الأنواء سفينته، أن الأمواج حملته إلى جزيرة مقدسة وجد فيها من الفاكهة والأعناب والتين ما أعجبه وأرضاه مما ألف فى مصر، وكان منها القثاء الذى عرف فى المصرية باسم شسبت.

أما الفوم فهى الحنطة (شكل ٢٤) أو هى الثوم على تعدد فى التفسير، وكان الثوم من الحاصلات المتوفرة فى مصر، وقد وجدت فى مقابر طيبة طائفة من حزم الثوم الذى عرف فى مصر باسم خثان[2]، وكانوا أحيانًا

---

(١) سليم حسن مصر القديمة الجزء الرابع (١٩٤٨) ص ٦٠٥.

(٢) بيير مونتيه: الحياة اليومية فى مصر القديمة على عهد الرعامسة (ترجمة عزيز مرقس منصور» ص ١٠٨.



(شكل ٢٢) مائدة مصرية (!!!) قديمة

(شكل ٢٣) ونعمة كانوا فيها فاكهين

يطلقون عليه اسم البصل حج، وأما البصل فكان ـ كما هو اليوم ـ من أطعمة الفلاح اليومية وأدناها إلى نفسه كما كان من ألوان القربان، وكان العدس الذى عرفوه باسم عارشين من أحب الأطعمة إليهم. ومازال «العدس والبصل» عندنا من أشهى أطعمتنا وأقربها الينا. وكانوا يتخيلون الفردوس فى الآخرة عامراً بالشعير والحنطة والعدس، مرتفعًا نباتها فيما قدروا عشرة أذرع فى أرض الجنة[1]. وحسبنا من دليل على ما حظيت به تلك الأرزاق من الحب والتفضيل أن بنى إسرائيل بحكم إقامتهم فى مصر وما اعتادوا من طعامها ووفرتها، قد اختاروها دون سواها من رزق الله. وقد قدمنا من سفر العدد (١١ : ٤ـ٦) من العهد القديم، ما صور حنينهم إليها، بل كادوا يضعونها مع الحرية والخلاص فى الميزان.

ولم يكن ذلك كل ما كانت تنتج مصر. على عصر الفراعين، فإذا كانوا انتجوا ما يكفيهم من الغذاء، فقد انتجوا كذلك سرابيلهم من نبات الكتان الذى كانوا يزرعون ثم ينسجون، وكانوا يتخذون منه ثيابًا رقيقة وأفوافا شفيفة كانت موضع إعجاب الناس أجمعين، أما ترى رنة الإعجاب به فيما ورد عنه فى سفر حزقيال (٢٧ : ٧) «كتان مطرز من مصر هو شراعك».

وفضلاً عن ذلك فقد كفتهم أرضهم ما كان للحضارة والفكر المصرى والبشرى أكبر معين، إذ نبت فيها البردى واليراع والبوص، ومنها اتخذوا القرطاس والقلم، واتخذهما عنهم الشعوب من حولهم، إذ حملهما من مصر الفينيقيون حيث كان ميناؤهم جبيل أو ببلوس، أهم مراكز تجارة

(١) Eg. Book of the Dead. chapter 110, vignette

ورق البردى وتصديره إلي العالم القديم، ومن اسم ببلوس كان اسم الكتاب فى اللاتينية، ثم اسم الكتاب المقدس Bible فى كافة اللغات الأوروبية، أرأيت إذ عرف البردى فى العالم القديم ومازال يعرف بمشتق من اسم فرعون «پاپرعو» أى مالفرعون؟!! Papyrus ومنه جاء اسم الورق. إذ ردده الأقدمون ومازلنا نردده علما على ماهو فى حياتنا اليوم، وعاءكل شىء فى كل شىء!!!

لقد كان المصرى على كل حال بما جبل عليه من حس وحب للخضرة، لا يألو جهدا فى استزراع موطنه حيثما حل من أرضه السوداء، وحيثما هبط مع جهده فى البحث فوجد فى الواحات الماء، ووادى الحمامات عبر الصحراء.

وشتان ما بين فعله وما نفعل اليوم من تدمير الحقول فى - ظل سيادة القانون - بالتجريف والبناء.

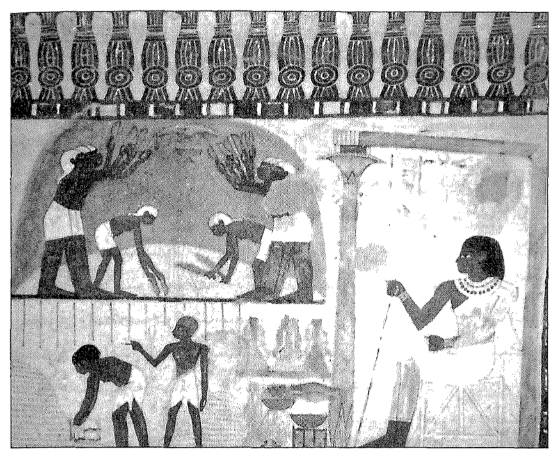
وعيـــــون :

عيون الماء مصادرها سواء كانت من الآبار أو الجارى من الأنهار. وقد ورد فى الذكر قوله تعالى فى سورة الغاشية: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ وفسر النسفى «العيون» بالأنهار الجارية، ولا حاجة بنا عَندئذ إلى الإسهاب فيما تمتعت به مصر من «العيون» ففيها أعظم العيون وأغزر العيون؛ فيها النيل العظيم، وهو اليم كما ذكر فى القرآن، وذلك أنه أقبل من قلب القارة السوداء، ليدخل مصر فوق صخور الشلال الثانى، ثم صخور الشلال الأول عارمًا جياشًا، حتى لقد خيل إلى المصريين فى بعض أساطيرهم أنه

إنما ينبع من كهفين فى تلك البقاع فى جزيرة الفنتين أسموهما «قرتى»، ثم نراه من بعد ذلك يجرى سهلاً لينًا، حتى إذا بلغ رأس الدلتا، إذا به ينساب كالمروحة أو يتفرع كالشجرة سبعة أفرع لم يبق منها اليوم إلا فرعان هما: دمياط ورشيد، وكان يقبل بفيضه كل عام فيغمر الأرض عن يمين وشمال، فإذا بلغ حدته وطما فى شدته، نكص على عقبيه مخلفًا وراءه كثيراً من المناقع والغياض والغدران، فيكون فصل البذر وأوان الإنبات.

ومع ذلك فقد كان لاختيار لفظ العيون فى القرآن مرماه ومعناه، وذلك لأن فى اللفظ من الاتساع والشمول ما يجمع على السواء بين المياه الجارية فى الأنهار والمياه النابعة فى الآبار، وقد حبيت مصر من هذا وذاك أجمعين. فكان اللفظ من جوامع الكلم القرآنى الذى أوفى على بلاغة الإعجاز، بما يسوق من لفظ جامع دقيق عن تقدير وحسبان، فإن النيل ليجرى وسط صحراء شاسعة مرهقة عن يمين وشمال، حيث اندفع المصرى منذ أقدم العصور يسلك فجاج المفاوز، ويطوى رمالها العطشى بحثًا عما يقيم به حياته من المواد الغفل من المعادن والصخور، أو طلبًا للبيع والشراء مما وراءها من الأقاليم والبلدان. وكان إحرازهم للنجاح وإنجاز المقاصد بمقدار ما يجدون إليها فى طريقهم من مصادر الماء. لذلك فقد حرص المصريون وفراعينهم على توفير الماء على دروب القوافل وفى بقاع التعدين فى الصحراء، وذلك بحفر الآبار وتلمس العيون.

وكان وادى الحمامات من أجَلّ الطرق منزلة وقيمة فى اقتصاد مصر وتجارتها؛ إذ كان سبيل القوافل إلى موانىء البحر الأحمر حيث تنطلق السفن المصرية إلى مصادر البخور فى پونت، وذلك فضلاً عما يكتنف



(شكل ٢٤) قمح وفير (!!!)

الوادى من محاجر تؤمها البعثات لاقتطاع التوابيت للفراعين. ومما روى عن الملك سعنخ كارع متنوحتب الثانى، عاهل الأسرة الحادية عشرة أنه كلف حنو أحد كبار دولته، باستئناف الرحلات المصرية إلى پونت، فكان أن خرج فى ثلاثة آلاف رجل لتطهير وادى الحمامات وتأمينه ممن كان يقطعه على السفر من عصابات أولاً، ثم احتفر فيه من الآبار ما جعله - كما قال بأسلوبه البلاغى - نهراً وحول الصحراء مروجا، إذ احتفر اثنتى عشرة بئرا وسط الشجيرات، وذلك فضلاً عن ثلاثة آبار أخرى مربعة ضلع كل منها عشرون ذراعًا أى عشرة أمتار فى مواضع عينها من الوادى[1].

وفى نص آخر بوادى الحمامات نقشه سعنخ قائد قوات الصحراء على عهد نب تاوى رع منتوحب الثالث، آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة، أنه خرج إلى ا لصحراء وهو يومئذ فى الستين من عمره، فى سبعين ولداً من سن واحدة، فجعل الوديان خَضِرَةً، وحول رباها بركًا من ماء، وعمرها بالبنين[2] وعن أمنمحات (الأول)، أيام كان وزيرا لذلك الملك، أنه خرج فى عشرة آلاف رجل إلى وادى الحمامات، لاقتطاع تابوت لمليكه قال «فجعلت الروابى نهراً والأودية العالية جداول مياه[3]، ومع ذلك فقد أخذتهم هواطل من أمطار غمرت الوادى حتى حافة الجبل، وأنه كشف وسط الوادى عن بئر حافلة بالماء الصافى، طولها من الأذرع عشر

(١) Couyat et Montet, Incriptions Hierog. et Hierat. du Ouadi Hammat No 114.., p. 81f: Breasted, Anc. Rec. I§ 429-431.

(٢) Couyat et Montet, op. cit. No 1 p. 32; Breasted op. cit I § 454.

(٣) Couyat et Montet, op. cit. No 113 p. 80; Breasted op. cit I 447.

وعرضها عشر، ظلت مجهولة لم تلحظها عين من قبل على مدى السنين(١).

ومن أخبار ستى الأول عاهل الأسرة التاسعة عشرة، أنه خرج إلى وادى عباد بالصحراء الشرقية، ليتفقد الأرض حيث يقيم مستوطنة للعمال ويبنى معبدا، ويحتفر بئرا تكون غوثا للمرهق، وبردا لفؤاده المتأجج فى حمارة القيظ. هنالك أمر عمال الحفر فاحتفروا فى الجبل بئرا نبط منها الماء الغزير كأنها كهفا قرتى فى الفنتين، حيث يتفجر - كما تخيلوا - النيل وبذلك عاد الطريق سهلا(٢).

ومن أنباء ولده رمسيس الثانى أن حاكم النوبة العليا - وكان كذلك مشرفا على وادي العلاقى - شكا قلة الماءعلى طريق المناجم، وما يتعرض له الناس من الهلاك عطشا فى تلك البقاع ذات الذهب الوفير، وما يتهدد تلك الصناعة من انقطاع، فكان أن جمع الملك الأمراء فشاورهم فى الأمر، ثم أمر بحفر بئر هناك نبط الماء منها على عمق اثنتى عشرة ذراعا، وكان رجال أبيه قد حاولوا ذلك من قبل فأخطأوا الماء حتى عمق مائة وعشرين(٣).

وكان الفراعين فضلا عن ذلك يعينون على الآبار والعيون الحرس من الرماة والمفتشين يصونونها ويذبُّون عنها العابثين والمعتدين، ويحفظون عليها نظافتها وصفاءها، سواء كان ذلك فى سيناء أو وادى الحمامات، أو فى واحات الصحراء الغربية، وكانت الواحات محاط للقوافل حيث

(١) Couyat et Montet, op. cit. No 1 p. 32; Breasted op. cit I § 451.

(٢) Kitchen, Ramesside Insciptions I 65 B, Breasted, of. cit III § 170 f.

(٣) Kitehen, op. cit. II 353-360; Breasted, op. cit 282-293.

تجتمع الينابيع والعيون، وكانت الواحات الخارجة أكبرها وأهمها جميعا، وقد توفر فيها من الماء ما مكن بنيها من إنبات الأعناب والكروم كما قدمنا منذ طلائع التاريخ المصرى القديم.

وكان الملوك فضلا عن ذلك حريصين منذ أقدم العصور على مشروعات الرأى فى أنحاء البلاد، حريصين على إيصال الماء حيث لا يصل النيل، ومن أشهر وثائق تاريخ مصر العتيق منظر يصور احتفال البلاد بشق القنوات إذ يصور الملك العقرب الذى حكم مصر من قبل مينا، مؤسس الأسرة الأسرة الأولى وموحد القطرين، ممسكا بالفأس، وهو يهم بالضربة الأولى مفتتحا قناة. كذلك كان منصب المشرف على القناة «عچ مر» من الوظائف والألقاب الكبرى فى الدولة القديمة، ولعل أشهر ما نعرف من مشروعات الرى ما كان أقامه امنمحات الثالث، عاهل الأسرة الثانية عشرة من خزان الفيوم لتوفير الرى والزرع فى منخفض الفيوم.

وكنـــوز

وفسر النسفى الكنوز فى تلك الآية بأنها الأموال الظاهرة من الذهب والفضة قال وسماها - أى القرآن - كنوزًا لأنهم لا ينفقون منها فى طاعة الله، وجاء فى المعجمات عن الكنوز أنها المال المدفون، وما أكثر ما كا ن فى مصر القديمة من أموال ظاهرة من ذهب وفضة ومن سام، أى من سبيكة منهما، وذلك فضلا عن المال المدفون، وللمال المدفون فى مصر حديث ذو شجون.

على أننا لو أخذنا اللفظ بمعناه الواسع لشملنا بذلك مناجم الثروة

المعدنية فى مظانها فى الأرض، وكانت هى مصادر الأموال الظاهرة إلا قليلا مما يبيعون، ولقد كانت أرض مصر ومازالت تدخر من ألوان الحجر وأخلاط المعادن ما لا يكاد يقع تحت حصر، ومن كنوز الحجر نصف الكريم والمعدن الثمين الذى حبيت بوفرة منه وبسطة فيه ما عرف لها واشتهرت به فى أقطار الشرق القديم.

وكان المصريون قد خرجوا منذ فجر التاريخ البعيد فى طلب الذهب إلى الصحراء الشرقية، حيث تقع مناجمه الوفيرة عند الفواخير فيما يلى قفط من وادى الحمامات، وعند أم الروس عند ساحل البحر الأحمر[1]، ولقد كان فيما كشف من عصر فجر التاريخ من خرزات من ذهب مسمط فى نقادة وأخرى من رقائقه فى المحاسنة، دليل على عراقة فى استخراجه، وخبرة فى صياغته وصناعته، كما كان فى اسم مدينة امبوس القديم - قرب قرية البلاص قبالة قفط - دليل آخر على ما تدفق عليها من الذهب الذى خلع عليها اسم نبتى بمعنى الذهبية[2]. وكان له فضله فيما أضفى من ثراء وشهرة على مدينتى الكاب والكوم الأحمر أقدم عواصم الصعيد قبل مطلع الصبح من تاريخ مصر (نخب ونخن)[3].

ومن صحراء النوبة الشرقية كذلك استخرج المصريون الذهب من بقعة من وادى العلاقى، سميت يومئذ باسم اكيتا، ولذلك كله فقد حرص الفراعين على بسط النفوذ المصرى وإقرار الأمن فى النوبة بأسرها، فقد

---

(١) Kees, op. cit 123 f.

(٢) ibid.

(٣) ibid.

روت أخبار ملوك الأسرة الحادية عشرة عما بذلوا فى هذا السبيل، حيث عينوا رؤساء التراجمة، لحسن التفاهم مع الناس هناك[١]. وتابع ملوك الأسرة الثانية عشرة حملاتهم التأديبية على تلك البقاع، وأقاموا بدءا من الشلال الثانى الحصون تأمينًا لها من الاضطرابات والغارات، وكا ن خط الدفاع الأخير هناك فى البجة واليفانتين، بل لقد كان سنوسرت الثالث عنيفًا فى حملته على الثائرين بحكم إغراء الذهب والحرص على تأمين موارده فى تلك البقاع[٢].

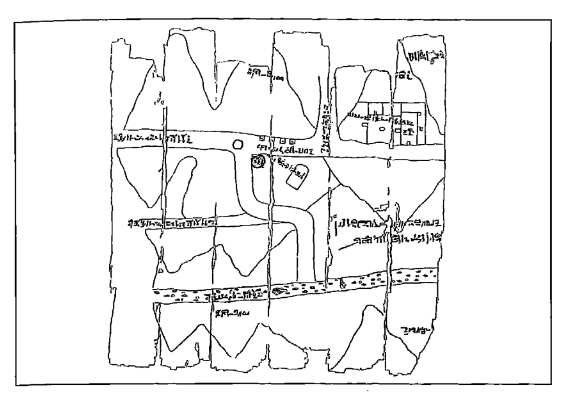
ولم يفتأ الفراعين يرسلون البعوث ويوجهون الحملات والقوافل، بحثًا عن الذهب فى مظانه من أرض مصر، فإذا عثروا عليه وبشر بمحصول وافر عمدوا إلى إقامة المحاط، وتيسير الطرق إليها بما يحتفرون عندها وفى طريقها من آبار، وما ينشئون عندها من معبد يكون مركز المعسكر العمالى، وبما يرسمون لهذا كله من خرائط تحدد مواقعها، وتبين معالمها ومسالكها، ولقد حفظت لنا على بردية بمتحف تورين الآن خريطة تصور منطقة الفواخير بمناجمها وطرقها التى يؤدى إليها وادى الحمامات، وما يخرج منه بعد ذلك من طريق إلى البحر الأحمر، وهى فضلا عما تبين من بئر لسيتى الأول و«جبال يخرج منها الذهب» وطريقين يؤديان إلى البحر الأحمر، ومعبد لآمون، مركزا لمعسكر العمال، فهى تبين على مرحلة من المعسكر «جبال حجر بخن»، المحبوب الأخضر من أردواز وادى الحمامات (شكل ٢٥).

وكان سيتى الأول من أحرص فراعين مصر على تعدين الذهب،

---

(١) ibidem 316

(٢) ibid, Berasted, op. cit I §§ 651-660



(شكل ٢٥) مواقع المناجم فى أقدم خرائط التاريخ

وزيادة الإنتاج منه، وقد تقدم بنا كيف خرج إلى الصحراء الشرقية حتى منطقة الجبال، يتفقد مناجم الذهب، ومواطن الماء على الطريق، فساءه ما رأى من انعدام الماء الذى يهدد المسافر بالهلاك، ويحول دون ما تردد فى خلده من عزم على ا ستغلال تلك البقعة التى يتوقع الذهب منها، ثم مضى يتفقد المكان بحثًا عن أصلح البقاع التى يحتفر فيها بئرًا، فكان أن وفقه الله فيما أمر من احتفار بئر فى الجبل، وإقامة معبد ومحلة يستريح فيها الناس. وقد أسفر ذلك عن إقامة معبد الكنايس فى وادى مياه أو وادى عباد، فيما يلى ادفو على بعد خمسة وخمسين كيلو مترا، فى قلب الصحراء الشرقية(١).

(١) Kitchen, op. cit I 65 B., Breasted. op. cit III § 170 f.

وتحدث ابنه رمسيس الثانى عما بذل جريًا على سياسة أبيه فى هذا السبيل، قال: إنه بلغه وهو يحصى مصادر الذهب ويضع التدابير، لحفر الآبار حيث يشح الماء أن أكيتا مع غناها بالذهب ووفرته، خالية من الماء، وأن القوافل إليها لا تعود إلا بنصف رجالها لما يتعرضون له من العطش المبير، وأنه لم يكد يبلغه ذلك حتى استدعى أمراء الحاشية يشاورهم فى الأمر حيث قدم حاكم النوبة تقريره عما يعوق تعدين الذهب من ندرة الماء، وما كان من جهود فاشلة بذلت من قبل على عهد أبيه، وقد أقر رمسيس لحاكم النوبة بما رأى من أمله فى انبجاس الماء ببذل مزيد من الجهد فحالفه التوفيق(١).

ومهما يكن من شىء، فلقد توفر الذهب فى مصر وزادت بفضله ثروتها، إذ يدلنا ما ذكر فى حوليات تحتمس الثالث، أن مناجم النوبة السفلى وحدها قد كانت تغل على البلاد ما يقدر فى المتوسط بمائتين وثمانية وأربعين كيلو جرام وقرابة ثلث الكيلو جرام فى العام الواحد(٢). ولقد مكن الذهب للمصريين كثيراً من شئون الحياة، إذ استطاعوا به فى التجارة والاقتصاد شراء ما عز فى بلادهم واضطروا إلى استيراده مما حولهم من أمم وأقطار، فكان أن تمتعوا بفضله بالرفاهية وخفض العيش. أرأيت عشية خروج بنى إسرائيل كيف احتالوا على نساء جيرانهم فسلبوهم حليهن ومن ذهبهن ما مكن السامرى من أن يخرج لهم عجلا جسدا له خوار.

(١) Kitchen, op. cit II 353-360, Beasted. op. cit 282-293.

(٢) بلغ انتاج النوبة السفلى من الذهب فى عهد تحتمس الثالث ١, ٢٣٢ كليو جرام سنة ٣٤ من حكمه و٨, ٢٥٨ كيلو جرام سنة ٣٨ و١, ٢٨٦ كيلوجرام سنة ٤١، ٢١٦ كيلو جرام سنة ٤٢. انظر: Save- Söderbergh, Agypten und Nubien S.210-211.

بل لقد تمتع كثير مما وقع تحت حماية مصر من ولايات آسيا بمثل رخاء مصر، ورفاهيتها بفضل ما تنفق مصر فيها من أموال، وكان ميناء جبيل مثلا حيا ناصعًا لذلك؛ يدل عليه ما عثر عليه فى مقابر أمرائها من حلى الذهب وأوعية السبج ذوات الحواف الذهبية، وكانت من هدايا فرعون للأمير حين تقليده منصبه هناك، وكذلك أسلحة صنعت فى جبيل على الطراز المصرى عليها نصوص مصرية(١).

كذلك استطاع المصريون بالذهب أن يحرزوا من النفوذ والمنزلة السياسية والسلطان ما لا تكاد الجيوش المحاربة تحرزه بالغارة والعدوان، فامتد بفضله نفوذهم حيث لا تستطيع الجيوش الوصول فيما وراء مناطق نفوذهم الطبيعية مما جاور مصر من البلاد، فكان أن تولى الذهب مكان الجيش سبيل السياسة وإحراز النفوذ. وأصبح المصريون يشترون به الحلفاء فى آسيا منذ عهد تحتمس الرابع، وإن فشلت تلك السياسة أواخر عهد ابنه أمنحتب الثالث، وذلك لما أبداه الأمراء من جيران مصر من جشع تحت ضغط الغزو الحثى من ناحية، ولما كان من سياسة أخناتون وتخاذله عن نصرة حُلفاء مصر هناك من ناحية أخرى، بمعنى أن سياسة الذهب وحدها خليقة أن تفشل إن لم تكن وراءها قوة تسندها، وأن الترغيب والترهيب لا ينفصلان فى السياسة أبدا، ومع ذلك فقد كانت خزائن مصر يومئذ تمتلىء بالذهب، برغم تسرب الفساد وسوء الإدارة إلى حكومة أخناتون حتى ذاعت شهرة مصر بأنها أغنى دولة فى الشرق القديم.

ولقد حفظت لنا من رسائل ملوك ميتانى وآشور وبابل على عهد

---

(١) Kees, op. cit. 137 f.

أمنحتب الثالث وابنه أخناتون أطراف مما كانوا يكتبون، طلبًا للذهب من مصر، بل استجداءه منها. من ذلك ما كتبه توشراتا ملك ميتانى إلى زوج ابنته أمنحتب الثالث يقول:

«أخى أرجو أن ترسل ذهبا بأقدار عظيمة جدا وقدر لا يحصى، لعل أخى أن يرسل ذلك، ولعله يرسل من الذهب أكثر مما حصل عليه أبى، أليس الذهب فى بلاد أخى كالتراب فى الأرض»(١).

أما الفضة التى استخرجت مما كان يستخرج منه الذهب من عروق صخر الكوارتز الأولى فقد عُدَّت فى الدولة القديمة ذهبا أبيض نادرا، يعلو بحكم ندرته على الذهب الخالص، أو مزاج الذهب والفضة الذى عرف فى المصرية باسم چعم وعرف فى العربية باسم سام، ولعل اللفظين - فى أكبر الظن - انحدرا عن أصل واحد، وقد عرف فى اللغات الأوروپية باسم الكتروم Electrum.

كذلك ضربوا فى بطاح بلادهم وأوديتها من الصحراء الشرقية إلى النوبة يطلبون فضلا عن الذهب فنونا من الأحجار نصف الكريمة وألوانا من الصخر الجميل، حيث استخرجوا منه الزبرجد والعقيق واليشب والجمشت والمرو والزجاج الصخرى، وأحجارا خلبت بألوانها وصلابتها عقولهم منذ أقدم العصور، فاتخذوا منها كثيرًا من أعمال الصناعة وآيات الفن، وكان يعجبهم منها بخاصة نوع من اردواز ضارب إلى الخضرة، يكاد من صقله يضىء كالمرآة، وذلك فضلا عن الألباستر والجرانيت الأسود والأحمر والديوريت المتين، وكان وادى الحمامات - بما كان يمتاز به عما سواه من كثرة يخفيها فى حناياه من بقاع خضرة

(١) Kundtzon, Die Amarna Tafeln No 19; Kees, op. cit. p. 137 f.

وعيون - أهم سبلهم وأشدها إغراء بالرحلة إليه، وسلوكه إلى مواطن كثيرة مما يبتغون فى الصحراء الشرقية، وقد عرف فيها جبل الزبرجد، وجبل الدخان حيث حجر البورفير، وجبل الفطيرى من مصادر الجرانيت الأسود، ثم جبل الحودى أو وادى الحودى عند أسوان حيث استخرجوا الذهب والجمشت خاصة[1].

وكانت سيناء كذلك مستودعا غنيا بالنحاس، ومن الحجر نصف الكريم الفيروزج بنوع خاص، وكانت لذلك ميدانا لنشاط اقتصادى خصيب، حرص ملوك مصر منذ طلائع الأسرة الأولى على رعايته وحمايته، حيث يكثر الفيروزج فى وادى مغارة وصرابيط الخادم وحيث أقيم معبد للإلهة حتحور ربة الفيروزج منذ عصر الدولة الوسطى التى عملت على استغلال تلك المنطقة بانتظام كبير، ومازالت تلك البقاع من سيناء تحفظ على صخورها عشرات من نقوش المصريين ممن كانوا فى تلك البقاع عاملين.

أما المال المدفون فإن فى نظرة واحدة فيما تحفل به متاحف الأرض اليوم من آثار مصر، وفى كلمة يسيرة منها الكفاية وفوق الكفاية، فلقد عثر على أكثر التحف فى القبور، وكان المصريون يكنزونها للحياة الأخرى ويشيعونها مع المتوفى، ذخيرة له ليوم البعث والنشور، ومازالت كنوز توت عنخ آمون تروعنا، وتروع العالم كله بما فيها من أثاث ومتاع، وما تحفل به من حلى وذهب، ومع ذلك فلم يكن توت عنخ آمون هذا من عظام الملوك، ولا أشباه عظامهم، ولا كانت مصر على عهده تتمتع بما كانت تتمتع به على عهد أسلافه من أمثال حاتشبسوت، وتحتمس

---

(١) Kees, op cit. Passim.

الثالث القائد المغوار، أو أمنحتب الثالث، من القوة والثروة والاستقرار، أو فى عهد أخلافه من أمثال سيتى الأول ورمسيس الثانى. لم تتمتع مصر بشيء من هذا علي عهده، بل كان فتى حدثًا لم يحكم سوي تسع سنين، كانت مليئة بالاضطراب السياسى والاجتماعى، من بعد اضطراب دينى شَبَّهُ اخناتون؛ فإذا كان الذى نراه لتوت عنخ آمون بهذا القدر على صغر قبره وبساطة حليته، فماذا عسانا أن نجد لو كانت سلمت من النهب والسلب قبور من ذكرنا من الملوك، ومنها ما بلغ فى امتداده واتساعه تحت الأرض مبلغًا عظيمًا، وذلك مع ما يدل عليه من أنيق حليته ووسيم زخرفه، أن كان خليقًا أن نجد فيه بالقياس إلى ودائع توت عنخ آمون ما يبهر العيون كثرة وثراء.

ولقد عثر لغيره على أمثلة متفرقة رغم العدوان والنهب عبر عصور مصر القديمة، بما يشهد لها من غير شك، أنها ذات مال وكنوز(١)، فمنها ماهو من قبرچر عاهل الأسرة الأولى، ومنها ماهو لحتپ حرس أم خوفو، بل لقد انتهى إلينا من آيات الصياغة من عصر الدولة القديمة، ما لا يقل جمالا عما نرى اليوم من حلى، وذلك فضلا عن حلى الدولة الوسطى من تيجان وخناجر وقلائد وعقود، ومن حلى الأسرة الثامنة عشرة من آثار يوعح حتپ إلى آثار زوجات تحتمس الثالث، ثم ودائع پسبخعنو (بسونس فى تصحيف الإغريق)، عاهل الأسرة الحادية والعشرين، ومع ذلك فليس يخلو من مغزى عميق فى هذا المقام، أن نذكر عن المصريين تسميتهم لغرفة الدفن، حيث تحفظ جثة الملك فى تابوته: كانوا يسمونها «پرنوب» بمعنى دار الذهب.

(١) Cyril Aldred, Jewels of the Pharaohs (London 1971).

ومما بقى من كنوز الأسرة التاسعة عشرة، وعهدى رمسيس الثانى وسيتى الثانى خاصة (شكلا ٢٥-٢٧) روائع تنهض مصدقا لقول موسى عليه السلام فيما ورد عنه من دعاء ربه فى سورة يونس:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [يونس: ٨٨]

ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين

وتلك شهادة فيما خلق ووهب العليم الوهاب. وحسبها من نعمة أن تشرف من وصف الله بما وصف بها جنته التى أعدت للمتقين، ولنقرأ قوله تعالى فى سورة الدخان:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [٥١، ٥٢]

ومن يس قوله:

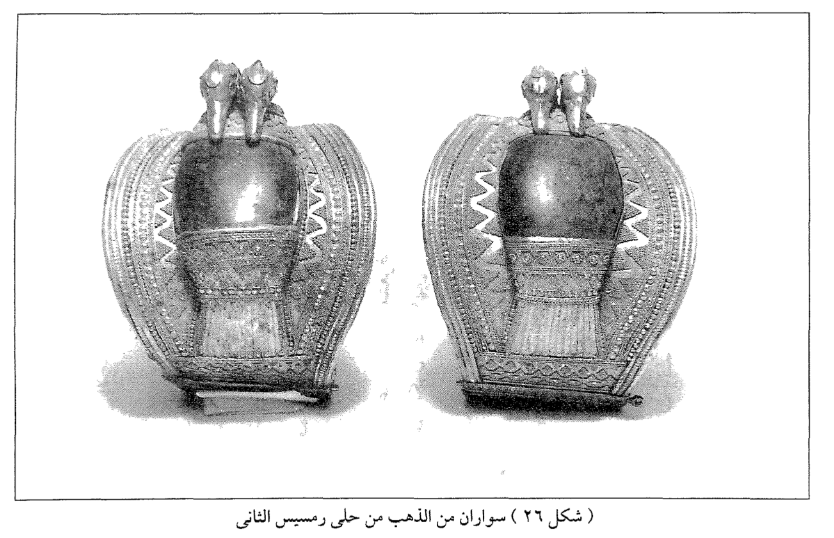
﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ [يس: ٥٥]

ثم لنقرأ فى فرعون وقومه قوله تعالى فى سورة الدخان:

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٧]

كذلك كانت مصر وما زالت كذلك.

وستظل إن شاء الله حتى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون. ولو



(شكل ٢٦) سواران من الذهب من حلى رمسيس الثانى

مشينا فى مناكبها وبحثنا وعملنا لوجدنا فيها غزيرا من نعمائه وخرج علينا من أرضها كل يوم جديد ومزيد. لأنه حكم ربانى وقضاء إلهى يبقى بقاء الزمان وليس له فى الأحقاب والدهور حدود.

ففيها من العيون ما يجرى به النيل وما يتفجر تحت أقدامنا فى الواحات وما سميناه ـ على غير مسمى ولا منفعة ـ بالوادى الجديد. وفيها من الكنوز ما يعدل الذهب من النفط والحديد، وما ندرى مقدار مافيها من منطلقات النواة والذرة من ذخائر من بأس شديد.

ومع ذلك فما كانت الأرض لتدر علينا من رزقه بغير بذل الكادحين وعمل العاملين.

بذلك ـ مقبلين غير مدبرين متعرِّضين غير معرضين ـ يكون لنا فيها المقام الكريم ونعمة نكون فيها فاكهين.

ولقد قضت إرادة الله أن يحفظها وأن تظل بمأمن من كل سوء، إذ كرمت على الله حين تأذن بعقاب فرعون وملئه فلم ينزل عقابه بغير المارقين وما لهم من ناصرين، ولم يأخذ أهلها إلا بما يكون بلاء للمؤمنين:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥]

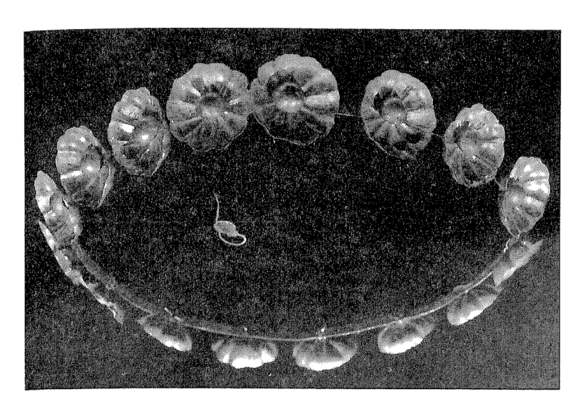
وخص فرعون وقومه بما صنعوا.

﴿ودَمَّرْنَا ما كَانَ يَصْنَعُ فِرعَونُ وقَومُهُ وما كَانُوا يَعرِشُونَ﴾. وشتان

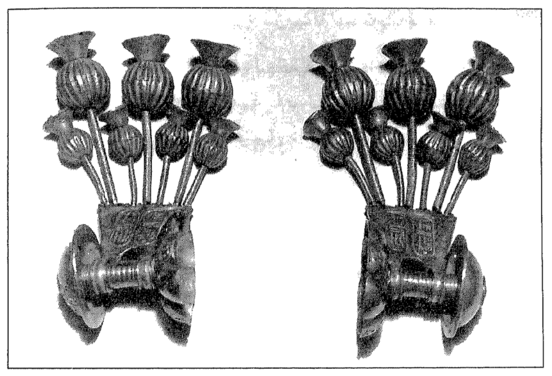
ـ ولنعتبر ولا نأمن مكر الله ـ بين ما نزل بها ، وما حاق بعاد وثمود وما وقع لسبأ وقوم تبع وأصحاب لوط .

ثم لنعتبر بقوله تعالى :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢]



(شكل ٢٧) قلادة من حلى تاوسرة زوجة سيتى الثانى



(شكل ٢٨) قرط من حلى تاوسرة يحمل اسم سيتى الثانى

ـ ٨ ـ
حكـمًا وعـلمًا

أقـام بنو إسـرائيل فى مـصـر أمـدًا قـدر فى التـوراة بخـمسـة وسبـعين وأربعمائة عام، ظلوا فيها يعملون للمصريين ومع المصريين، ويتكلمون لغتهم ويتداولون فكرهم، ثم خرجوا يحملون ـ مع ما سلبوا من ثياب وحلى ـ من ثقافة مصر، وحضارتها وآدابها الكثير، وذهبت الحقائق بما أورثتهم مصر فى نظمهم وآدابهم وعقائدهم مذهب البدائه التى لا تقبل الجدل ولا تفتقر إلى دليل، ولا يكاد ينكر ذلك، أو يتردد فيه إلا صهيونى أعماه التعصب والحقد عن حقائق العلم ونور اليقين، أو عميل يستطعم الصهيونية ويتملقها، أو ضعيف يخشاها فيجاملها وهو فى حرج وتنازع فى نفسه بين باطل يدعيه وحق فى أعماقه يؤمن به ويخفيه.

ولقد كان استقرار يوسف فى مصر ـ كما قلنا ـ مكانة مكنه الله منها، ولو وقع ذلك فى أسر العبودية ونخاسة الرقيق، لأنه إنما أقبل على قَدر الله ليعلمه من تأويل الأحاديث. وكذلك نشأ موسى فى قصر فرعون:

«فتهذب موسى بكل حكمة المصريين وكان مقتدرًا فى الأقوال والأعمال» [أعمال الرسل ٧ : ٢٢]

وقد قدر له ذلك إذ يؤتى من التربية والعلم والحكمة على أيدى المصريين ومن ذخائرهم، ما يؤهله لرسالة الله بعد حين، وبذلك أقّرت التوراة التى جعلت من حكمة المصريين مقياسا ونموذجًا ينفرد من حكمة أهل المشرق، وخصته بالذكر، وجعلت فى تجاوزه حد المبالغة والتبريز، وكانت مقياسًا لأرفع آيات الحكمة وفصل الخطاب، إذ تحدثت عن سليمان فى سفر الملوك قالت: «وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بنى المشرق وكل حكمة مصر»[الملوك الأول ٤ : ٣٠]

ومع ذلك فلسوف نرى مصدر ما حفظ من حكمة سليمان وأنّى آتى بها، وقد كانت مصر مضرب المثل فى أحاديث سليمان نفسه وأناشيده، وهل من صورة أروع من إعجاب سليمان بمصر، وانبهاره بحضارتها ونعمتها من قوله فى نشيد الانشاد:

«لقد شبهتك ياحبيبتى بفرس فى مركبات فرعون»[١ : ٩]

وإنما يكون التشبية بالمثل الأعلى الذى يراه المشبهون، وكان سليمان ملكًا له من أبهة الملوك، وزخرف الثراء، وترفه ما يتبوأ منها حيث يشاء، بل لقد كان فى قصره من فُتن بهن من أسراب كثيرة من حسان النساء، ولكنه ـ مع ما فى قصره من أجناس السرارى والسيدات[١] وحوزته من الصافنات الجياد[٢] ـ لم ير تشبيهًا لحبيبته أحسن غضارة ورونقًا ونعمة ونعيما، ولا أجمل من فرس من عداد خيل فرعون، تعيش فى حظائره ولا تعيش فى قصره، وحسب مصر دليلاً على فضلها وإشعاع حضارتها

(١) سفر الملوك الأول ١١ : ١ ـ ٣.

(٢) سفر الملوك الأول ١٠ : ٢٥ـ٢٨ وسورة ص ٣٠ـ٣٣.

أن تكون قبلة يتطلع إليها بالإكبار والإعجاب الحكماء والمترفون من العواهل والملوك.

وكان سليمان حكيمًا عالمًا، ومن قبله كان أبوه داود عليهما السلام. ولقد أثر عن داود وسليمان ما حفظ فى العهد القديم من مزامير داود وأمثال سليمان:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ١٥]

ولكن الحكمة إنما تسبقها الخبرة، وحصيلة التجربة والتعليم، ولهذه الحكمة من غير شك منابع وأصول، وقد كان لهما من غير شك وسائل وسبل قدرها الله كى تصل إليهما، ولئن كان داود وسليمان قد عاشا فى فلسطين، فلقد تعلما عن المدرسة التى أخذ عنها وعلمت من قبل يوسف ثم هارون وموسى.

إنها مصر التى شاعت فى فلسطين حضارتها وثقافتها ووقر فى النفوس علمها وحكمتها، وذلك بحكم ما انعقد بينهما من وشائج متصلة على مدى عصور قديمة ضاربة فى أغوار الزمان، وكذلك فما ينبغى أن نغفل من الحسبان علائق وثيقة ووشائج متينة توجت بالمصاهرة بين مصر وسليمان:

«وصاهر سليمان فرعون ملك مصر وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داود إلى أن أكمل بناء بيته وبيت الرب وسور أورشليم حواليها» [الملوك الأول ٣: ١-٢]

«صعد فرعون ملك مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين فى المدينة وأعطاها مهرا لابنته امرأة سليمان» . [الملوك الأول ٩ : ١٦]

كان لمصر بحكم تلك العلائق القديمة تأثيرها فى حضارة الشرق القديم وثقافته ، ومع ذلك فقد شاء الله أن ينكشف الدليل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه للعالمين ، وأن يتبين مقدار ذلك التأثير العميق ، حين تأذن فوفقهم إلى جلاء طلاسم الهيروغليفية والهيرطية والديموطية وقراءتها فى القرن الماضى ، وحين ظهر الناس على أناشيد أخناتون ، وسلطت أضواء الدراسة والبحث على ما كان عثر عليه من قراطيس البردى ، ومنها ما ظل حبيس المتحف البريطانى فلم يعرف محتواه إلا منذ أقل من قرن من الزمان ، هنالك عرف علماء الحضارة المصرية اسم پتاح حتپ ، وكاجمنى ، وأمن م أوپة ، وآنى ، وقرءوا حكمة هذا وذاك[١] ، وراعهم ما وجدوا بينها وبين مزامير داود ، وسفر الأمثال من شبه مدهش عجيب ، فهما ـ مصريًا وعبريا ـ لا يتفقان معنى وروحًا فحسب ، بل إنهما ليتفقان فى المعنى والمبنى ، ونكاد نقول فى اللفظ جميعًا ، وعاد العلماء إلى دراسة الكتاب المقدس وإمعان النظر فيه ليخرجوا من الدراسة والنظر إلى رأى قاطع وقول صريح ، فقرروا أن كاتب العهد القديم إنما كانت

(١) a) Z., Zaba, Les Maximes des Ptahhotep (Prague 1956);
b) Gardiner, the Instructions adressed to Kagemni and Bretheren JEA 32pp. 71-74 & ZÄ LXXVII (1941-1942)p. 13;
c) H.O. Lange, Das Weisheitsbuch des Amenemope, Kobenhavn (1952);
d) A. Volten, Studien Zum Weisheitsbuch des Anii (Kobehavn 1937); Ermans, The Ancient Egyptians, A Source book of their Writings (translated by A.M. Blackman New York 1966).

تحت يده ترجمة عبرية كاملة للكتاب الذى وضعه أمن م أوبة المصرى ، وأنه كان ينقل منها بغير تحفظ ، بل لقد مضت بهم الدراسة بفضل النص المصرى إلى تصحيح ما كان مشكوكًا فيه من ألفاظ النص العبرى من سفر الأمثال ، وإلى ترجيح معنى من معنيين لهما فى العبرية لفظ واحد أو لفظان متجانسان[1] .

ولو قد تعقبنا آثار الفكر المصرى فى العهد القديم لما اتسعت لها تلك الصحائف والفصول ، والذى لا شك فيه اليوم أن الديانة العبرية ، لما بلغت مرحلة تحتاج فيها إلى أساليب القول وأدوات التعبير ، قد تلمست فيما حولها من آداب الأمم الأخرى ما يكفى طلابها ويسد حاجتها ، حيث وقعت بحكم موقعها الجغرافى وأقدار التاريخ فى فلك مصر الثقافى[2] فضلا عن السياسى ، وما كان من التحام فلسطين بمصر منذ أقدم العصور ودخولها الإمبراطورية المصرية على عهد الدولة الحديثة ، حيث عمد العبرانيون إلى الأخذ والاقتباس عن مصر والمصريين ، وإذا بنا نجد فى العهد القديم فصولاً عبرية منقولة عن فصول مصرية ، أو عبارات وأخيلة مصرية متغلغلة فى تضاعيف النصوص العبرية وآيات العهد القديم ، وسنضرب الأمثال من هذا وذاك ونبدأ بمقارنة فصول من المزامير بأخرى من أناشيد أخناتون ومن بعدها مقارنة سفر الأمثال بحكم أمن م أوبة :

---

(١) انظر فجر الضمير تأليف جيمس هنرى برستد وترجمة سليم حسن صفحة ٢٩٨ وما بعدها حتى صفحة ٤٠٧ ، وكذلك انظر :

Gardiner, "Writing and Literature "in Glanville, The Legacy of Egypt (1947) p. 66-79.

(٢) Roland J. Williams, Some Egyptionisms in the Old Testament in Stuies in Honor of John A. Wilson (Chicago 1969) p. 93 ff.

نشيد أخناتون	مزامير داود (١٠٤)
وفى الصباح، إذا أشرقت فى الأفق انكشف الظلام	تشرق الشمس فتجتمع وفى مآويها تريض
وإذا الناس يقومون على أقدامهم فى العالم كله يؤدون أعمالهم	الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء
ما أكثر أعمالك	ما أعظم أعمالك يا رب
إنها خفية عن أنظار الناس	كلها بحكمة صنعت
خلقت الأرض كما تشاء	ملآنة الأرض من غناك
والسفن تجرى فى النهر صاعدة هابطة على سواء	هذا البحر الكبير الواسع الأطراف
والسمك يثب فى النهر أمامك	هناك دبابات بلا حدود
ونورك ينفذ إلى قلب الأخضر	صغار حيوان مع كبار
العظيم (البحر)	هناك تجرى السفن

وورث سليمان داود، ولكنه ورث فيما ورث حكمة المصريين التى وجدها عند أبيه ومن أوتى العلم فى فلسطين، وقد تجاوز سليمان الأناشيد والمزامير إلى الموعظة الحسنة، وضرب الأمثال، فإذا ما قرأناه لم نجد عن تذكر حكمة أمن م أوبة مصرفا، وقد أقرت الترجمة الحديثة للكتاب المقدس بالأخذ عنها[١].

(١) The Jerusalem Bible (London 1966) p. 723 ff.

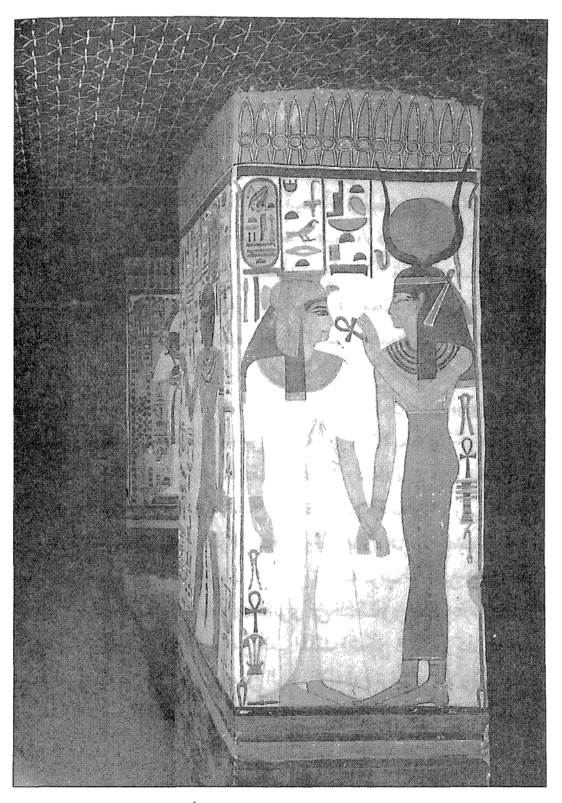
سفر الأمثال لسليمان	حكم أمن م أوبة ونصائحه
أمل أذنك واسمع كلام الحكماء	أمل أذنيك واسمع كلامى
ووجه قلبك إلى معرفتى	ووجه قلبك إلى فهمها
لأنه حسن إن حفظتها فى جوفك	لأنه مفيد إن حفظتها فى جوفك
	III 8 13
إن ثبتت جميعًا على شفتيك	واجعلها مستقرة فى صندق جوفك
(٢٢ : ١٧ـ١٨)	
ألم أكتب لك ثلاثين فصلاً[1]	تبصر لنفسك هذه الثلاثين فصلاً
من جهة مؤامرة ومعرفة	فإنها مسرة وتعليم XXVII 7-8
لأعلمك قسط كلام الحق	معرفة كيف تجيب الذى يتحدث
لترد جواب الحق للذين أرسلوك	وكيف ترد على تقرير لمن أرسله 6-15
لا تسلب الفقير لكونه فقيرًا	احذر أن تسلب الفقير
ولا تسحق المسكين فى الباب	وأن تظلم المحزون IV 4
(٢٢ : ٢٠ـ٢٢)	
لا تستصحب رجلاً غضوبًا	لا تستصحب غضوبًا
ومع رجل ساخط لا تجىء (٢٢ : ٢٤)	ولا تثقل عليه فى الحديث XI 13-14
لا تنقل التخم القديم الذى وضعه	لا تنقل العلامات من تخوم الحقول
آباؤك (٢٢ : ٢٨)	ولا تكن شرها نحو ذراع من أرض
	ولا تعتد على حدود أرملة VII 12-15

(١) واضح أن الفصول الثلاثين مأخوذة عن حكمة امنمأوبه حيث تقوم الفقرة كلها عليها.

سفر الأمثال لسليمان	حكم أمن م أوبة ونصائحه
أرأيت رجلاً مجتهداً فى عمله أمام الملوك يقف (٢٢ : ٢٩)	إن الكاتب الماهر فى وظيفته يجد نفسه جديرا بأن يكون من رجال البلاط XXXVII 16-17
إذا جلست تأكل مع متسلط فتأمل ماهو أمامك تأملا وضع سكينًا لحنجرتك إن كنت شرها . لا تشته أطايبه لأنها خبز أكاذيب (٢٣ : ١ ـ ٤)	لا تأكل خبزاً أمام عظيم ولا تكشف فاك أمامه وإذا أشبعتك لقمة حرام فإنما هى لذة لعابك . انظر إلى الوعاء الذى أمامك وعليك أن تجعله يكفيك XXIII 13-18
لا تتعب لتصير غنيا كف عن فطنتك (٢٣ : ٥)	لا تتعب طلبًا للمزيد إذا كفيت حاجتك فإذا جلب إليك بالسرقة لم يبت معك، وفى الفجر لا يكون فى بيتك
هل تطير عينيك نحوه وليس هو لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالنسر يطير نحو السماء (٢٣ : ٤ـ٥)	انظر مكانه وليس هناك 1X 14-18 لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالأوز يطير نحو السماء X 4-5

ومن العبارات والأساليب البلاغية المصرية، التى انتزعت من بيئتهم وعقيدتهم، ما نجدها كثيرة عند العبريين، من ذلك ما نجد فى سفر الخروج (١٣ : ٢) من وصف بكر البنين بأنه فاتح رحم أمه: «قدس لى كل بكر، كل فاتح رحم من بنى إسرائيل» وهى عبارة من أقدم العبارات المصرية، التى وردت فى نصوص الأهرام. وما نجد فى مراثى إرميا (٤ : ٢) من وصف فريد للملك صدقيا بأنه «نفس أنوفنا» وهى عبارة مصرية شائعة فى اللغة والفن نجدها مثلاً فيما ورد عن أخناتون، من أنه «نفس كل الأنوف التى يتنفس بها الناس»، ولا شك أن مثل تلك العبارات التى تنطق عما كان لفرعون فى عقيدة شعبه من طبيعة إلهية إنما تجعله مصدر حياتهم وسعادتهم، وقد كانت وجدت سبيلها من قبل، على عهد الإمبراطورية، إلى فلسطين. إذ كتب أبيمالكى والى مصر على صور، إلى مليكه أخناتون، يقول ممتدحًا: «ماذا تكون حياة امرئ لا تأتيه الأنفاس من فم سيده الملك»، وفى رسالة أخرى كتب يصور فرعون بأنه رب الشمس «الذى يمنح الحياة بنفسه الحلو». كذل كان من المدائح التى حظى بها رمسيس الثانى بأنه «نفس الحياة للناس أجمعين»، وفى نصائح «لمر يكارع» عن أبيه من عصر الفترة الأولى، ورد عن إله الشمس رع: «إنه خالق الريح حتى تحيا أنوفهم»، وفى ترنيمة لرب الشمس «إنك تمنح النسيم لأنوفهم» وذلك فضلاً عما نرى فى التصاوير المصرية من مناظر الآلهة وهى تقرب رمز الحياة من أنف الملك (شكل ٢٩)، وكذلك جاء فى سفر التكوين (٢ : ٧) «وجبل الرب الإله آدم ترابًا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسًا حية» كما روى عن أيوب قوله: (سفر أيوب ٢٧ : ٣) «. . ونفخة الله فى أنفى».

ومن مألوف العبارات المصرية الخالصة التى تدل على ما يتخذ الإنسان



(شكل ٢٩) إيسة تقرب رمز الحياة من أنف نفرتارى

من أسلوب حياته ما جاء فى مراثى إرميا من قوله (٣ : ٦٣) «انظر إلى جلوسهم ووقوفهم»، وفى مزامير داود (١٣٩ : ١) «يارب قد اختبرتنى وعرفتنى، أنت عرفت جلوسى وقيامى، فهمت كل فكرى من بعيد» وهى عبارة واردة فى نصوص الأهرام (سطر ٢١٩٨) أقدم مصادر الأدب المصرى الدينى، حيث ينادى الملك: «أيا ونيس عش قبالة فؤادك مثل انپو، قم واقعد على ألف من الخبز والجعة»، وعن كاجمنى من الدولة القديمة أن أولاده بعد أن تلقوا نصائحه «قاموا وقعدوا عليها»، أى أقاموا عليها ولزموها فاتبعوها وساروا على منهجها، وفى نصائح پتاح حتپ من الدولة القديمة كذلك قوله: «قم واقعد على مكانتك»، بمعنى اتبع من السلوك ما يتفق ومكانتك، وعن رخميرع وزير تحتمس الثالث، أنه قال: «قمت وقعدت على الأمامى والخلفي من أمراس السفينة»، بمعنى أنه أنفق شطراً من حياته سفانا.

ومما ورد فى العبارات المصرية فى أسفار التثنية وأشعيا ما حير المفسرين ممن لم يتنبهوا إلى مصدرها الأصيل، حتى كادوا برغم صحتها اللغوية، يتلمسون لها التعديل[1] والتصحيح، إذ جاء فى سفر أشعيا (٤٥ : ١٥) قوله: «حقا أنت إله محتجب يا إله إسرائيل المخلص»، وقد كان مبعث الصعوبة والحيرة تفرد معنى العبارة فى هذا الموضع من العهد القديم واختلافه عما ذكر فى المزامير مجازا من أن يهوه يحجب نفسه (١٠ : ١، ٨٩ : ٤٧) وذلك بمعنى امتناعه عن بذل العون، إذا ما دعى، حيث نجد عبارة المزامير أدنى إلى الشكوى من أن الرب قد حجب وجهه عن الشاكى، ولذلك فإن المعنى من عبارة أشعيا إنما ندركه من النظر فى

(١) J. William (In Wilson Studies)

الأدب المصرى حيث تسود عقيدة الخفى الغامض ، كان آمون عند المصريين إلها خفيا ويعنى اسمه «الخفى» وقد ورد عنه فيما ورد من أنشودة بمتحف القاهرة أنه «الخفى اسمه عن بنيه فى اسمه هذا آمون»(١) ، وفى بردية من منتصف القرن الثالث عشر من قبل مولد المسيح ، يُمتدح آمون من حيث هو قوة خفية تسود كل شىء : «آمون الوحيد الذى يخفى نفسه عن الأرباب ، ولا يعرف امرؤ طبيعته . هو أبعد من الشمس وأعمق من العالم السفلى»(٢) وكذلك جاء عن رع فى تعاليم مريكارع : «لقد أخفى نفسه العليم بالخلائق» .

وجملة فريدة أخرى من سفر أشعيا (٥٤ : ٢) واضح أنها مستمدة من الأدب المصرى أن «أوسعى مكان خيمتك» إذ هى من العبارات المألوفة المعروفة فى المصادر المصرية منذ الدولة القديمة ، كما جاء عن كاجمنى قوله : «رحب مكان السعيد» ، كناية عن حرية السعيد فى الوصول حيث يشاء ، وقول پتاح حتپ «رحب مكان المدعو» ، ومن عصر الدولة الوسطى عن سنوهة فى منفاه أنه قال «رحب مكانى» بمعنى حريته فى التنقل حيث يشاء ، ومن عهد حاتشبسوت من الأسرة الثامنة عشرة عن موظف صغير اسمه سنمى عنخ قوله : «رحب المكان فى بيت الحياة» ، أى أن له حرية الوصول إلى بيت الحياة ، ويؤكد تحتمس الثالث فى نصوص تتويجه أن «آمون قد منحنى الملك حتى أوسع أمكنة خالقى» ، وقريب من ذلك التعبير البلاغى عبارة «وسيع الخطى» ، بمعنى حرية الحركة والتقدم والنصر ، وقد ورد أقدم مثل لذلك فى متون الأهرام فى وصف الولد

---

(١) ibid

(٢) ibid

على سبيل المثال بأنه وسيعة خطاه[1]، وفى أبيدوس يتوجه رمسيس الثانى بالخطاب إلى أبيه سيتى الأول فيقول: «خطاك وسيعة فى العالم السفلى»[2]، وذلك فضلا عما نجد فى بردية أنسطاسى من الدولة الحديثة من عبارة «وسيع الخطى فى المكان السرى»[3]، ومن العصر البطلمى قولهم: «كانت خطاى وسيعة من أجلك فى القصر»[4]، وقد وَجَدت هذه العبارة بنصها سبيلاً إلى آداب الكتاب المقدس، فيقول مزمور يتردد مرتين فى العهد القديم «توسع خطواتى» (٨ : ٣٦)، وفى آخر «أقمت فى الرحب رجلى» (٣١ : ٨) على حين ورد المعنى معكوسا فى سفر الأمثال (٤ : ١٢) «إذا سرت فلا تضيق خطواتك، وإذا سعيت فلا تعثر»، وفى سفر أيوب (١٨ : ٧) «تقصر خطوات قوته وتصرعه مشورته».

وبعد فما زال فى العهد القديم من مثل ذلك كثير، وذلك فضلا عما فيه من عبارات أخذت عن الحياة الدينية فى مصر وعن تصاويرها.

من ذلك ما جاء فى سفر الأمثال «والرب وازن القلوب» (٢١ : ٢)، «أفلا يفهم وازن القلوب» (٢٤ : ١٢)، وتلك عبارة لا شك فى صدورها عن الديانة المصرية، يوم انفردت فى الشرق القديم، من دون ما كان فيه من عقائد بقولها: إن الإله يزن قلب الإنسان، وقد كان ذلك يجرى بين يدى أوسير فى الآخرة، حيث حفظت من مناظر القبور وتصاوير كتاب

---

(١) Pyr. 886 c; cf. 2123 c, 917 c.

(٢) H. Gauthier, La Grande Inscription Dedicatoire d'Abydos (Le Caire 1912), 1.91; Kitchen, Ramesside Inscriptions II p. 333 1.95.

(٣) Pap. Anastasi III, 2.

(٤) Sethe, Urkunden II 3 1.12.

الموتى أمثلة كثيرة، كان قلب الميت فيها يوزن لقاء ريشة يكتب بها لفظ الحق والعدل ماعت ويرمز برسمها إليهما، وذلك تحت إشراف رب الحكمة چحوتى (شكل ٣١)، ثم عبارة أخرى وردت فى سفر ملاخى (٤ : ٢) لا شك فى صدورها عن أصل مصرى: «ولكم أيها المتقون اسمى، تشرق شمس البر والشفاءفى أجنحتها».

وتلك صورة لا حاجة بنا إلى الإفاضة فى الحديث فيها بالتشبيه إلى صورة الشمس المجنحة، وكانت من الرموز المصرية التى لا يكاد يخلو منها أثر من آثار الدين فى مصر، فإذا كان لنا أن نضيف فإنما نتحدث عن «البر» فى تلك الآية، وقد وردت فى الترجمات الإنجليزية[١]، والفرنسية[٢]، والألمانية[٣]، بمعنى الحق والعدل، والقانون، والمساواة، وهى المعانى التى شملها كلها اسم الالهة المصرية القديمة، ماعت رمز تلك المعانى وربتها جميعا وقد كانت بنت رب الشمس فى مصر وتصور مجنحة أحيانا (شكل ٣٠) ولذلك فإن الحديث فى العهد القديم عما تفيض شمس العدالة من شفاء، وما لها من أجنحة تشرق بها، إنما هو لا شك مستنير بما كان فى الحياة المصرية والديانة المصرية، وفنون التصوير المصرية، لا مراء.

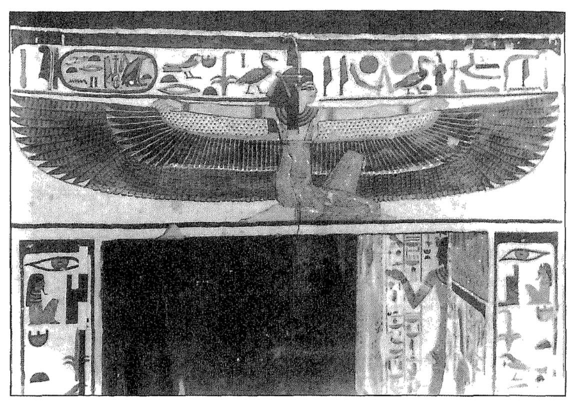
ومع ذلك فقد تأيد ما كان شائعا فى بنى إسرائيل من تلك التصورات المصرية، بما عثر عليه فى السامرة من تصاوير فلسطينية الصنع مصرية النمط والموضوع، وذلك فى خرائب قصر الملوك من بنى إسرائيل، حيث

---

(١) Righteousness

(٢) Justice

(٣) Gerchtigkeit



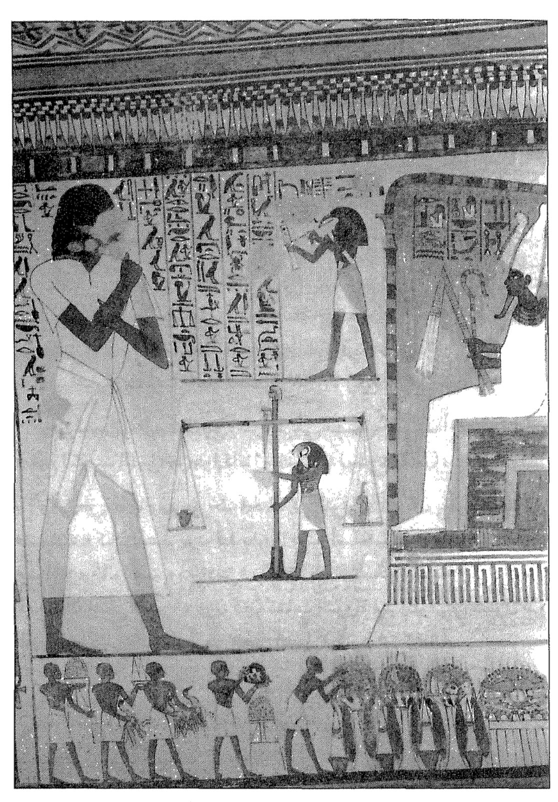
(شكل ٣٠) ماعت ربة العدل مجنحة

كشفت الحفائر عن بعض ما كانت تطعم به قطع الأثاث من ألواح العاج المنقوشة، وفى أحدها منظر لبعض ما عبدوا ربًا للشمس، اتخذوه فى شخص رع حراختى المصرى، إنسانا برأس صقر متوج بقرص الشمس، إذ يرى راكعا رافعا كفه برمز الحق والعدل وربتهما ماعت المصرية، وفى الثانية صورة حور الطفل أو حربوخراد منبعثا من زهرة من زهور السوسن، وأما الثالثة فتصور إيسة، ونبت حت، فى صورة حدأتين تكتنفان أخاهما أوسير (شكل ٣٢).

ولقد بلغ من شيوع تلك العبادات والعقائد الوثنية منذ عهد باكر فى بنى إسرائيل وتغلغلها فيهم، أن صاحب سفر الملوك الثانى بعد الذى فصّل من حديث فى قومه من مروق وردّة إلى الكفر والوثنية (إصحاح ١٧ : ٧-٢٣) قد نسب إلى موسى صنع حية من نحاس ظل بنو إسرائيل يقربون لها ويوقدون بين يديها، حتى أزالها وسحقها حزقيا بن آحاز ملك يهوذا: «هو أزال المرتفعات، وكسر التماثيل، وقطع السوارى، وسحق حيه النحاس التى عملها موسى، لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ودعوها نحشتان». (الملوك الثانى : ١٨ ـ ٤)

ولا حاجة بنا إلى القول: إن الحية إنما كانت من مصر، حيث اتخذت صورة الحية لكثير مما قدس المصريون من إناث المعبودات، ورمزوا بها إليهن.

على أن أجَلّ ما يستحق الذكر عادات مصرية خرج بها بنو إسرائيل من مصر، فتحولت شعائر مقدسة فى ملة اليهود، إذ خرجوا بعادة الختان، والغسل من الجنابة، وتطهر الوالدة بعد أن تضع حملها، ثم المحرقات، أو تصعيد ذبائح القربان بالحريق.



(شكل ٣١) ميزان الأعمال فى الآخرة

أما الختان فكان معروفًا منذ أقدم العصور حيث كشف عما يدل عليه مما عثر عليه فى جبانات فجر التاريخ من قبل أربعة آلاف عام من قبل مولد المسيح، وذلك من جسوم بلغ من حفظها أن أمكن فحصها والاستدلال على اتباعهم الختان، وذلك فضلا عن صورة لجراحة الختان من الدولة القديمة فى قبر عنخ مع حور بسقارة، وكان من أطباء الأسرة السادسة، وأخرى من الدولة الحديثة بالكرنك، وظاهر من أخبار التوراة كذلك أن إبراهيم عليه السلام لم يختتن إلا بعد عودته من مصر وإنجابه إسماعيل:

«وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن فى لحم غرلته، وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن فى لحم غرلته فى ذلك اليوم ختن إبراهيم وإسماعيل ابنه» (تكوين ١٧ : ٢٤ـ٢٦)

ومن بعد إبراهيم كان بنو إسرائيل فى مصر يختتنون أجمعين «لأن جميع الشعب الذين خرجوا كانوا مختونين» (يشوع ٥ : ٤).

ومن طريف ما ورد فى خبر الختان فى التوراة، أنه كان يجرى بأداة من صوان، وكان المصريون قد بدءوا صنع أسلحتهم وسكاكينهم من صوان، وكانوا يسمونه «دس»، ثم لم يلبث السكين نفسه ولو كان من المعدن أن سمى «دس»، وإن كان كتاب التوراة قد ظلوا يترجمون عن المصرية ما يدل عليه اللفظ من معنى أصيل (يشوع ٥ : ٢-٥).

وأما الغسل من الجنابة فقد دل عليه ما روينا من قصة الكاهن الذى تربص لعشيق زوجته وهو يغتسل فى بحيرة دارها[1]، وكان المصريون

(١) Lefebvre, op. cit. p. 76

يحرصون أشد الحرص على الاغتسال قبل دخول المعابد أو القبور، ويحذورن من دخولها أقصى غاية الحذر على غير تطهر[1]، وكذلك كان على المصرية التطهر إذا وضعت حملها بعد أربعة عشر يوما من الوضع كما تحدثت بذلك بردية وستكار عن تطهر ردجدت فى أعقاب وضعها توائمها الثلاثة[2]، وكذلك فعل العبريون، لولا أنهم نزلوا بتلك الفترة إلى النصف إذا وضعت غلاما:

«إذا حبلت امرأة وولدت ذكرا، تكون نجسة سبعة أيام، كما فى أيام طمث علتها تكون نجسة، وفى اليوم الثامن يختن لحم غرلته، ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوما فى دم تطهيرها، كل شىء مقدس لا تمس وإلى المقدس لا تجىء حتى تكمل أيام تطهيرها، وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين كما فى طمثها . .» (لاويين ١٢ : ٢-٥).

وفى سفر الخروج توصية من موسى - من قبل نزول الشريعة - «وقال للشعب كونوا مستعدين لليوم الثالث لا تقربوا امرأة» (خروج ١٩ : ١٥)

وكذلك فى سفر صمويل الأول نجد داود وهو يتساءل عن إمكان أكله من الخبز المقدس فيقول:

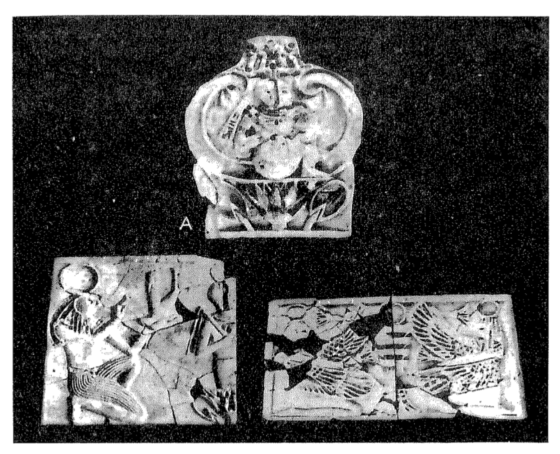
«ألم نتجنب النساء منذ ثلاثة أيام . . فكل رجالى طاهرون».
(صمويل الأول ٢١ : ٤-٥)

أما المحرقة أو الصعيدة فكانت من أهم ما أخذ اليهود عن المصريين من شعائر، وكان المصريون منذ الدولة القديمة يصعدون القربان فى شعائرهم

---

(١) Urk I 49, 122, 173.

(٢) Lefebvre, op. cit, p. 89.



(شكل ٣٢) قطع إسرائيلية من عاج عليها صور الأرباب المصرية

الجنزية[١] والتعبدية، فقد عهدنا تلك الشعيرة التى يسمونها «سبن سچت» فى قبر سنب بالجيزة وفى قبر منا بالأقصر أو شكرا للأرباب إذا خرجوا مثلا إلى سفر وقد قدم البحار الغريق الذى حطمت الأنواء سفينته، ثم ألقته الأمواج على شاطىء جزيرة منعزلة فى البحر الأحمر ذلك، فأقام محرقة[٢]، وكانت شعائر المحرقة عند اليهود تقضى بتقديم ذبيحة تحرق فى الصباح وأخرى فى المساء[٣]، وكذلك كان المصريون من قبل يفعلون[٤].

---

(١) Junker, H., Das Brandopfer im Totenkult in Miscellania Gregoriana (1941) p.109-119.

(٢) Lefebvre, op. cit. p. 34.

(٣) سفر الخروج ٢٩ : ٣٨ ثم انظر : حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى أطواره ومذاهبه (القاهرة ١٩٧١) ص ٨٦-٨٧.

(٤) Pyr. 716 a, b; 1876 a, b;Wild, Le Tombeau de Ti (M.I.F.A.O.) I pl. L; Mac-ramallah, Le Mastaba d' Idout p. 22 pl. XIX.

فـى

سنة رسول الله ﷺ

شرفت مصر من محمد ﷺ بدعوتها فى شخص حاكمها إلى الإسلام، إذ كتب إلى المقوقس وإلى الروم عليها كتابه المشهور إذ يقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم كل القبط».

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]

وقد ردَّ المقوقس فبعث إلى رسول الله ﷺ جارية، هى مارية القبطية التى أنجبت له ابنه إبراهيم.

ثم كان لرسول الله ﷺ فى مصر وأهل مصر من أحاديثه الشريفة،

من جوامع الكلم ما قدر لها ولهم من الفضل والكرم ما ننقله بسنده هنا عن جلال الدين السيوطى من كتابه، حسن المحاضرة، فى أخبار مصر والقاهرة قال:

قال أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم، فى فتوح مصر، حدثنا أشهب بن عبدالعزيز، وعبدالملك بن سلمة قال: حدثنا مالك بن أنس عن ابن شهاب، عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال: سمعت رسول‌الله ﷺ يقول: «إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحمًا». وأخرج مسلم فى صحيحه عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: ستفتحون مصر، وهى أرض يسمى فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا».

وأخرج ابن عبدالحكم من طريق بحير بن داجر المغافرى، عن عمرو ابن العاص، عن عمر بن الخطاب، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرًا فإن لكم منهم صهراً وذمة».

وأخرج الطبرانى فى الكبير، وأبو نعيم فى دلائل النبوة بسند صحيح عن أم سلمة، أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته فقال: «الله الله فى قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة وأعوانًا فى سبيل الله».

وأخرج أبو يعلى فى سنده، وابن عبدالحكم بسند صحيح من طريق ابن هانىء الخولانى عن أبى عبدالرحمن الجبلى، وعمرو بن حريث، وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم ستقدمون على قوم جعد

رءوسهم، فاستوصوا بهم خيراً فإنهم قوة وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله، يعنى قبط مصر».

وأخرج ابن عبدالحكم من طريق ابن سالم الجيشانى وسفيان بن هانىء، أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أخبره، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنكم ستكونون أجناداً وخير أجنادكم أهل المغرب منكم، فاتقوا الله فى القبط لا تأكلوهم أكل الخضر».

وأخرج ابن عبدالحكم عن مسلم بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بالقبط خيراً فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم».

وأخرج ابن عبدالحكم عن موسى بن أبى أيوب اليافعى عن رجل من المربد، أن رسول الله ﷺ مرض، فأغمى عليه، ثم أفاق، فقال: «استوصوا بالأدم الجعد ثم أغمى عليه الثانية، ثم أفاق، فقال مثل ذلك فقال القوم: لو سألنا رسول الله ﷺ من الأدم الجعد؟ فأفاق فسألوه فقال قبط مصر، فإنهم أخوال وأصهار، وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم، فقالوا كيف يكونون أعواننا على ديننا يارسول الله، فقال يكفونكم أعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة، فالراضى بما يؤتى إليهم كالفاعل بهم، والكاره لما يؤتى إليهم من الظلم كالمستنزه عنهم».

وأخرج ابن عبدالحكم عن ابن لهيعة قال: حدثنى عمر مولى عفرة، أن رسول الله ﷺ قال: «الله الله فى أهل الذمة، أهل المدرة السود السحم الجعاد فإن لهم نسباً وصهراً»، قال عمر مولى عفرة صهرهم إن رسول الله ﷺ تَسَرَّى منهم، ونسبهم أن أم إسماعيل عليه السلام منهم، فأخبرنى ابن لهيعة أن أم إسماعيل هاجر من أم العرب.

وقال إمام بن عبدالحكم، حدثنا عمر بن صالح أخبرنا مرداني القصاص قال: صاهر القبط من الأنبياء ثلاثة، إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسرى هاجر، ويوسف عليه الصلاة والسلام تزوج بنت صاحب عين شمس، ورسول الله ﷺ تسرى مارية.

وأخرج ابن عبدالحكم عن يزيد بن أبى حبيب أن المقوقس أهدى إلى النبى ﷺ عسلاً من عسل بنها فأعجب به النبى ﷺ فدعا فى عسل بنها بالبركة، مرسل حسن الإسناد.

وأخرج ابن عبدالحكم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه - سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك خير أجناد الأرض، فقال ولم يا رسول الله؟ قال لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة.

القبـــط:

تحدث رسول الله ﷺ، كما تحدث مؤرخو عصره عن المصريين باسم القبط والأقباط، ومن ذلك اللفظ كان اسمها الذى عرفت به عند الإغريق والرومان، ثم عند الأوروبيين من بعد ذلك أجمعين. ولم يكن لاسمهم هذا من دلالة على ما كانوا ينتحلون من ملة أو يعتنقون من دين، فكل من فيها ومن كان فيها قبط، وأقباط، ولم يكن ذلك اللفظ إلا تصحيفًا لاسم من أسماء مدينتهم منف التى كانت فى مصر عاصمة كبرى من عواصم الدنيا والدين، حيث نشأ فيها لمعبودهم پتاح معبد عظيم عرف باسم حت كاپتاح بمعنى دار روح پتاح. بلغ من الرفعة وذيوع

الصيت بين المصريين ومن ساكنهم من الجاليات الأجنبية الكثيرة، أن أضفى اسمه على المدينة كلها، ثم على البلد كله، فإذا بمنف ثم مصر كلها تعرف باسم حت كاپتاح، ومنه كان إيجپتوس وقبط ثم إيجبت EGYPT، فالمصريون بذلك قبط وأقباط من قبل الإسلام ومن بعد الإسلام. وهم كذلك سواء من أقام على ملة المسيح أو دخل فى دين الإسلام. ولا فرق بين أن يقال مصرى وقبطى إلا كالفرق بين القول شامى ودمشقى، أو إنجليزى وبريطانى، أو كالفرق بين النسبة إلى العراق، وبين اسمها القديم بابل، أو بلاد النهرين Mesopotamia.

ومهما يكن من سند ما أوردنا من أحاديث رسول الله ﷺ فى أهل مصر وهى عن رجل من كبار علماء المسلمين المفسرين، فهى تتناول أمورًا ثلاثة نجد مصدقًا لما بين أيدينا منها، من أحداث التاريخ وأحوال أهلها.

الأول: أن للعرب فيهم صهرًا وذمة.

الثانى: أنهم يكونون قوة وبلاغًا إلى عدوهم.

الثالث: أنهم خير الأجناد وأنهم يكونون على قتال عدوهم نعم الأعوان.

وهى من الحقائق الناصعات التى صدقتها وقائع الأحداث وأثبتها التاريخ على مر القرون والعصور.

فهم - فيما روى عنه ﷺ للعرب أخوال وأصهار فمنهم هاجر، أو هاقر، أم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ولا حاجة بنا إلى التفصيل

فيما أسلفناه وفصلناه، ومنهم مارية القبطية التى تسراها، وأنجب منها إبراهيمَ محمدٌ رسول الله ﷺ .

ومع ذلك فلم يكن المصرى قصىّ العرق من العربى فى غابر الأعوام، ولا حاضر الأيام، فلقد شهدت العصور الأولى من فجر التاريخ شعوبًا وبطونًا عربية، أو سامية كما تسمى فى المراجع، تنطلق من قلب الجزيرة العربية كلها كل منطلق إلى مواقع الخصب والاستقرار، فمنهم من استقر فى أرض الفراتين فكانوا من أصول العراقيين أكديين وبابليين، ومنهم من أقام فى أرض الشام فكانوا من أرومة السوريين واللبنانيين من آراميين، وفينيقيين. وآخرون أخلدوا إلى أقصى الشرق من الجزيرة العربية أو أقصى الجنوب منها عمانيين، وحضارمة، ويمانيين. وآخرون مضوا فاجتازوا سيناء أو عبروا مضيق باب المندب إلى أرض مصر على ضفاف النيل ليكونوا مصريين، أولئك وهؤلاء كانوا شعوبًا وقبائل سامية تتفرع من أصل واحد ترد نسبته إلى سام بن نوح ويتكلمون لغات نبطت من معين واحد، وإن بعدت فيما بينها الشقة من بعد التفرق والانشعاب حيث كان التوطن والاستقرار.

ولم يكن لقبيلة يومئذ أن تؤثر نفسها ـ وكلها من أصل واحد[1] ـ بصفة العروبة دون غيرها من أهل تلك الأمصار أو هذه الديار. فلم يكن مدلول العروبة، ولا معناها، قد ثبتا بعد إلى الوجود. ولقد أتى على العرب حين من الدهر، كانوا يتكلمون فيه لغات ولهجات شتى لا يكاد يجمعها، إلا العرق والدم برغم عسر التفاهم بل عسر التقارب والوئام.

---

(١) دتيلف نيلسن وفريتز هومل وردو كاناكس وأدلف جرومن «التاريخ العربى القديم» (ترجمه واستكمله فؤاد حسنين على) ص٢٧.

ولم تكن لغة السبئيين والحميريين فى أقصى جنوب الجزيرة العربية بأقرب من المصرية إلى النبطية والآرامية فى أقصى شمالها[1].

ولقد كانت اللغة المصرية القديمة لغة ذات صبغة سامية لا تخفى فى بنيتها وكثير من ألفاظها، فهى تقوم على الفعل الثلاثى الذى يصرف ويشتق منه اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة. وتتشابه فيها الضمائر المنفصلة والمتصلة بنظائرها فى العربية والعبرية والأكدية والآرامية، والجعزية الحبشية والسبئية، ويثنى فيها الاسم فضلاً عن جمعه بل جمعه بالواو، كل ذلك فضلاً عن شبه لا يكاد يقع تحت حصر فى ألفاظ اللغة وكلماتها، فمنها ما يبدو صريحًا لا لبس فيه، ومنها ما هو مستخف من وراء القلب والتصحيف، أو تبدل المتشابه من الحروف[2].

فلما تأذن ربك بفتح مصر تحت راية الإسلام إذا بها بمن تغلغل فيها من العرب وأقبل عليها من أنصار القرآن، تنصهر بصهرهم وتستحيل عربية صريحة، بقلبها ولسانها، وإذا بها تنقاد لقدرها المقدور فتكون الإمام والزعيم.

على أن زعامتها لم تكن فريسة غصبتها، ولا غنيمة افترصتها من دون الآخرين، بل كانت أمرًا منطقيًّا تتداعى إليه وقائع الأحداث والتاريخ كأنها حقائق العلوم وأفلاك النجوم؛ لذلك كانت وتكون فى تلك الرقعة من الأرض الزعيم وصانع الزعماء، ثم تكون وأهلها كما روى عن رسول الله ﷺ نعم الأعوان، ولئن كان صلاح الدين الأيوبى زعيمًا وبطلاً فى العرب والمسلمين فما كان لزعامته أن تستقيم ويورى

(١) اسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية.

(٢) انظر الملحق فى آخر هذا الكتاب.

زنادها بغير مصر، وما كان لمحمد علىّ أوائل القرن الماضى أن يبلغ ما بلغ بغير مصر، ومن قبله أدرك المعز لدين الله من عرشه فى المغرب أن لا غناء ـ فيما أراد لنفسه ولدولته ـ عن مصر. ولقد كان قوله فى خطبته عند إنفاذه جوهرًا لفتحها قولاً عن بصر وبصيرة وعن تقدير وتدبير إذ قال: «ولسوف يفتح جوهر مصر، ويبنى هناك مدينة تقهر الدنيا».

وقد فتحها وأنشأ القاهرة

ومع ذلك فلم تكن تلك الزعامة ادعاء منها فرضته أو ادعته على خلاف المنطق والأحداث، وحسبها من ذلك أن يرشحها لذلك الأعداء ويقروا لها به فيما صدروا عنه من فعل لمصلحتهم هم لا لمصلحتها هى. فلقد أدرك الصليبيون، أن لا مستقر لهم فى الشرق باستقرار مصر، ولا نصر لهم يحقق لهم المطامع وفى مصر عرق ينبض بالمقاومة والصراع، فلم يبالوا أن تتحول حملاتهم عما خرجت له من بيت المقدس إلى مصر. لأنهم أدركوا أن لا مناص لهم ـ قبل كل شىء ـ من تحطيم الرأس والقضاء على الروح المحركة، والقوة الدافعة[1]. أو أنهم أدركوا أن فى أهلها ـ ما روى عن رسول الله صلوات الله عليه ـ قوة وبلاغًا إلى عدوهم، فتصدت لهجومهم بقيادة چان دى برين على عهد الملك العادل الأيوبى وخليفته الملك الكامل؛ ثم استقبلت حملة السلام التى أقبل بها الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى، ثم عادت فتصدت لحملة لويس التاسع المشهورة، على عهدى الصالح أيوب وابنه توران شاه، فبذلت

(١) Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages (London 1914) p.218

لكل منهما مثل الذى أراد، فجنحت مع من جنح إلى السلم وأذاقت الهوان من أراد بها الهوان.

بل لقد ظل إقرار الأعداء بتلك الزعامة واستشعارهم ما فى طاقتها من قدرة قائمًا فى عصور ضعفها، ومحنها واضطرارها إلى الاستكانة حينًا، لحكم غاصب دخيل. فما خضعت لسلطان إلا وضع لحكمها نظامًا مميزًا، يخيل به لنفسه أنه يحول بينها وبين التحلل من قيوده والتحرر منه أولاً، ويحول بينها وبين الامتداد إلى جيرانها بالعون والتأييد ثانيًا.

كذلك فعل الرومان، وكذلك فعل الترك من آل عثمان، ومع ذلك فهيهات هيهات، مهما طال الأمد أو بعدت الشقة، أن يعرقل برية الخالق إنسان، أو يعطل مسير الزمان. فلقد ظلت وستظل من العرب بمنزلة القلب، والمقتل من الجسم لمن أرادهم بمكروه. من أصابها أصابهم، ومن عزلها عنهم فكأنما عزل عن الجسم الرأس وشل مراكز الأعصاب.

وكذلك دبرت وتدبر دول المطامع فى العصر الحديث.

وكذلك أقامت بينها وبين أخواتها العربيات حائلاً من أحقاد الصهيونية وأطماعها. ولكن هيهات هيهات - مهما طال الأمد أو بعدت الشقة - أن يعرقل برية الخالق إنسان أو يعطل مسير الزمان.

ومع ذلك فهل يدرك الإخوة العرب اليوم أن الأوان للعمل قد آن؟ وما أصدقها من قولة لعظيم من عواهل العرب المحدثين هو «الواثق بالودود عبدالعزيز آل سعود» قال:

«صلاح العرب بصلاح مصر

إذا استقامت أمور مصر استقاموا

وإن أصابها ـ لا قدر الله ـ العوج ضلوا الطريق[1].

وفضلاً عن ذلك فلم يبعد بنا العهد عام ١٩٥٦ بمن قال من ساسة فرنسا يومئذ، «إن معركة الجزائر إنما تقاتل فى القاهرة». فتلك إذن حقيقة الحقائق لا ريبة ولا مراء.

وحسبها وقد اختلطت بالعقول والأحاسيس والمشاعر أن يقول بها حكيم من عواهل الشرق، وأريب من ساسة الغرب، ويقول بها على لسان مصر شاعر، ترجم بها عن حِسٍّ كل عربى يستطعم الطعام، ويمشى فى الأسواق:

أنا إن قـــدر الإله ممـــاتى لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى

ولقد لقيت مصر ما لقيت بحكم ما احتملت من كفالة فُرضت عليها بما جبلت عليه من خلقها وخليقتها، ولم تجد عنها ـ شهامة والتزامًا فى سبيل أخواتها ـ مصرفًا، وإدراكًا منها مع ذلك أنها وأخواتها كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وصدق رسول الله ﷺ بما روى عنه من قوله فيها:

«فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا فذلك خير أجناد الأرض»

«فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم»

«ويكونون لكم عدة وأعوانًا فى سبيل الله»

ولقد مكن الله لها ذلك، بما توفر لها من أموال وبنين، وبما حباها به

---

(١) عن محمد حسنين هيكل فى مقاله بصراحة بصحيفة الأهرام يوم الجمعة ٢٢ ديسمبر ١٩٧٢.

من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، فطوع لها المدد، بل الأمداد من الجند الكثيف، وما زال فى طوعها بالتنظيم والتسليح تجنيد خمسة آلاف ألف من المقاتلة مدججين. أولئك ينبعثون من أرض فرضت عليهم - مع سخائها - الدأب والمثابرة والكد والكفاح، حيث نشأ المصرى عاملاً بطبعه منشئًا بفطرته على مدى تاريخه القديم والحديث، من الهرم العالى إلى السد العالى، ومن كفاح مع الهكسوس فى هوارة وشاروحان، إلى معارك تحتمس الثالث فى مجدو وقرقميش، ومعارك ابنه امنحتب الثانى فى شمس أدوم والأورونت والنهرين، ثم معارك رمسيس الثانى فى قدش ودابور وتونب وحلب، ثم كفاح مع الصليبيين والمغول، ثم الترك والفرنسيين والإنجليز والصهيونيين. كفاح للرزق مع الأرض لاستخلاص الأرض، وكفاح من أجل الأرض للدفاع عن الأرض، واختلاف الأيام عليها بالنحوس والسعود، وبالهزيمة والانتصار، ولكنه فى هذا كله جلد دءوب قوى صبور، فما تغشاه من محنة إلا تغلب عليها واجتازها، وفرض نفسه عليها.

ولقد أقبل على مصر البطالمة فحكموها، وحرموا أهلها الجندية إلا خدمًا معاونين، فلما اضطر فيلوباتور إلى تجنيدهم، حين اشتدت عليه وتأزمت الأمور، إذا بهم برغم طول عزلة عن الجندية يخوضون عام ٢١٧ ق. م، معركة هائلة فى رفح، انتزعوا فيها من السليوكيين النصر المبين، وأثبتوا ما فى أعماقهم من قوة كامنة تنطلق ما أتيح لها التفجر والانطلاق.

لقد صدق رسول الله ﷺ فيما قدر لأهل هذا المصر من مصير، كفاح لم ينقطع، ولن ينقطع مادام فى الأرض، يضطرب فيها بغرائزهم

ونزعاتهم الناس من قابيل وهابيل. ولذلك فهم كما قال «فى رباط إلى يوم القيامة»، ولا غرو يكونون لذلك خير أجناد الأرض.

وهم مع ما جبلوا عليه من القوة والدأب قد امتازوا كذلك بقوة تهون معها قوة العضل، وبأس الحديد.

تلك هى:

قــوة الإيمــان

إيمان بربه هون عليه الموت حيث أنكر الموت، فما رآه إلا مجازاً إلى حياة الخلود.

إيمان أقام فى نفسه على اختلاف الملل والنحل على القرون والعصور من نحلة «أوسير» وحور بن ايسة إلى ملة عيسى بن مريم، إلى دين الإسلام فهو صائر بنص هذه أو تلك إلى حقول يارو، أو الحياة الأبدية أو جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار.

ثم إيمان بوطنه الذى تخيل فردوس الآخرة على صورته، أو إيمان بأن بلاده «أم الدنيا»، ولذلك فهو يلاقى مصيره وأقداره مقبلاً غير مدبر، ولذلك فهو وآله من قبل فى رباط، وصدق رسول الله ﷺ: «ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم»، فما تنزل من محنة يتعرض لها العرب إلا كانت مصر صاحبة الكفل الأعظم فيما تحتمل من تلك المحنة، ثم صاحبة السهم الأكبر فيما تبذل لإبلاغهم النجاة والخلاص.

كانوا هم الصخرة التى تحطمت عليها أمواج المغول وجحافل المغول فى عين جالوت، حين تدافعوا كالسيل العرم على العراق يدمرون ويخربون، حتى «احمرت الأرض من دم العباد، واسود ماءدجلة من المداد». . إذ كانوا هم القوة التى أنقذت حضارة الإسلام من جند هولاكو ثم جند غازان.

وكذلك خاضت ما شاء الله من معارك ضد جحافل الصليبيين، حيث شاء الله، وبيد بنيها أن تخلى المشرق ممن تستروا بالمسيح واعتصموا بأطماعهم من وراء الصلبان. وشهدت لها صحائف الأيام بما بذلت فى أرسوف وفى المنصورة وفارسكور، ثم فى عكا وأرواد. لذلك فقد كتب على المصريين بحكم موقعهم كما قدمنا وتكرر أن يكونوا كما قال رسول الله ﷺ فى رباط، أو كما نقول نحن فى تأهب واستعداد. ولقد علمهم التاريخ، وما ينبغى أن ينسوا أنهم منتصرون ما أقاموا فى رباط متأهبين، ممسكين أسلحتهم متمسكين بالأخلاق وجهاد النفس ساهرين، وأنهم أذلة صاغرون إن أعرضوا وتركوا السلاح، أو أهملوا النضال والكفاح.

ووالله إنها لهم وللعرب بدر أو أحد، أو هى الأحزاب أو حنين، لا اختلاف. مهما بعدت الشقة أو تقلب الزمان.

إيمان ونظام يحفظان القوة ويأتيان بالنصر.

أو أطماع ومغانم، وغرور وغلول، وتهريج ورياء، تجر الهزيمة وتستتبع الهوان، وما أرى رباط اليوم بغير العلم الذى لا غناء عنه فهو اليوم، صنو الحياة والأنفاس.

ولا رباط اليوم بغير رزقنا نكسبه، وطعامنا كله ننتجه، وسلاحنا مهما غلا نصنعه فلا نتكفف فى سبيله وعوداً قد لا تجاوز الشفاه.

لقد كانوا وما زالوا خير أجناد الأرض منذ عصور الفراعين حتى هذا الجيل من أبنائها المحدثين.

ولقد أثبتوا للبطالة فى موقعة رفح بعد طول حرمان من الجندية، أنهم جنود محاربون وأثبتوا تحت محمد علىّ كيف يغلبون الترك، ويبهرون الأوروبيين ويروعون.

ومع ذلك، فقد لا تبدو شجاعة الشجاع ولا صلابته فى معارك الظفر والانتصار، بقدر ظهورها فى محن الهزيمة والانكسار. ولسوف يعلن التاريخ، كيف قاتل القلة من أبنائنا فى بعض بقاع سيناء عام ١٩٥٦، وكيف قاتلوا برغم حلول النكسة عام ١٩٦٧، وهاهم ينتصرون ويروعون عام ١٩٧٣.

هم خير أجناد الأرض مطبوعين. فلنتعهدهم - بشرط القدوة - بالتربية والتعليم صانعين، ولنعد إلى ما روى من قول رسول الله ﷺ لصحابته فى أهل مصر، «فإنهم قوة وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله»، ولقد اختار ﷺ هذا الوصف بأنهم هم القوة لأن القوة جوهر فى ذاتها، تتمثل فيهم وليست صفة عارضة تنسب إليهم يومًا وتنتفى عنهم فى غيره من الأيام. ولقد كان المصريون قوة تفجرت عنها، وانطلقت منها ما تسامعت به أجيال من بعد أجيال.

على أن المتأمل لا يحتاج إلى النظر وإمعان الفكرة فى قوة القوى إذا قضى أو أراد.

وإنما تمتحن القوة إذا اعتورتها المحن المدلهمة والمصائب الشداد. ولقد عرفت فى المصريين القوة بما ركب فى طبعهم ورسخ فى أعماقهم من قدرة على المقاومة والصمود.

هم قوة بما جبلوا عليه من المصابرة والعناد.

فلا مبدل لإرادتهم بغير إرادتهم، ولو وقع الإكراه من أهل التجبر والطغيان.

فلم يستطع أخناتون حملهم على التوحيد، من حيث رفضوه. كما لم يستطع دقيان حملهم على الكفر، إذ كرهوه واستنكروه.

ولم يبالوا مع الأول تعرضهم لعسف واستبداد

ولا مع الثانى لقتل واستشهاد.

وربما هادنوا الطغيان تحينا للصدام والصراع.

وسايروه سخرية على غير طاعة ولا انصياع.

أقبل عليهم الهكسوس فأقاموا فيهم نيفا وقرنا من الزمان متسلطين فاتحين، وأقام المصريون يتحينون الفرصة أيقاظا ساهرين.

فلما آن الأوان خرجوا عليهم خروج العازم المنتقم الذى لا يرضى بغير النصر أو الحمام، ووقف الشعب من وراء حماته وأجناده يبذل عن طواعية وسخاء، ولا يبالى بغير غايته ومبتغاه.

ولم يخدعهم البطالمة عن أنفسهم، ولا دينهم، فأقاموا على المقاومة والثوراث، ولم يطمئنوا إلى دين أخرجوه لهم وابتدعوه، وإن استند إلى بعض ما آمنوا به واتبعوه، بل أقاموا على إنشاء المعابد ورعاية الهياكل والمحاريب، بل لقد شكا هيرودوت من المصرى اشمئزازه من الإغريقى

(١) Herodotus, Histories, Book II, 41 (Penguin p. 118)

أن يقبله أو يصطنع أدواته أو يشرب من إنائه[1]، وفى ذلك مظهر من أشد مظاهر المقاطعة للطارئ والترفع على الدخيل. ومع ذلك فقد أخذت حضارة الغالب عن حضارة المغلوب واعترف فلاسفة الإغريق بحكمة المصريين، وغزا دين المصريين قلوب اليونان والرومان أجمعين.

وأقبل الفاطميون يحملون مع الإسلام مذهبًا فى التشيع لم يرتضوه ولم يسيغوه، ثم زالت سلطتهم، وانحسرت دولتهم، فما تركوا فى مصر من شيعى واحد.

وقد تتبين صلابة المصريين وعنادهم، مما اتبع الفاطميون فى سبيل نشر المذهب قرنين كاملين، من دعوة منظمة تولاها مع داعى الدعاة سيف المعز وذهبه، وتولته بطانته وأنصاره، وتغلغلت الدعوة فى المجتمع مواكب وأعيادا ومآدب وحفلات، وأخبارًا كثيرة عن كرامات ومعجزات. بل كان للدعوة مدخلها المقبول اللطيف إلى نفوس الناس وهى تدعو إلى إجلال آل بيت رسول الله ﷺ، وقد أغرم المصريون، وما زالوا بآل البيت وإجلال آل البيت. بل إن حب آل البيت لمقيم فى النفوس راسخ فى القلوب، ومازال من المصريين من يشرف ويفخر بنسبه إلى ابن بنت رسول الله ﷺ.

على دين واحد كان الحاكم والمحكوم.

وعلى رأى واحد فى حب آل البيت، وإجلال آل البيت، كان الحاكم والمحكوم. فأما أن يتعدى الحب والإجلال إلى ما ليس له به علم فتلك حدود الصدوف ومواقع الوقوف.

---

(١) Herodotus, Histories, Book II, 41 (Penguin p. 118)

لأنه إنما يدرك - بما رسخ فى أعماقه من دقيق الحس والشعور وما منح من ذكاء فطرى يميز به - مظان الخلل ومواطن الخلاف. وإذا بالأزهر الذى أسس لدراسة المذهب الشيعى يتحول إلى أكبر مدرسة لتعليم الدين على مذاهب أهل السنة والتابعين.

ثم أقبل على مصر الترك من آل عثمان:

أولئك حملوا راية الإسلام على مذهب السنة فلا خلاف فى المذهب ولا خصام.

وجاء السلطان فحشر فنادى، فقال أنا سلطان البرين وخاقان البحرين، وأنا حامى حمى الحرمين، وأنا أمير المؤمنين وخليفة المسلمين.

وأقبل الترك على المصريين أفواجًا يزعمون لأنفسهم تفوقًا لا أدرى - بغير الفتح والغلب - كيف كسبوه، وما كسبوه بالحق وما برهنوه. فكل رفيع ممتاز عندهم تركى وعثمانلى، وأسلامبولى أو اسطمبولى. وغير التركى فى عيونهم «فلاح» أو من فلاح «خير سيس».

هنالك تجلت قوة المصرية فى المصريين كأروع ما تكون قوة الإحساس بالنفس، والإحساس بمكانته من حضارة الإنسان من قديم الزمان، ذلك أنه قادر على أن يميز الطبل الأجوف ولو دوًّى دوىّ الرعود، والومض الخلب ولو كاد سنا برقه يذهب بالأبصار. أقبل التركى باسم الخلافة والإسلام. ولكن المصرى بحسه المرهف وحكمته العريقة، قد فرق بين دعوة الإسلام السمحة وبين التسلط المرفوض فى الحكم المرفوض. واتخذ سياسة من أدق ما اتخذ إنسان من سياسة وأبرعها مسلكا. كره التركى فى تسلطه واستعلائه، وخالفه وقاومه، ولكنه حالفه على قوى البغى الأوروبى واستعمار الغاصبين.

لذلك فما تلبث تلك الأفواج التركية أن تدخل فيمتصهم كعادتهم المصريون، ويهضمهم المصريون. يمتصونهم بشرا وإخوة ويهضمونهم نسبا وصهراً، بغير سيادة مقحمة أو استعلاء مزعوم. ويقيم المصرى على اعتزازه بنفسه وتقدير ثقافته وحضارته، فلا يثير استعلاء التركى منه إلا السخرية المريرة والضحك العريض، فإذا زال السلطان التركى لم يترك فى المجتمع المصرى إلا ما يتركه الماء الصافى على الجلاميد الملساء، فلا تركية ولا عثمانلية.

وقد شاء نابليون أن يوطئ لأحلامه فى مصر بما شاء أن يزعم ويدعى من المزاعم والدعايات، فما كان جواب قومها إلا ثورة القاهرة الأولى، وثورتها الثانية، ثم مقتل كليبر خليفته فيها وضابطه الكبير.

وقد يبدو للمخدوع وصاحب النظر السطحى أن المصريين يخدعون عن أمرهم حيث يراهم كأنما أيدوا السلطان الجائر ونصروه، وتعشو عينه عن سلاح عجيب من أسلحة الخذلان والتضليل عرفوه واتبعوه. ذلكم هو سلاح السلبية والإهمال. وما عبر عنه شوقى رحمه الله فى قوله:

لقد أنلتك إذنًا غير واعية   ورب مستمع والقلب فى صمم[1]

ولعل فى الدارج من أمثلتهم ما يصور أسلوبهم وطريقتهم، إذ يقولون: ابق مع الكذاب إلى حد باب الدار»، وهم يعلمون أن لا مصير للكذاب إلا الخذلان والبوار، وهى السياسة التى عبر عنها داهية العرب معاوية بن أبى سفيان فى قوله لابنه: «كل من حاول أن يخدعك،

---

(١) وكذلك كان حظ هيئة التحرير والاتحاد القومى والاتحاد الاشتراكى فيما بين عامى ١٩٥٢ و١٩٧٠.

فتخادعت له حتى بلغت منه مأربك فقد خدعته». لذلك فلا حرج عندهم فى الأخذ بما أشاع الفاطميون من المواكب والأعياد، ثم لا خوض فيما وراءذلك من الدعاوات والغيبيات، ومن عجب أن يتخذوا يوم عاشوراء - وهو يوم حزن عند الشيعة - عيدًا يأكلون فيه الحلوى وأطايب الطعام.

ومع ذلك فقد ركب فى طبعهم ما لا أدرى أيحسب للمصريين، أم يحسب على المصريين، ذلكم هو طول الصبر وامتداد الأناة، كأنما طبع تاريخهم الطويل فى أنفسهم مقاييسه البعيدة الضاربة فى أعماق القرون وأغوار الدهور.

ولقد احتل الإنجليز مصر كما احتلوا غيرها من أمصار العرب سنين، وتفتحت أبوابها معهم لشذاذ الآفاق، وطلاب الثراء والنهازين، وامتلأت بأجناس اليهود والإنجليز والفرنسيين والإيطاليين، والأرمن واليونانيين والمالطيين، ومالت إليهم طائفة من المتمصرين والمتفرنجين مقلدين، واندفعوا إلى ما لهؤلاء من مدارس لم تستقبل أبناءهم لوجه الله ولا لوجه العلم والحضارة مخلصين، «وإنما الأعمال بالنيات».

وقامت فى القاهرة والإسكندرية ومدن القناة نواد بدت كأنها أو تكاد تحرم على المصريين. بل كان على المصرى إن شاء أن يدخلها - وسمح له - أن يلوى لسانه بلغة غير لغته، ويتكلف غير طباعه، أو تنوشه - على الأقل - العيون. ثم لا طعام ولا شراب إلا باسمه الأجنبى وإلا تعرض المسكين للهوان وعد من أسفل سافلين.

ثم غُصَّتْ مصر بالآلاف من جنود الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية بين عام ١٩٣٩ وعام ١٩٤٥. ونطق الخدم والباعة والعمال والتجار

بالإنجليزية، لا يكاد يخلو زقاق فى مصر منها، ومع ذلك فقد بقى كله زبدًا على السطح لا يغوص أبدًا إلى الأعماق، لأن فى أعماق المصرى من حضارته وثقته بنفسه ما يغنيه.

ثم انحسر حكم الأجنبى وتقلص نفوذه. وإذا بمصر على ديدنها وعهدها تحمل لواء الثقافة العربية والنهضة العربية فى أرض العرب من الخليج إلى المحيط، وإذا بها من قوة الروح تتعقب آثار التسلط الأجنبى فلا تبقى عليها ولا تذر، وتعود اللغة العربية والنفس العربية فيها خالصتين صافيتين فلم تَصْفُ اللغة من تأثير الأجنبى فى قطر عربى بقدر ما صفت فى مصر، فلا يتخذ المصرى لفظًا من ألفاظ الحضارة الحديثة وعنده عنه من لغته ما يغنيه، ولا يكاد يجد فى لغته عن الأجنبى بديلاً مقبولاً حتى ينصرف إليه. فلقد فضل لفظ السيارة والعربة على الأوتوموبيل أو الموطر، وفضلا الثلاجة على الفريجيدير والتكييف على الكنديشن، وأولى به لذلك ألا ينصرف عن لفظ عربى يعرفه إلى لفظ أعجمى دخيل. فلم يجر لسانه ـ كما يجرى فى غير مجتمعه لفظ جلاس أو قلاس بديلا عن الكوب على سبيل المثال. فإن أعوزه اللفظ الحديث للمسمى الحديث فإنما ينطق أو يأخذ عن الأجنبى أخذ المريد القادر لما يشاء من بضاعة، ينتقى منها ما يرضى ويختار. ولو قد تعاونت الصحافة والإذاعة وكتب المدارس مع المجمع اللغوى لصفت اللغة العربية، ولخلص اللسان العربى، فى أقل من عشر سنين، مما ينبو عنها من غريب الألفاظ، ولرددنا هجنة خطيرة عادت تهاجم لغتنا ونفوسنا، بعد فجأة الانفتاح العاصف، وما تدفق علينا من المستورد من أموال وبنين، وما تسرب إلينا مع مغريات هذا الجيل من طرائف[1].

---

(١) يؤسفنى ما تشيعه أجهزة الإعلام اليوم فى اللغة العربية من أوبئة وعاهات.

ومهما يكن من شىء فقد أصبحت لهجة مصر العربية قياسا ونموذجا للعرب المحدثين فى الإسلام كما صارت لهجة قريش قياسا ونموذجا لعرب الجاهلية قبل الإسلام.

***

وبعد فتلك لمحة من مصر ومن أهل مصر، فهل أتاك حديث مصر؟! صلابة وقوة لا تدركهما جهالة الحاكم، فى صلف التجبر والغرور. إذ لا مبدل لإرادتهم بغير إرادتهم ولو سلك سبيل الحيلة وبدا فى مسوح الرهبان.

ولا مبدل لإرادتهم بغير إرادتهم ولو سعى إليهم - واستجابت القلة - بالمنصب الجذاب أو البارق من القناطير المقنطرة من الورق والعقيان.

وتمضى عجلة الزمان وهم على ما هم عليه نعم الأعوام كما كانوا فى غابر الزمان.

وهم اليوم إنما يبذلون عن طواعية وإقبال، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. إذ يبذلون من علمهم وخبرتهم لإخوتهم ما عندهم وما يستطيعون، حيث تفتح مصر أبوابها لمن يقبل عليها يطلب العلم أو الدين، أو يطلب الملجأ الهادئ أو المستقر الأمين، أو ترسل أبناءها بالعلم والخبرة ملبين مسرعين، مهندسين ومعلمين، وقراء للقرآن أو عمالاً وصانعين، لأنهم آمنوا منذ القدم بعون إخوتهم وأشقائهم مخلصين.

ولقد أقبلت على مصر الشعوب فى عصور قوتها وعصور ضعفها على سواء. لأنها كانت دائمًا صاحبة شئ تعطيه أو شئ يراد. فليكن لدينا أبدا مع ما نعطيه، وعندنا - مع العزة والقوة - ما يراد، ولا محالة كى يراد أن يبرأ من شبهة الزيف ويتنزه عن مظنة التمويه.

ختـــام

وبعـــد . . .

فتلك هى مصر وهذا شأنها وحظها من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ ، وخليق بها لذلك أن يظل اسمها بعمل أبنائها خفاقا فى العالمين جذابا للأقربين والأبعدين ، لأنه اسم شاء الله أن يكون له مكانه من كتبه ومنزلته من أنبيائه ومرسليه .

وتخفق له قلوب الناس على اختلاف الملل والنحل فى المشرقين والمغربين ، كلما قرءوا ما نزل من كتبهم ، أو سمعوا السيرة من سير أنبيائهم . بل إن المورمون فى أمريكا ليردون عقيدتهم إلى ما أوحى إلى نبيهم چوزيف سميث عن البردى المصرى باللسان المصرى .

وإن الشعوب لتبذل النفس و النفيس وتنفق جليل الأموال فى سبيل إذاعة أسماء بلادها ، وبث ثقافتها فى العقول والأفئدة والشفاه .

فكيف بنا ولمصر من جذور العقيدة سهم ينفذ إلى سواد القلوب ، وحنايا الصدور .

ولنا من ذلك رصيد لا شك ينمو ويتعظم، إن تعهدناه وخلصناه من الشوائب ورعيناه.

تلك هى مصر وهذا قدرها.

ترى هل يتردد اسمها بعمل بنيها قويا فى النفوس

راسخًا فى الأعماق..

ملحق (١)

أزمان الفراعين

عصر بداية الأسرات	
(الأسرتان الأولى والثانية)	٣٢٠٠-٢٧٧٨ ق.م
الدولة القديمة	
الأسرة الثالثة	٢٧٧٨-٢٧٢٣ ق.م
الأسرة الرابعة	٢٧٢٣-٢٥٦٣ ق.م
الأسرة الخامسة	٢٥٦٣-٢٤٢٣ ق.م
الأسرة السادسة	٢٤٢٣-؟؟
عصر الفترة الأولى	
الأسرات ٧-١٠	٢٢٤٢-٢٠٦٠ ق.م
الدولة الوسطى	
الأسرة الحادية عشرة	٢١٦٠-٢٠٠٠ ق.م
الأسرة الثانية عشرة	٢٠٠٠-١٧٨٥ ق.م

عصر الفترة الثانية

الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة	١٧٨٥ ـ ١٦٨٠ ق . م
الهكسوس	١٧٣٠ ـ ١٥٨٠ ق . م

الدولة الحديثة

الأسرة الثامنة عشرة	١٥٨٠ ـ ١٣٢٠ ق . م
الأسرة التاسعة عشرة	١٣٢٠ ـ ١٢٠٠ ق . م
رمسيس الثانى	١٢٩٨ ـ ١٢٣٢ ق . م
مرنپتاح	١٢٣٢ ـ ١٢٢٢ ق . م
سيتى الثانى	١٢٢٢ ـ ١٢١٦ ق . م

ملحق (٢)

الضمائر المصرية والسامية

عربي	مصري	عبري	آرامي	أكدي	سبئي	حبشي
أنا	أنوك	أني-أنوكي	إنو-إنا	أتاكي	أنا(؟)	أنا
أنت	أنتوك	أتا	أت، أنت	أنا	أنت(؟)	أنت
هو	انتوف، سو	هو	هو	سو	هو	وإتو
هي	انتوس، سي	هي	سي	هي	هي	ي ايتو
نحن	اينن	أنحن	انحنان	انيني	نحن	نخنا
أنتم-أنتن	انتوتن	-أتم	اتن	أتينا	—	انتن
هم	انتوسن	-هم	هتون	شونو	همو	امونتو وايتمو
هن	انتوسن	-هنا	هنين	شنا	هن	امانتو وايشون

ثم انظر:

Erman - Wörterbuch der Ägyptischen Sprache, VI, Teil III, C Verzeichnis der in den Hauptänden angeführten Wörter aus Semitischem und hamitischen Sprachen.

Ember, Egypto - Semitic Studies (Leipzig 1930)

Calice, Grundlagen der Agyptischen Semitischen Wörterverzeichnis (Herausgegeben Von Heinrich Balcz) (Wien 1936)

أهم المراجع العربية

القرآن الكريم

تفاسير القرآن الكريم

(أ) تفسير النسفى

(ب) تفسير البيضاوى

(جـ) تفسير أبى السعود

(د) تفسير القرطبى

الكتاب المقدس

- أحمد بدوى وهرمن كيس : المعجم الصغير فى مفردات اللغة المصرية .
- إسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية (القاهرة ١٩٢٩) .
- برستيد : فجر الضمير ترجمة سليم حسن .
- حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى أطواره ومذاهبه .

- دريوتون وڤانديه: مصر - ترجمة عباس بيومى

- دتيلف نلسن وفرتز هومل وورودو كاناكس وأدولف جرومان: التاريخ العربى القديم - ترجمه واستكمله فؤاد حسنين على (القاهرة ١٩٥٨).

- سبتينو موسكاتى: الحضارات السامية القديمة - ترجمة د. السيد يعقوب بكر.

- سليم حسن: مصر القديمة

- السيوطى: حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٣٢٧هـ).

- عباس محمود العقاد: أبو الأنبياء.

- عبدالعزيز صالح: التربية والتعليم فى مصر القديمة.

- مونتيه: الحياة اليومية فى مصر القديمة فى عهد الرعامسة - ترجمة: عزيز مرقس منصور.

المراجع الأجنبية

The Holy Bible
The Jerusalem Bible (London 1967)
Die Bibel
La Sainte Bible

الدوريات

Annales du Service des Antiquites de l,Egypte = ASA
Journal of Egyptian Archaeology = JEA
Revue d'Egyptolagie.

الكتب والبحوث

Aldred, C.,The Jewels of the Pharaohs (London 1971).
Baikie, The Amarna Age(London 1928).
Barguet, La Stele de la Famine a Sehel (le Caie 1953);
Le Livre des Morts des Anciens Egyptien (Paris 1967).
Barsanti- Gauthier, Stéles Trouves a Oudi Es-Seboua (Nubie) ASA XI (1911) p.84 ff.

Blackman, Middle Egyptian Stories (Bnuxelles).

Bonnet, H., Reallexikon der Ägyptischen Religionsgeschichte (Berlin 1971).

Breasted, Ancient Records of Egypt 5 Vols. (New York 1962).

_ Devlopment of Religion an Thought in Ancient Egypt (London 1912).

_ The Dawn of Conscience.

_ The Ras Shamra Statue of Sesortis - Onekh (Syria XVI pp. 318 - 320, Paris 1935).

Brugsch, Die Biblichen Sieben Jahre der Hungesnoth (Leipzig 1891).

Budge, The Book of the Dead (London 1953).

Calice, Garundlagen der Agyptisch - Semtischen Wörtervezechnis (Wien 1936).

Caminos, Late Egyptian Miscellanies (London 1954).

Capart-,Gardiner - Van de Valle, New Light on the Ramesside Tomb Robberies JEA XXII pp. 168 - 173 pl. X - XVI

Cerny, Papyus Salt 124 (British Museum 10055)JEA XV (1929)p.243 ff pls. xlii - xlvi.

_ Greek Etymology of the Name of Moses, ASA xli (1942) p.349 ff.

_ A Community of Workmen at Thebes in the Ramesside Period (le Caire 1973).

Christophe, L ., La Carrière du Prince Merenptah et les trois Regence Ramesside ASA LI (1951) p.335 ff.

Couyat - Montet, Les Inscriptions Hieoglyphiques et Hieratiques du Oudi Hammamat (le Caire 1912).

Ember, A., Egypto - Semitic Studies (Leipzig 1930).

Erichsen, W. Papyrus Harris I (Bruxlles 1933).

Erman, Die Märchen des Papyrus Westcar (1890)

_ Gesp räch eines Lebensmüden mit Seiner Seele (Berlin 1896).

_ The Ancient Egyptians. A sourcebook of their Writings (Translated by Aylward M. Blackman (New York 1966).

Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage (Leipzig 1909).

_ Egyptian Grammar (Oxford 1973).

_ Late Egyptian Miscellanis (Bruxelles 1937)

_ Hieratic papyri in the Brtisch Museum Third Series, Chester Beaty gift (London 1935).

_ The Instructions adressed to Kagemni and his Bretheren JEA 32.

Gardiner - Sethe, Egyptian Letters to the Dead (London 1928)

Gardiner - Peet - Cerny, The Inscriptions of sinai I- II (1952 - 1955)

Gardiner, Egypt of the pharaohs (Oxford 1961).

Gauthier, La Grande Inscription Dedicatoire d'Abydos (le Caire 1912)

_ Livre des Rois(Le Caire 1907 - 1917) .

Glanville, The Legacy of Egypt (Oxford 1947)

_ Catalogue of Demotic Papyri in the British Museum Vol. II The Instructions of Onkhshashanky (London 1955)

Hassan, A., Stöcke und Stäbe in Phsraonischen Ägypten bis zum Ende des Neuen Reiches (München - Berlin 1976) .

Hayes, A papyrus of the Late Middle Kingdom in the Brooklyn Museum (Brooklyn 1955)

_ The Sceptre of Egypt (New York 1968)

Helck , W., Urkunden der 18' Dynastie (Berlin 1955 - 58)

Junker, H., Das Brandopfer im Totenkult (in Miscellania Gregoriana (1941) pp. 109 - 119

Kees, H., Ancient Egypt, A Cultural Topography (London 1961)

Kitchen, Ramesside Insriptions (Oxford 1975)

Knutzon, . Die Tell el Amarna Tafeln.

Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages (London 1914)

Lange, H. O., Das Weisheitsbuch des Amenemope (Kobenhvn (1925).

Lefebvre, Romans et Contes Egyptiens de l'Epoque pharaonique (Paris 1949).

Macramalla, Le Mastaba d'Idout (le Caire 1935).

Mariett, Abydos.

Meinertzagen, Nicoll's Birds of Egypt

Möller, Hieratische Lesesücke II(Leipzig 1927)

Montet, Le Drame d'Avaris (Paris 1941)

_ Tanis (Bruxelles 1947)

_ L'Egypte et la Bible (Neuchatel 1959)

Naville, Pithom (London 1903)

Noblecourt, Tutankamen (1963)

Otley, A short History of the Hebrews (Cambridge 1932)

Peet, E., The Great Tomb Robberies of the Twentieth Eagyptian Dynasty (Oxford 1930)

Petrie, A History of Egypt

_ Nebesheh and Defenneh

Pritchard, Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament (Princeton 1969)

The Times Atlas of the Bible (London 1987).

Poesner, G., Litterature et Politique dans l'Egypt de la XII Dynastie (Paris 1956)

_ Le Conte de Neferkare et du General Sesene dans Revue d'Egyptologie 11 (1957) pp. 119 ff.

Ranke, Die Ägyptischen Personenamen 2 Vols. (Glukstadt 1935 - 1952)

Säve - Söderbergh, T.Agypten und Nubien (Lund 1941)

Sethe, Urkunden des allten Reiches (1980)

_ Urkunden der18 Dynastie

Hieroglyphische Urkunden der Griechisch- Romischen Zeit

Stock, H., Studien zur Geschichte und Archaeolgie der 13. Bis 17 Dynastie Ägyptens (1942)

_ Die Erste Zwischenzeit Agyptens (1949)

Vandier, La Famine dans l'Egypte Ancienne (le Caire 1936)

Valbelle, D., Les Ouvriers de la Tomb, Deir Medinet à l'Epoque Ramesside (le Caire 1985)

Volten, A., Studien Zum Weisheitsbuch des Anii (Kobenhavn 1937)

_ Zwei altagyptische Politische Schriften (Kobenhavn 1945)

Whiston, The Life and Works of Flavius Josephus (Philadelphia 1957)

Wild, Le Tombeau de Ti (le Caire 1953)

Williams (Ronald,T.)Some Egyptianisms in the Old Testament (in Studies in Honor of John A. Wilson (Chicago 1969) p. 93 ff.

Youssef. A.A., Merenptah's Fourth Year Text at Amada ASA LVIII (1964) p. 273 ff.

Zivie A. P, La Tombe d'Un Officier de la XVIII Dyrastié a Saqqara (Revue d'Egyplotogie Tome 31(1979) pp.135 - 151

_ Tombes Rupestres de Falaise de Bubasteion à Saqqara(ASA LXIII, 1982).

ثبت المحتوى

ثبت الخرائط

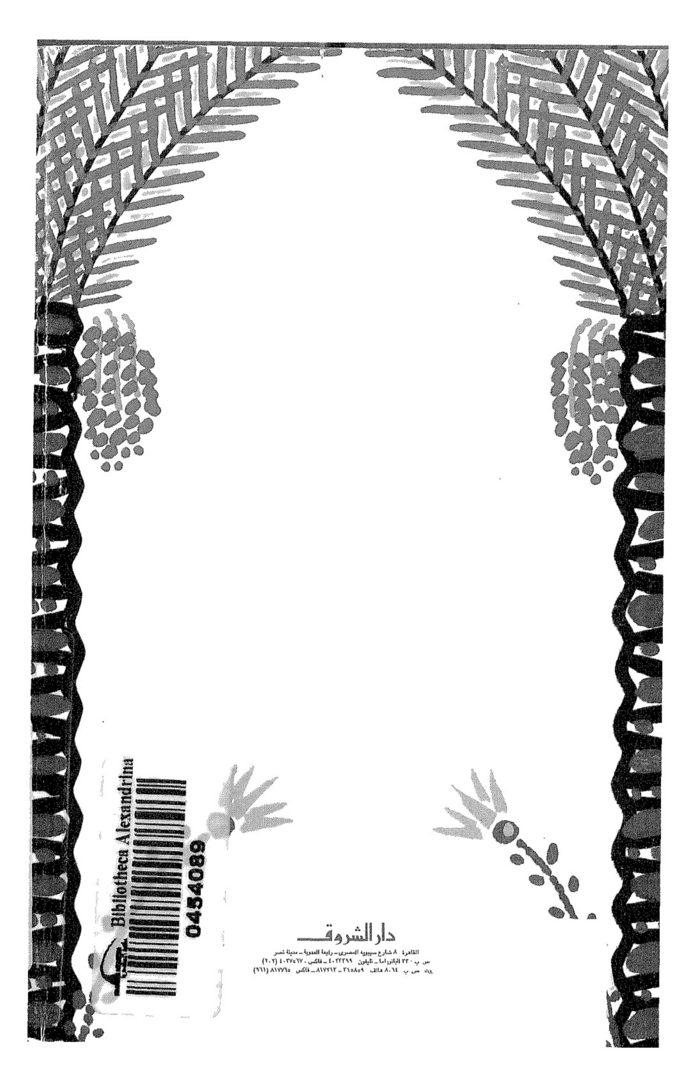
ثبت الأشكال

رقم الإيداع ٧٧٢١ / ٩٩
الترقيم الدولى X - 0550 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ـ٨١٧٢١٣ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



دار الشروق
القاهرة ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص ب ٣٣٠ البانوراما - تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت ص ب ٨٠٦٤ هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)